

جامع السجاني

للسيخ الجليل أحمد أعظم المفهرم بن المولى

محمد مهدي الزاقي

المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ

الجزء الثالث

تصدي لنشره والتعليق عليه وتصحيحه

الفاضل السيد محمد الكلاتري

تم تحقيقه والتعليق عليه وتصحيحه بإشراف

الشيخ محمد رضا المظفر معتمد منتدى النشر

مطبعة الزمراة في نجف

١٣٦٨ — ١٩٤٩

obeykandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بقيّة المقام الرابع

ومنها (١)

الغرور

معنى الغرور - ذمه - طوائف المغرورين : - المغرورون من الكفار - والعصاة والفساق من المؤمنين - المغترون من أهل العلم وفرقهم - المغترون من الوعاظ كثيرون - المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة - المغترون من المتصوفة أكثر - المغترون من الأغنياء أكثر من سائر الطوائف - ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد -

وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور . ولما كانت أكثر الناس ظانين بانفسهم خيراً ، ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الأعمال والأفعال وخيريتها ، مع أنهم مخطئون فيه ، فهم مغرورون ، مثلاً من يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف الخير كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها ، يظن أن هذا خير له وسعادة ، مع أنه محض الغرور حيث خدعه الشيطان وأراه ما هو شر له خيراً ، وكذا الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته ، يظن أنه في طاعة الله ، مع أنه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته .

(١) أي من الرذائل المتعلقة باثنتين من القوى الثلاث أو بجميعها وهي القوة المساقلة والفضائية والشهوية . وهذه الرذيلة هي الرذيلة (الواحدة والعشرون) منها .

ثم لا ريب في أن ستكون النفس الى ما يوافق الهوى ، ويميل الطبع اليه عن شبهة وخيلة مركّب من أمرين . (أحدهما) اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع ، (وثانيهما) حبها وطلبها باطنياً لمقتضيات الشهوة أو الغضب ، فإن الواعظ اذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقداً أنه يجلب به الثواب تكون له رغبة الى الجاه واعتقاد بكونه خيراً له ، إذ الغني اذا أمسك ماله ولم ينفقه في مصارفه اللازمة وواظب على العبادة معتقداً أن مواظبته على العبادة تكفي لنجاته ، وإن كان بخيلاً يكون له حب للمال واعتقاد بأنه على الخير . ثم الاعتقاد المذكور راجع الى نوع معين من الجهل المركب ، وهو الجهل الذي يكون المجهول المعتقد فيه شيئاً يوافق الهوى ، فيكون من رذائل القوة العاقلة ، والحب والطلب للجاه والمال من رذائل قوتي الغضب والشهوة . فالغرور يكون من رذائل القوى الثلاث ، أو من رذائل العاقلة مع أحدهما .

فصل

ذم الغرور

الغرور والغفلة منبوع كل هلكة وام كل شقاوة ، ولذا ورد فيه الذم الشديد في الآيات والأخبار ، قال الله سبحانه : « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ » (١) وقال عز وجل : « وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ » (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « حبسنا نوم

(١) لقمان الآية ٣٣ ، فاطر الآية ٥ (٢) الحديد الآية ١٤

الا كياس وفطرتهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولثقال ذرة من صاحب تقوى ويتقن أفضل من ملء الأرض من المغترين » ، وقال الصادق عليه السلام: « المغرور في الدنيا مسكين ، وفي الآخرة مغبون ، لأنه باع الأفضل بالادنى ولا تسجب من نفسك ، فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك أن لعلك تبقى . وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك واصحابك لعلك تنجو بهم . وربما اغتررت بجمالك ومنيتك واصابتك مأمولك وهواك ، فظننت أنك صادق ومصيب . وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة ، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك ، وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الانخلاص ، وربما افتخرت بعلمك ونسبك ، وأنت غافل عن مضمورات ما في غيب الله تعالى . وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه . وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريد لهم لنفسك أن يعملوا اليك . وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة » (١)

فصل

طوائف المغرورين

إعلم أن فرق المغترين كثيرة ، وجهات غرورهم ودرجاته مختلفة ، وما من طائفة في العالم مشتركين في وصف مجتمعين على أمر إلا ويوجد فيهم فرق من المغترين . إلا أن بعض الطوائف كلهم مغترون كالكفار والعصاة والفساق ، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور ، وإن كان معظم كل

طائفة أرباب الغرور . ونحن نشير الى بحاري الغرور ، والى غرور كل طائفة ،
ليتمكن طالب السعادة من الاحتراز عنه ، إذ من عرف مداخل الآفات والفساد
ومخاريجها يمكنه أن يأخذ منها حذرہ ، ويهني على الجزم والبصيرة اسره .
فنعول :

الطائفة الاولى

الكفار

وهم مغرورون بأسرهم ، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا ، وبين من
غره الشيطان بالله ، وأما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فباعث غرورهم قياسان نظمها
الشيطان في قلوبهم (أولها) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد خير من النسيئة .
(وثانيها) أن لذات الدنيا يقينية ، ولذات الآخرة مشكوكة فيها ، واليقيني خير من
المشكوك فلا يترك به . وهذه اقيسة فاسدة ، تشبه قياس ابليس ، حيث قال :
« أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » (١)

وعلاج هذا الغرور بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقيقة
النبي صلى الله عليه وآله ، وهو في غاية السهولة لوضوح الطرق والأدلة ، إما
أن يتبع مقتضى إيمانه ويصدق الله تعالى في قوله : « مَا عِنْدَكُمْ يُنْفِذُ وَمَا عِنْدَ
اللَّهِ بَاقٍ » (٢) وفي قوله تعالى : « وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (٣) وقوله :
« وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (٤) وقوله : « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ
الْغُرُورِ » (٥) وقوله تعالى : « وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ

(١) الاعراف الآية ١١ - ص الآية ٧٧ (٢) النحل الآية ٩٧

(٣) الاعلى الآية ١٧ (٤) القصص الآية ٦٠ والشورى الآية ٣٩

(٥) آل عمران الآية ١٨٥ - الحديد الآية ٢٠

بالله الغرور . »

وإما أن يعرف بالبرهان فساد القياسين ، حتى يزول عن نفسه ما تأديا اليه من الغرور . وطريق معرفة الفساد في « القياس الأول » أن يتأمل في أن كون الدنيا نقداً والآخرة نسيئة صحيح ، إلا أن كون كل نقد خيراً من النسيئة غير صحيح ، بل هو محل التلبس إذ المسلم خيرية النقد على النسيئة إن كان مثلها في المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء وأما إن كان أقل منها في ذلك وأدون فالنسيئة خير ، ألا ترى أن هذا المغرور إذا حذر الطيب من لذائذ الاطعمة يتركها في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل ، ويبذل درهماً في الحال ليأخذ درهماين نسيئة ، ويتصب في الاسفار ويركب البحار في الحال لأجل الراحة والريح نسيئة . وقس عليه جميع أعمال الناس وصنائعهم في الدنيا من الزراعة والتجارة والمعاملات ، فانهم يبذلون فيها المال نقداً ليصلوا الى أكثر منه نسيئة ، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال فانسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة الى لذة الآخرة من هذه الحثيات ، فإن من عرف حقيقة الدنيا والآخرة يعلم أنه ليس للدنيا قدر محسوس بالنسبة الى الآخرة ، على أن لذة الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ، ولذات الآخرة صافية غير ممتزجة بشيء من المكدرات . وأما طريق معرفة فساد « القياس الثاني » بأصاياه ، هو أن يعرف أن كون لذات الآخرة مشكوكاً فيها خطأ وأن كل يقيني خير من المشكوك غلط : « أما الأول » فلأن الآخرة يقينية قطعية عند أهل البصيرة ، وليقينيهم مدركان : « أحدهما » ما يدركه عموم الخلق وهو اتفاق عظماء الناس من الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء ، فإن ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل كما أن المريض الذي لا يعرف دواء علته إذا اتفق جميع أرباب الصناعة

على أن دواءه كذا فانه تطمئن نفسه الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك
 بالبراهين بل يشق بقولهم ويعمل به وإن كذبهم صبي أو معتوه أو سوادي ،
 ولا ريب في أن المنكرين الآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والباطلين
 بالنظر الى الخبرين عن أحوال الآخرة والمشاهدين لها من الأنبياء والأولياء أدون
 حالا وأقل رتبة من صبي أو معتوه أو سوادي بالنظر الى أطباء بلد أو مملكة .
 (وثانيهما) ما لا يدركه إلا الأنبياء والأولياء وهو الوحي والالهام ، فالوحي
 للأنبياء والالهام والكشف للأولياء ، فإنه قد كشفت لهم حقائق الأشياء كما
 هي عليها وشاهدوها بالبصيرة الباطنة ، كما تشاهد أنت الحسوسات بالبصر
 الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد ، ولا تظن أن معرفة النبي
 صلى الله عليه وآله لأمر الآخرة ولأمر الدين مجرد تقليد لجبرئيل بالسمع منه ،
 كما أن معرفتك لها تقليد للنبي ، هيئات فإن الأنبياء يشاهدون حقائق الملك والمملوك
 وينظرون إليها بعين البصيرة واليقين وإن أكد ذلك بالقاء الملك والسمع منه .
 وأما المغرورون بالله وهم الذين يقدرّون في أنفسهم ويقولون بأنسنتهم إن
 كان الله معاد فنحن فيه أوفر حظاً وأسعد حالاً من غيرنا ، كما أخبر الله سبحانه
 عن قول الرجلين المتحاورين إذ قال : « وما أظن الساعة قائمةً ولئن رُدتْ
 إلى ربِّي لأرجدنَّ خيراً منها مُنْقَلَباً » (١) وباعت ذلك ما ألقى الشيطان
 في روعهم من نظرهم مرة الى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة
 وينظرون الى تأخير الله العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال
 الله تعالى : « وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُ اللَّهُ بِمَا تَقُولُ حَسْبُكُمْ
 جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبئس المصير » (٢) ومرة ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء

محتاجون فيقولون لو احبهم الله لأحسن إليهم في الدنيا ولو لم يحبنا لما أحسن إلينا فيها ، فلما لم يحسن إليهم في الدنيا وأحسن إلينا فيها فيكون محباً لنا ولا يكون محباً لهم فيكون الامر في الآخرة كذلك ، كما قال الشاعر :

كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

ولا ريب في أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة ، فإن من ظن أن النعم الدنيوية دليل الحب والاكرام فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عند الله بدليل لا يدل على الكرامة بل يدل عند اولي البصائر على الهوان والخلدان ، لأن نعم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله وأن الله يحمي احبائه الدنيا كما يحمي الوالد الشفيق ولده المريض لذائد الاطعمة ، ومثل معاملة الله سبحانه مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق حيث يزوي الدنيا عن الاول ويصب نعمها ولذاتها على الثاني مثل من كان له عبدان صغيران يحب أحدهما ويبغض الآخر ، فيمنع الاول من اللعب ويأزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ويمنعه من لذائد الأطعمة والفواكه التي تضره ويسقيه الادوية البشعة التي تنفعه ، ويهمل الثاني ليعيش كيف يريد ويلعب ويأكل كل ما يشتهي ، فلو ظن هذا العبد المهمل أنه محبوب كريم عند سيده لتمكنه من شهواته ولذاته وأن الآخر مبغوض عنده لمنعه عن مشتبهاته كان مغروراً أحق ، وقد كان الخائفون من ذوي البصائر اذا أقبلت عليهم الدنيا خزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته ، واذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحباً بشعار الصالحين ، وأما المغرورون فعلى خلاف ذلك لظنهم أن اقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وأن ادبارها عنهم هوان لهم ، كما اخبر الله تعالى عنه بقوله « فإنا الإنسان إذا ما ابتلاه ربه »

فَاكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدِ
عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ « (١)

وعلاج هذا الغرور أن يعرف أن اقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان
الكرامة والاحسان . والتجرد منها سبب الكرامة واقرب الى الله سبحانه
والطريق الى هذه المعرفة إما ملاحظة أحوال الانبياء والاولياء وغيرهما من
طوائف العرفاء و الفرق الاتقياء ، أو التدبر في الآيات والأخبار ، قال الله سبحانه
« أَلَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ رِزْقًا مِّنْ مَّالٍ وَنَحْنُ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخِيَرَاتِ
بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » (٢) وقال الله سبحانه : « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ » (٣) وقال تعالى : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِ
أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ »
وقال تعالى : « إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيُذَادُوا إِثْمًا » (٥) الى غير ذلك من الآيات
والأخبار . ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا ي
مكروه ولا يغتر به بامثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينذر الى قارون وفراء
وغيرهما من الملوك والجبابرة كيف أحسن الله اليهم ابتداء ثم دمرهم تدمير
وقد حذر الله عباده عن مكروه واستدراجه فقال : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ
إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » (٦) وقال : « وَمَكْرُؤًا مَّكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ سَـ
الْمَا كَرِينٌ » (٧)

(١) الفجر الآية ١٥ - ٦ (٢) المؤمنون الآية ٥٦ - ٥٧

(٣) الاعراف الآية ١٨٢ . (٤) الانعام الآية ٤٤

(٥) آل عمران الآية ١٧٩ (٦) الاعراف الآية ٩٩

(٧) آل عمران الآية ٥٤

الطائفة الثانية

العصاة والفساق من المؤمنين

وسبب غرورهم وغفلتهم اما بعض بواعث غرور الكافرين كما تقدم
أو ظنهم أن الله تعالى كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة وأين معاصي العباد في
جنب بحار رحمته ، ويقولون انا موحدون ومؤمنون فكيف يعذبنا مع التوحيد
والإيمان ويقررون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء كما تقدم . وربما اغتر بعضهم
بصلاح آبائهم وعلو رتبتهم كاختار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة
آبائهم الظاهرين في الخوف والورع . وعلاج هذا الغرور أن يعرف الفرق بين
الرجاء الممدوح والتمني المذموم ، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوح بل هو
تمني مذموم ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الكيِّس من دان
نفسه وعمل لما بعد الموت والآخر من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله » ، فإن
الرجاء لا ينفك عن العمل إذ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه ،
وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو لم ينكح أو نكح ولم يجمع أو جامع ولم
ينزل فهو مغرور أحمق ، كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يترك
المعاصي أو تركها ولم يعمل صالحاً فهو مغرور جاهل ، كيف وقد قال الله سبحانه :
« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ
يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ » (١) ، يعني أن الرجاء يليق بهم دون غيرهم ، وذلك
لأن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال ، كما قال تعالى : « جزاء ربما

« كَانُوا يَعْمَلُونَ » (١) وقال : « وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »
 وقال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ تَسْمِيَهُ سَوْفَ يُبْرَى »
 وقال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » (٢) أنترى أن من استوجر
 اصلاح أوانٍ وشرط له اجرة عليها وكان الشرط كريماً يفي بوعده وشرط
 كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه ، فجاء الاجير وكسر الاواني وافسد
 جميعاً ثم جلس ينتظر الاجر زعماً منه أن المستاجر كريم ، افيراه العقلاء
 انتظاره راجياً أو مغروراً متمنياً . وبالجملة سبب هذا الغرور الجهل بين الر
 والعزة فليعالجه بما ذكر هنا وفيما سبق .

ثم إن المغرور بعلو رتبة آبائه ظاناً أن الله تعالى يحب آباءه ومن أ.
 انساناً أحب أولاده أشد حقاً من المغرور بالله ، لأن الله سبحانه يحب الم.
 ويبغض العاصي من غير ملاحظة لآبائهما ، فكما أنه لا يبغض الأب الم.
 ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع ، وا
 يمكن أن يسرى من الأب إلى الابن شيء من الحب والبغض والمعصية والتقوى
 إذ لا تزر وازرة وزر أخرى ، فمن زعم أنه ينجو بتقوى أبيه كان كمن زعم
 يشبع باكل أبيه أو يصير عالماً بتعلم أبيه أو يصل إلى الكعبة بمشي أبيه ، فهم
 هيهات ! إن التقوى فرض عين على كل أحد ، فلا يجزى والد عن ولده شيء
 وعند الجزاء يفر المرء من أخيه وامه وأبيه وصاحبته وبنيه ، ولا ينفع أحد أ
 إلا على سبيل الشفاعة بعد تحقق شرائطها .

ثم العصاة المغرورون إما ليست لهم طاعات فتمنيتهم المغفرة غاية الجهل كما

(١) السجدة الآية ١٧ . (٢) آل عمران الآية ١٥٥

(٣) النجم الآية ٤٠ ، ٤١ . (٤) المدثر الآية ٤٠

أولهم طاعات ولكن معاصيهم أكثر وهم عالمون بكثيرة المعاصي ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على سيئاتهم ، وهو أيضاً غاية الجهل ، إذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً أو ألفين وتوقع أن تميل الكفة الثميلة بالخفيفة ، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه ، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذي يحج طول عمره حجة ويبنى مسجداً ثم لا يكون شيء من عباداته على النحو المطلوب ولا يجتنب من اخذ أموال المساكين ، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد في ذكره ، ويقول كيف يعذبني الله وقد حججت وبنيت مسجداً ، وكالذي يسبح الله كل يوم مائة مرة ثم يفتاب المساكين ويمزق اعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد ، ويكون نظره الى عدد سبحته مع غفلته عن هديانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، فهو يتأمل دائماً في فضيلة التسبيحات ولا يلتفت الى ماورد في عقوبة الكذابين والمفتابين والنمامين والفحاشين ، ولو كان كتبه اعماله يطلبون منه اجرة الزايد من هديانه على تسبيحاته لكان عند ذلك يسعى في كفة لسانه عن آفاته وموازنتها بتسبيحاته حتى لا يكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه اجرة نسخ الزائد . فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً ان يفوته مقدار قيراط ولا يحتاط خوفاً من فوت العليين ومجاورة رب العالمين .

الطائفة الثالثة

أهل العلم

والمنفردون منهم فرق : (فمنهم) من اقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب المناظرة ليتفادى في اندية الرجال ويتفوق على الاقران والامثال ، من غير أن يكون له في العقائد قسم راسخ أو مذهب واحد بل يختار تارة ذلك وتارة هذا ، وتكون عقيدته كمخيط مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا ومرة هكذا ومع ذلك يظن بغيره أنه اعرف الناس واعلمهم بالله وبصقائه .

و (منهم) من اقتصر من العلم على علم النحو واللغة أو الشعر أو المنطق واغتر به وافنى عمره فيها ، وزعم أن علم الشريعة والحكمة موقوف عليها ، ولم يعلم أن ما ليس مطلوباً لذاته ويكون وسيلة الى ما هو مقصود لذاته يجب ان يقتصر عليه بقدر الضرورة ، والتعمق فيه الى درجات لا تنهاى فضول مستغنى عنها وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته .

و (منهم) من اقتصر على فن المعاملات من الفقه المتضمن لكيفية الحكم والقضاء بين الناس واشتغل باجراء الأحكام ، واعرض عن علم العقائد والاخلاق ، بل عن فن العبادات من الفقه ، واهمل تفقد قلبه ليتخلى عن رذائل الاخلاق ويتحلى بفضائل الملكات ، وتفقد جوارحه وحفظها عن المعاصي والزامها الطاعات .

و (منهم) من حصل فن العبادات ايضاً بل احكم العلوم الشرعية

بأسرها وتعمق فيها واشتغل ، ولكن ترك العلم الإلهي وعلم الاخلاق ولم يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصي ولم يعمرها بالطاعات .

و (منهم) من احكم جميع العلوم من العقلية والشرعية وتعمق فيها واشتغل بها ، لا أنه اهل العمل رأساً ، أو واطب على الطاعات الظاهرة واهمل صفات القلب ، وربما تفقد صفات القلب واخلاق النفس ايضاً وجاهد نفسه في التبرّي عنها وتلمع من قلبه منابها الجليلة القوية ، ولكن بقيت في زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان وخبايا وتليدات النفس ماذق وغمض مدركه فلا يتفطن بها .

وجميع هؤلاء غافلون مغرورون اذا كان اعتقادهم انهم على خير وسعادة وإن كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدة إذ سعادة النفس وخلصها عن العذاب لا تحصل إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وافعاله واحوال النشأة الآخرة والعلم برذائل الاخلاق وشرائفها ، ثم تهذيب الباطن بفضائل الاخلاق وعمارة الظاهر بصالح الطاعات والاعمال ، فكل من يعلم بعض العلوم وترك ما هو المهم من العلم اعني معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات النفس التي هي الصفات المذمومة المانعة عن الوصول الى الله وظن انه على خير كان مغروراً واذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله ، فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره فهو كمن له مرض خاص مهلك فاحتاج الى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم مرض آخر يضاد مرضه في المعالجة ، كما ان من احكم العلوم بأسرها وترك العمل مثل المريض الذي تعلم دواء مرضه وكتبه وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا يستعمله قط لنفسه ، فإنه لا ريب في ان مجرد تعلم الدواء لا يشفيه ، بل لو كتب منه الف نسخة وعلمه الف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليلة الف مرة لم ينفعه

ذلك من مرضه شيئاً حتى يشتري هذا الدواء ويشربه كما تعلم في وقته، ومع شربه واستعماله يكون على خطر من شفائه، فكيف اذا لم يشربه أصلاً، فلو ظن أن مجرد تسلّم الدواء يكفيه ويشفيه فهو مغرور، فكذلك من احكم علم الطاعات ولم يعملها واحكم علم المعاصي ولم يجتنبها واحكم علم الاخلاق ولم يترك نفسه عن رذائلها ولم يتصف بفضائلها فهو في غاية الغرور، إذ قال الله تعالى: « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا »، ولم يقل قد افلح من علم طريق تزكيتها.

ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الأخلاق والغرور ادى بهم الى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها، وأنهم ارفع عند الله من أن يتسلّم بها وإنما يتلى بها العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم. ثم اذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال ما هذا تكبراً إنما هو طلب اعزاز الدين واظهار شرف العلم وارغام انف المخالفين. ومهما ظهرت منه آثار الحسد وأطلق لسانه بالغيبة في أقرانه ومن رد عليه شيئاً من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد، بل يقول إن هذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه، مع أنه لو طعن في غيره من اهل العلم ورد عليه قوله ومنع من منصبه لم يكن غضبه مثل غضبه الآن بل ربما يفرح به، ولو كان غضبه للحق لا للحسد على أقرانه وخبت باطنه لاستوى غضبه في الحالين. واذا خطر له خاطر الرياء قال غرضي من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا الى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله، ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لا يخليه الشيطان بل يقول إنما ذلك لأنهم اذا اهتدوا بي كان الاجر والثواب لي ففرحتي إنما هو بثواب الله لا بقبول الخلق، هذا

ما يظن بنفسه والله مطلع على سريره ، إذ ربما كانت باطنه في الخباثة بحيث لو علم قطعاً بأن ثوابه في الحمول واخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه في الاظهار لاحتمال مع ذلك في اظهار رئاسة من تدريس أو وعظ أو امامة أو غير ذلك .

واذا كان بحيث يدخل على السلاطين والامراء الظلمة ويثني عليهم ويتواضع لهم وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام قال له الشيطان : إن ذلك عند الطمع في مالهم وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع ، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض اقرانه قبول عند ذلك السلطان وكان بحيث يقبل شفاعته في كل احد وهو لا يزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين يشغل ذلك عليه ، بحيث لو قدر أن يقبح حاله عند السلطان لفعل . وربما انتهى الغرور في بعضهم الى أن يأخذ من أموالهم المحرمة ، وإذا خطر له أنها حرام قال له الشيطان : هذا مال مجهول المالك يجب أن يتصدق به إمام المسلمين وأنت إمامهم وعالمهم وبك قوام دين الله فيحل لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف الباقي على مصالح المسلمين ، فيغتر بهذا التلبيس ولا يزال يأخذها من غير أن يبذل شيئاً منها في مصرف غيره . وربما انتهى الغرور في بعضهم الى حيث إنه إذا حضرت مائدتهم وأكل طعامهم وقيل له إن هذا لا يليق بمثلك قال الاكل جائز بل واجب ، إذ هذا مال لا يعلم مالسه فيجب التصديق به على الفقراء ، ويجب على مثلي بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد في استخلاصه من يد الظالم وايساله الى اهله اعني الفقراء ، وأكلي منها نوع قدرة على استخلاصه فأكل منه واتصدق بقيمته على الفقراء ، والله يعلم من باطنه أنه لا يتصدق بقيمته ولا يعتقد بحقيقة ما يقوله وإنما هو تلبيس ألقاه الشيطان في روعه لئلا يضعف اعتقاد العامة في حقه ، وربما كان بحيث لا يبالي من أخذ مالهم وأكل

طعامهم خفية ، ولو علم أنه يطلع عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به امتنع منه غاية الامتناع . وربما كان بعضهم في الباطن مائلا الى الدخول على السلاطين والاصراء وتاركاه في الظاهر ، وكان الباعث في ذلك طلب المنزلة في قلوب العامة ومع ذلك يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعه وتقواه . وربما كان بعضهم إمام قوم يظن أنه على خير وباعث لترويج الدين واعلاء الكلمة ومقيم بشعار الاسلام ، ومع ذلك لو أم غيره ممن هو اعلم واورع منه في مسجده أو يتخلف بعض من يقتدي به عن الاقتداء به قامت عليه القيامة ، وربما لم يكن باعثة على الحركة الى المسجد للامامة مجرد التقرب والامثال لأمر الله بل كانت الباعث محض حب الجاه والرياسة واعتقاد العامة أو مركباً منه ومن نية الثواب . وربما اتخذ بعضهم الامامة سفلاً ووسيلة لأمر المعاش ، ومع ذلك يظن أنه مشغول بامر الخير ، والظاهر في امثال زماننا ندور الامام الذي كان قصده من الامامة مجرد التقرب الى الله من دون وجود شيء من حب طلب المنزلة في القلوب أو تحصيل المال أو دفع بعض الشرور عن نفسه في زوايا قلبه ، ولو وجد مثله فهو القدوة الذي يجب أن تشد الرحال من المواضع البعيدة اليه ليقبض به ، ومثله كلما وجد في نفسه قصد التقرب والثواب في الذهاب الى المسجد للامامة ذهب ولولم يجد ذلك من نفسه تخلف وصلى منفرداً ، وهو الذي يستوي عنده اقتداء الناس به وعدمه ، ويستوي عنده كثرة المقتدين وقلتهم ، بل يكون حاله عند صلاته وهو إمام لجم غفير كحاله عند صلاته منفرداً من دون أن يجد في نفسه تفاوتاً في الحالين .

وبالجملة اصناف غرور أهل العلم (لا سيما في هذه الاعصار كثيرة) والمتأمل يعلم أن الغرور أو التلبس أو غيرهما من ذمائم الأفعال انتهى في بعضهم الى أن وجودهم مضر بالاسلام والمسلمين وموتهم أنفع للايمان والمؤمنين ، لأنهم دجالو الدين وقوأم

مذهب الشياطين ، ومثلهم كما قال عيسى بن مريم عليه السلام : « العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يتخلص الى الزرع » .

الطائفة الرابعة

الوعاظ

والمفترون منهم كثيرون : « ففهم » من يتكلم في وعظه في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والتوكل والرضى والصبر والشكر ونظائرها ، ويظن أنه إذا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق إليها صار موصوفاً بها ، وهو منك عنها في الواقع إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، ويزعّم أن غرضه إصلاح الخلق دون أمر آخر ، ومع ذلك لو أقبل الخلق على أحد من أقرانه وصلّحوا على يديه وكان أقوى منه في الإرشاد والإصلاح لما تغأ وحسداً ، ولو اثني أحد المترددين عليه على بعض أقرانه لصار ابغض خلق الله إليه .

و « منهم » من اشتغل بالشطح والطامات وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ، وربما كلف نفسه بالفصاحة والبلاغة وتصنع التشبيهات والمقدمات وشغف بطيئارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، طلباً للاعوان والأنصار ، وشوقاً الى تكثير البكاء والرقّة والتواجد وال رغبات في مجلسه ، وانهاداً بتحريك الرأس على كلامه والبكاء عليه ، وفرحاً بكثرة الأصحاب والمستفيدين والمعتقدين به ، وسروراً بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الأقران ، وربما لم يبال بالكذب في نقل الأخبار والآثار ظناً منه أنه أوقع في النفوس وأشدّ تأثيراً في رقّة العوام وتواجدهم . ولا ريب في أن هؤلاء شرّ الناس بل شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، إذ الأولون إن لم

يصلحوا أنفسهم فقد أصابهم غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم ، وأما هؤلاء
فإنهم يصلون عن سبيل الله ويمجرون انطلق الى الفرور بالله ، لأن سمعهم في ذكر
ما يسر به العامة ليصلوا به منهم الى اغراضهم الفاسدة فلا يزالون يدكرون
ما يقوي الرجاء ويزيدهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا ، (لا) سيما اذا كان
هذا الواعظ أيضاً ممن يرغب الى الدنيا ويسر بوصول المال اليه ويتزين بالثياب
الفاخرة والمراكب الفارهة وغيرها من زينة الدنيا ، فمثله ممن يفضل ويكون
افساده أكثر من اصلاحه ، ومع ذلك يظن أنه مروج الشرع والدين ومرشد
الضالين ، فهو أشد المذمومين والفاصلين .

و (منهم) من هذب أخلاقه وراقب قلبه وصفاه عن جميع الكدورات
وصفرت الدنيا في عينه وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت اليهم ، ودعته الرحمة
والشفقة على عباد الله الى نصحتهم واستخلاصهم عن امراض المعاصي بالوعظ ،
فلما استقل به وجد الشيطان مجال الفتنة فدعاه الى الرئاسة دعاء خفياً اخفى من
ديب الخلة لا يشعر به ، ولم يزل ذلك في قلبه يربو وينمو حتى دعاه الى التصنع
والتزين للخلق بتحسين الالفاظ والنفحات والحركات والتصنع في الزي والهيئة
والشمائل ، وأقبل الناس اليه يعظمونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك
إذ رأوه شافياً لأمراضهم بمحض الرحمة والشفقة من غير طمع ، فأثروه بآبدانهم
وأموالهم وساروا له كالخدم والعبيد ، فعند ذلك انتشر طبعه وارتاحت نفسه
وذاق لذة يأكلها من لذة ، وأصاب من الدنيا شهوة يستحققر معها كل شهوة ،
فوقع في أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بانه تارك للدنيا ، فقد غره الشيطان على
ما لا يشعر به . وعلامة ثوران حب الرئاسة في باطنه أنه لو ظهر من اقارنه
من مالت القلوب الى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك

عليه ، إذ لولا أن النفس قد استبشرت واستنذت بالرياسة لكان يفتنم ذلك .
وعلى هذا فينبغي ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ إلا إذا وجد من نفسه أنه
ليس له قصد سوى هدايتهم إلى الله تعالى ، وكان بسره غاية السرور ظهور من
يعينه على ارشادهم أو اعتدائهم من عند أنفسهم ، وانقطع طمعه بالكلية عن
ثنائهم وأموالهم واستوى عنده حمدهم وذمهم ، ولم يبال بنمهم إذا كان الله
يمدحه ، ولم يفرح بمدحهم إذا لم يقترن به مدح الله ، ونظر إليهم كما ينظر إلى
من هو أعلم منه وأورع حيث لا ينكر عليه ويراه خيراً من نفسه لدلالة الظاهر
على ذلك وجهه بالخاتمة ، وإلى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة
في قلوبهم ، فإنه لا يبالي كيف يراه البهائم فلا يتزين لها ، إذ راعي الماشية
إعما غرضه رعايتها ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه بعين
المدح والثناء .

ثم لو ترقى الواعظ وعلم بهذه المكيدة من الشيطان واشتغل بنفسه وترك
النصح أو نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص خيف عليه الاعجاب بنفسه
في فراره عن الغرور ، فيكون اعجابه بنفسه في الفرار عن الغرور غاية الغرور ،
وهو المهلك الأعظم من كل ذنب ، ولذلك قال الشيطان : « يا ابن آدم إذا
ظننت أنك بعملك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائي » . ثم لو دفع عن
نفسه العجب وعلم أن ذلك من الله تعالى لا منسه ، وأن مثله لا يقوى على دفع
الشيطان عنه إلا بتوفيق الله وأنه ضعيف عاجز لا يقدر على شيء أصلاً فضلاً
عن دفع الشيطان ، خيف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره
حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ، ولا ريب أن الأمن من
مكر الله خاسر مغرور ، فسيبل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد

والا تقطاع عن الدنيا ولذتها إذ يرى ذلك كله من فضل الله ، وكان خائفاً على نفسه من سلب حله في كل لحظة وغير آمن من مكر الله وخير غافل عن خطر الخائفة . وهذا خطر لا محيص عنه ومنقوف لا نجاة منه إلا بمجاوزة الصراط والدخول في الجنة ، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزاع وكان قد بقي له نفس قال : أفلتتني يا فلان ؟ فقال : لا ! بعد .

الطائفة الخامسة

أهل العبادة والعمل

والمفروون منهم فرق كثيرة : (فمنهم) من غلبت عليه الوسوسة في إزالة النجاسة وفي الوضوء ، فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بالطهارة في فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة الموجبة للنجاسة ، وإذا آل الأمر الى الأكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل ، بل ربما أكل الحرام المحض وقدر له محملاً بعيداً لحله ، ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء الى الطعام لكان أشبه بسيرة اكابر الأولياء . ثم من هؤلاء من يخرج الى الاسراف في صبّه الماء ، وربما بالغ عند الوضوء في التخليل وضرب إحدى يديه على وجهه أو يده الأخرى ، ولا يدري هذا المغرور أن هذا العمل إن كان مع اليقين بحصول ما يلزم شرعاً فهو تضييع للعمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه ، وإن كان بدونه بل يحتاط في التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء الى البشرة فما باله يتيمّن بوصول الماء الى البشرة في الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط ، مع أن حصول القطع بإيصال الماء الى البشرة في الغسل أزم وأوجب . ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط

في الصلاة وسائر العبادات وانحصر احتياظه ومبالغته بالوضوء زاعماً أن هذا يكفي لنجاته فهو مغرور في غاية الغرور .

و (منهم) من اغتر بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة في نيتها فلا يدعه الشيطان حتى يعتد نيّة صحيحة ، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة أو فضيلة الوقت ، وقد يوسوس في التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه ، يفعل ذلك في أول صلاته ثم يفعل في جميع صلاته ولا يحضر قلبه ويفتر بذلك ويظن أنه إذا أتعب نفسه في تصحيح النية فهو على خير . وربما غلبت على بعضهم الوسوسة في دقائق القراءة واخراج حروف الفاتحة وسائر الاذكار عن مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح المخارج والتمييز بين مخارج الحروف المتقاربة ، من غير اهتمام فيما عدا ذلك من حضور القلب والتفكير في معاني الاذكار ، ظناً منه أنه إذا صحت القراءة فالصلاة مقبولة وهذا أقبح أنواع الغرور .

و (منهم) من اغتر بالصوم وربما صام الأيام الشريفة بل صام الدهر ، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة ولا بطنه عن الحرام عند الافطار ، ثم يظن بنفسه الخير وذلك في غاية الغرور .

و (منهم) من اغتر بالحج فيخرج الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال ويضيع في الطريق الصلاة ويعجز عن طهارة الثوب والبدن ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الاخلاق وذمائم الصفات ، ومع ذلك يظن أنه على خير فهو في غاية الغرور .

و (منهم) من اغتر بقراءة القرآن فيهدّ هذا ، وربما يختم في اليوم والليلة مرة فيجري به لسانه ، وقلبه مردد في أودية الأمان ، وربما أسرع في

القراءة غاية السرعة ، ويظن أن سرعة اللسان من الكمالات ويتفاخر به على الأمثال والأقران .

و (منهم) من اغتر ببعض النوافل كصلاة الليل أو مجرد غسل الجمعة أو امثال ذلك ، من غير اعتداد بالفرائض ، زاعماً أن المواظبة على مجرد هذه النافلة ينجيه في الآخرة فهو ايضاً من المغرورين .

و (منهم) من تزهد وقنع بالدون من المطعم والملبس والمسكن ، ظاناً أنه ادرك رتبة الزهاد ومع ذلك راغب في الرئاسة باشتهاره بالزهد ، فهو ترك أهون المملكين باعظمها ، إذ حب الجاه اشد فساداً من حب المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان اقرب الى السلامة ، فهو مغرور إذ ظن أنه من الزهاد ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة وهو يحبها فكيف يكون زاهداً .

الطائفة السادسة

المتصوفة

والمفترون فيهم أكثر من ان يحصى : (فمنهم) ارباب البوقات وهم القلندرية الذين لا يعرفون معنى التصوف ولا شيئاً من مراسم الدين ، وصرفوا اوقاتهم في التكدي والسؤال من الناس ، ويظنون أنهم تاركون للدنيا مقبلون على الآخرة ، مع أنهم لو ظفروا بشيء من امور الدنيا لأخذوه بجميع جوارحهم ، فهؤلاء اذلل الناس بوجوه كثيرة لا تحفى .

و (منهم) من اغتر بالزي والمنطق ولبس الصوف واطراق الرأس وادخله في الجيب وخفض الصوت وتنفس الصعداء وتحريك البدن في الطول

والمرض والسقوط الى الأرض ، (لا) سيما اذا سمعوا كلاماً في الوحدة والعشق مع عدم اطلاعهم على حقيقة شيء منها ، وربما تجاوز بعضهم من ذلك الى الرقص والتصفيق وابداء الشهيق والنهيق واختراع الأذكار والتفني بالأشعار ، وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة ، ويظن أن العبد بهذه الحركات والأفعال يصل الى الدرجات العالية ولم يعلم المضرور أنها تقرب العبد الى سخط الله وعذابه .

و (منهم) من وقع في الإباحة وطوى بساط الشرع والأحكام ، وترك الفصل بين الحلال والحرام يتكالب على الحرام والشبهات ، ولا يحترز عن أموال الظلمة والسلطين ، وربما قال : المال مال الله والخلق عيال الله فهم فيه سواء ، وربما قال : ان الله مستغن عن عملي فأني حاجة الى أن أتعب نفسي فيه ، وربما قال : لا وزن لأعمال الجوارح وإنما النظر الى القلوب وقلوبنا والهة الى حب الله واصله الى معرفة الله ، وربما خاضوا في الشهوات الدنيوية وقالوا إنها لا تصدنا عن طريق الله لقوة نفوسنا وقوة اقدامنا فيها وإنما يحتاج العوام الى تهذيب النفس بالأعمال البدنية ونحن مستغنون عنه ، فهؤلاء يرفعون درجاتهم عن درجة الأنبياء عليهم السلام إذ كانوا يصرّحون بأن ارتكاب الامور المباحة فضلاً عن الخطايا والمعاصي يصدّهم عن طريق الله ، حتى يكون سنين متوالية على ترك الراجح وفعل المرجوح ، فهم أشد الناس غروراً وأعظم الخلق حماقة وجبنًا .

و (منهم) من يدعي غاية المعرفة واليقين والوصول الى درجات المقربين ومشاهدة المعبود ومجاورة المقام المحمود والملازمة في عين الشهود ، وتلقف من الطامات كلمات يرددها ، ويظن أنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن

العلماء ، وينظر الى السبب والفقهاء والمحدثين وسائر اصناف العلماء بعين الخاتمة والأذدرانه ، يقول في السبب انهم أجراء مبعوثون ، وفي العلماء انهم بالحديث عن الله المحجوبون ، وبدعي لنفسه من السكرات ما لا يدعيه نبي ولا ولي ، ويدعي كونه واصلا الى الحق فارغا عن أعباء التكليف ، لا علماً أحكم ولا عملاً هذب ، لم يعرف من المعارف إلا أسماء يتفوه بها عند الأغنياء للوصول الى بعض حطامهم الخبيثة ، فهو عند الله من المنجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، مع ظنه أنه من المقربين ، فهو أشد المنافلين المضرورين .

و (منهم) ملامية يرتكبون قبائح الأعمال وشنائع الأفعال الموجبة للبعد عن طريق المروة ظناً منهم أن هذا موجب لسكسر النفس وإزالة ذمائم الأخلاق ولم يعلموا أن هذه الأفعال من الذمائم وقد نهى صاحب الشرع عنه .

و (منهم) من اشتغل بالرياضة والمجاهدة وقطع بعض المنازل ووصل الى بعض المقامات على قدر سمعيه ومجاهدته ، إلا أنه لم يتم سلوكه وانقطع عن سائر المقامات ، إما لاعتراض مفسد في أثناء السلوك ، أو لوقوعه في الإثناء ظناً منه أنه وصل الى الله ولم يصل بعد ، فإن لله سبعين حجاباً من نور ولا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل ، واليه الإشارة في حكاية الخليل حيث رأى أولاً كوكباً ، فقال : (هذا ربي) ثم انتقل الى القمر ثم عنه الى الشمس ، فإنه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الأجسام المضيئة ، فإن شأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة ، بل هذا ينافي شأنه ورتبته ، فالمراد بها الأنوار التي هي من حجب الله ويراها السالك في الطريق ولا يتصور الوصول الى الله إلا بالوصول الى هذه

الحجب ، وهي حجب من النور بعضها أعظم من بعض ، فاستمير لفظ الكوكب لصفه لأقل مراتبها والقمر لاوسطها والشمس لأعظم مراتبها ، وانخليل عليه السلام لم يزل عند سيره في الممسكوت يصل الى نور بعد نور ويتخيل اليه في أول ما يلقاه أنه قد وصل ، ثم انكشف له أن وراءه امر ، فيترقى اليه حتى وصل الى الحجاب الأقرب ، فقال هذا اكبر ، فلما ظهر أنه مع عظمته غير خال عن الهوي في حضيض النقص والانهطاط عن ذروة الكمال ، قال : (لا أحب الآفلين ، إني وجهت وجهي) الى آخره . فسالك هذا الطريق قد يفتر في الوقوف على بعض هذه الحجب ، وربما يفتر بالحجاب الأول ، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه ، فإنه ايضاً امر رباني ونور من أنوار الله تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره اشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كله على ماهو عليه ، وهو في أول الأمر كان محجوباً ، فاذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد اشراق نور الله تعالى ربما التفت صاحب القلب الى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه ، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول انا الحق ، فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد الى القمر فضلاً عن الشمس فهو مفرور . وهذا محل الالتباس إذ المتجلي يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يترأى في المرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيظن أنه لون الزجاج ، كما قيل :

رقّ الزجاج ورقّت الحمر فتشابهها وتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى الى المسيح فرأوا اشراق نور الله قد تالاً فيه فغلطوا فيه ، كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء ، فيظن أن الكوكب في المرأة أو في الماء فيمد اليه فهو مغرور . وأنواع الغرور في طريق السلوك الى الله كثيرة لا تحفى على ارباب البصيرة .

ثم أكثر المتلبسين بلباس المعارفين مع كذبهم فيما يدعون به ونقصاتهم في طريق السلوك وجهلهم بحقيقة الأمر وعدم قطعهم جل المقامات ، يتشبهون بالصادقين من العرفاء في زيهم وهيتهم وآدابهم ومراسمهم والفاظهم ، ظانين أنهم بهذا التشبه يصلون الى مراتبهم ، فهيات هيات ، إن الوصول الى درجة كل أحد إنما يحصل بالاتصاف باوصافه الباطنة والتخلق باخلاقه النفيسة دون التشبه به في حالاته الظاهرة ، وقد شبههم بعض الأكابر بامرأة عجوز سمعت أن الشجعان من المقاتلين تثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطرة من أقطار المملكة فتناقت نفسها الى أن تكون مثلهم ، فلبست درعا ووضعت على رأسها مغفراً وتعلمت من رجز الأبطال ألياً ، وتعلمت كيفية جولانهم في الميدان وتلقفت جميع شنائهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات وتوجهت الى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان ، فلما وصلت اليه أنفذت الى ديوان العرض وأمرت بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر الى حقيقتها وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر شجاعتها ، فلما جردت فاذا هي عجوز ذات منة ضعيفة لا تقدر على شيء فقيل لها أجبتي للاستهزاء بالملك واهل حضرته ، خذوها وانموها قدام الفيل فداسها ونحتها ، فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان في القيامة اذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا الى القاضي الحق الذي لا ينظر الى الزي واللباس بل الى سر القلب وصفاته .

الطائفة السابعة

الأغنياء وأرباب الأموال

والمفترون فيهم أكثر من المتزين من سائر الطوائف : (فثبهم)
من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر ما يظهر
للناس بالأموال المحرمة ، وربما غصب أرض المساجد والمدارس ، وربما صبر
لها موقوفات أخذها من غير حلها ، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهرة ،
ولذا يسعى في كتابة اسمه على أحجارها ليتخلد ذكره ويبقى بعد الموت أثره ،
ويظن المسكين أنه قد استحق المغفرة بذلك وأنه مخلص فيه ، ولم يدرك أنه
تعرض لسخط الله في كسب هذه الأموال وفي انفاقها ، وكان الواجب عليه
الامتناع عن أخذها من أهله ، وإذا عصى الله وأخذها كان الواجب عليه التوبة
وردها إلى أهلها ، فإن لم يبق من أخذها منه ولا ورثته كان الواجب أن يتصدق
بها على المساكين ، مع أنه ربما كان في بلده أو في جواره مسكين يكون في غاية
الفقر والمسكنة ولا يعطيه درهما .

و (منهم) من ينفق الأموال في الصدقات إلا أنه يطلب الفقراء الذين
عادتهم الشكر والافشاء للمعروف ، ويكره التصدق في السر ، بل يطلب
المحافل والجماعة ويتصدق فيها ، وربما يكره التصدق على فقراء بلده ويرغب أن
يعطي أهل البلاد الآخر مع كثرة استحقاق فقراء بلده ، طلباً لاشتهاره بالبذل
والعطاء في البلاد الخارجة البعيدة ، وربما يصرف كثيراً منه إلى رجل معروف
في البلاد وإن لم يكن مستحقاً ، ليشتهر ذلك في البلاد ، ولا يعطي قليلاً منه

الى فقير له غاية الاستحقاق اذا كان خامل الذكر ، يفعل هذا ويظن انه يجلب بذلك الأجر والثواب ولم يدرك المفروور أن هذا القصد احبط عمله واضاع ثوابه .
و (منهم) من يجمع مالا من غير حله ولا يبالي باخذ المال من أي طريق كان ، ثم يسعى غاية الامساك إلا أنه لا يبالي بصرف بعضه في طريق الحرج إما لنفسه فقط أو لأولاده وازواجه ايضاً ، إما للاشهار أو لما وصل اليه أن تارك الحرج يبتلى بالفقر .

و (منهم) من غلب عليه البخل فلا تسمح نفسه بانفاق شيء من ماله ، فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة ، ظناً منه أن ذلك يكفي لنجاته ، ولم يدرك ان البخل صفة مهلكة لا بد من ازالتها ، وعلاجه بذل المال دون العبادات البدنية ، ومثله مثل من دخلت في ثوبه حيّة وقد اشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن الصفرء ، وغافل بأن الحية تقتله الآن ومن قتلته الحية فأى حاجة له الى السكنجبين .

وصل

ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد

قد عرفت ان الغرور مركّب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب ، فضده الفطانة والعلم والزهد ، فمن كان فظناً كيداً عارفاً بربه ونفسه وبالآخرة والدنيا عالماً بكيفية سلوك الطريق الى الله وبما يتوبه اليه وبما يبعده عنه عالماً بآفات الطريق وعمباته وغوائله لاجتناب عن الغرور ولم يغره الشيطان في شيء من الامور ، إذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريباً

في هذا العالم اجنبياً من هذه الشهوات البهيمية ، عرف ككون هذه الشهوات
 مضرة له وأن المرافق له طبياً هو معرفة الله والظفر الى وجهه فلا يسكن نفسه الى
 شهوات الدنيا ، ومن عرف ربه وعرف الدنيا والآخرة ولذاتها وعدم النسبة
 بينهما ثار في قلبه حب الله والرغبة الى دار الآخرة والأنزجار عن الدنيا
 ولذاتها ، واذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها ، فإن
 أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق
 الآخرة واندفع عنه كل غرور منشأ تجاذب الأغراض والنزوع الى الدنيا وإلى
 الجاه والمال وما دامت الدنيا أحب اليه من الآخرة وهوى نفسه أحب اليه من
 رضى الله لم يمكنه الخلاص من الغرور ، فالأصل في علاج الغرور أن يفرغ
 القلب من حب الدنيا ويغلب عليه حب الله حتى تنقوى به الارادة وتصح به
 النية ويندفع عنه الغرور ، قال الصادق عليه السلام : « واعلم أنك لن تخرج
 من ظلمات الغرور والتمني إلا بصدق الإيابة الى الله والاختبات له ومعرفة عيوب
 أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم ولا يحتمله الدين والشريعة وسنن
 القدوة وأئمة الهدى وإن كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد أشقى بملك منك
 وأضيع عمراً فأورثت حسرة يوم القيامة » (١)

(ومنها) :

طول الامل

معنى طول الامل ومرجعه - علاجه - ضده قصر الأمل - اختلاف الناس في طول الأمل - ذكر الموت مقصر للامل - التعجب ممن يمدى الموت - الموت أعظم الدواهي - مراتب الناس في ذكر الموت .

وهو أن يقدر ويمتد بقاءه الى مدة متناهية مع رغبته في جميع توابع البقاء من المال والأهل والدار وغير ذلك ، وهو من رذائل قوتي العاقلة والشهوة ، إذ الاعتقاد المذكور راجع الى الجهل المتعلق بالعاقلة ، وحببه لجميع توابع البقاء وميله اليه من شعب حب الدنيا . وجهله راجع الى تعويله : إما على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، ولا يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر عشر أهل البلد ، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، وإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب ، أو على صحته وقوته ويستبعد مجيء الموت فجأة ولا يتأمل في أن ذلك غير بعيد ، ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد ، إذ كل مرض إنما يقع فجأة وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً . ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن شتاء وخريف وصيف وربيع وليل ونهار وحضر وسفر ، لكان دائماً مستشعراً غير غافل عنه وعظيم اشتغاله بالاستعداد له ، لكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا بعشاه على الغفلة وطول الأمل ، فهو أبداً يظن أن الموت بين يديه ولا يقدر نزوله ووقوعه فيه ويشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته ، لأن

هذا قد تكرر عليه والفه بتكرار مشاهدة موت غيره ، وأما موت نفسه فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه لأنه لم يقع وإذا وقع لا يقع دفعة أخرى بعده فهو الأول وهو الآخر .

وأما حبه لتوابع البقاء من المال والدار والمراكب والضياع والعقار فراجع الى الانس بها والالتذاذ بها في مدة مديدة ، فيثقل على قلبه مفارقتها فيمنع قلبه عن التفكير في الموت الذي هو سبب مفارقتها إذ كل من كره شيئاً يدفعه عن نفسه . والانسان لما كان مشغولاً بالاماني الباطلة وبالدنيا وشهواتها ولذاتها وعلائقها ، فتتمنى نفسه أبداً ما يوافق مراده ومراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقرره في نفسه ويقدر توابع البقاء من اسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربته ، فإن خطر له في بعض الاحيان امر الموت والحاجة الى الاستعداد له سوف ووعد نفسه الى أن يكبر فيتوب ، وإذا كبر أخر التوبة الى أن يصير شيخاً ، وإذا صار شيخاً يؤخرها الى أن يفرغ من عمارة هذه الضيعة أو يرجع من سفر كذا أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، ولا يزال يسوف ويؤخر الى ان يخطفه الموت في وقت لا يحتسبه ، فتعظم عنده ذلك بليته وتطول حسرته ، وقد ورد أن أكثر اهل النار صياحهم من سوف يقولون واحزننا من سوف ، والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غداً ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً إذ الخائض في الدنيا لا يتصور له الفراغ منها قط اذ ما قضى من اخذ منها لبائسه وإنما فرغ منها من اطردها .

فصل

علاج طول الأمل

لما عرفت أن طول الأمل منشأ الجهل وحب الدنيا ، فينبغي أن يدفع
الجهل بالفكر الصافي من شوائب العمى وبسماع الوعظ من النفوس الطاهرة ،
فإن من تفكر يعلم أن الموت اقرب اليه من كل شيء ، وأنه لا بد أن تحمل
جنازته ويدفن في قبره ، ولعل اللبّين الذي يغطي به لحدّه قد ضرب وفرغ منه ،
ولعل أكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لا يدري به . وأما حب الدنيا
فينبغي أن يدفع من القلب بالتأمل في حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة وما ورد في
الأخبار من الدم والعقاب في حب الدنيا والرغبة اليها ، ومن المدح والثواب
على تركها والزهد عنها ، وقد تقدم ما يكفي لهذا البيان ، وينبغي أيضاً أن
يتذكر ما ورد في مدح ضد طول الأمل أعني قصر الأمل كما يأتي ، وما ورد
في ذم طول الأمل كقوله صلى الله عليه وآله : « إن أشد ما أخاف عليكم
مخصلتان : اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول
الأمل فإنه الحب للدنيا - ثم قال : - إن الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض وإذا
أحب عبداً أعطاه الإيمان ، ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء
الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ، ألا إن
الآخرة قد اتت مقبلة ، ألا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب ، ألا وانكم

يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل « (١) وقوله صلى الله عليه وآله : « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويملك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل » وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « ما أطال عبد الأمل إلا أساء الأمل » .

وصل

قصر الأمل

ضد طول الأمل قصره وهو من شعار المؤمنين ودثار الموقنين ولذا ورد في الأمر به والنهي عن ضده ما ورد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من دنياك الآخرة ومن حياتك موتك ومن صحتك لسقمك فإنك لا تدري ما اسمك غداً » وقال صلى الله عليه وآله بعد ما سمع أن اسامة اشترى وليدة بمائة دينار الى شهر : « إن اسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روجي ولا رفعت طرفي فظننت أنى واضعه حتى اقبض ولا لقيت لقمة إلا ظننت أنى لا اسيغها حتى اغص بها من الموت » ثم قال : « يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا انفسكم من الموتى

(١) صحيحنا الحديث على احياء العلوم [٤ : ٣٨٤] وهو يرويه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله واكن في كنز العمال [١٦٩ : ٢] يرويه انه من كلام علي عليه السلام نفسه مع اختلاف يسير عن عبارة الاحياء . وعبارة الكنز ابلغ وارصن وفيه كلمة [الآخرة] بدل [الدين] ونفس الكلام مع اختلاف يسير ايضاً [وهو ابلغ واغلى من العبارتين] مروى في نهج البلاغة [رقم ٤١ من باب الخطب] فراجع .

والذي نفسي بيده أن ما توعدون آت وما أنتم بمعجزين » وروي أنه صلى الله عليه وآله قد أطلع ذات عشية الى الناس فقال : « أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى » قالوا وما ذاك يا رسول الله قال : « تجمعون ما لا تأكلون وتأمّلون ما لا تدركون وتبشرون ما لا تسكنون » وقال صلى الله عليه وآله : « أكلكم يحب أن يدخل الجنة » قالوا نعم يا رسول الله قال : « قصرُوا من الأمل واجعلوا آجالكم بين ابصاركم واستحيوا من الله حق الحياء » وكان صلى الله عليه وآله يقول في دعائه : « اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » وكان صلى الله عليه وآله يقيمهم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول لعلي لا أبلغه ، وقال عيسى عليه السلام : « لا تهتموا برزق غد فإن لم يكن غداً من آجالكم فستأتي أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم » .

فصل

اختلاف الناس في طول الأمل

الناس في طول الأمل وقصره مختلفون (فمنهم) من يأمل البقاء ويشتهي أبداً ، كما قال الله سبحانه : « يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ » (١) وهو الذي انغمس في الدنيا وخاض في لذاتها وليس له من الآخرة نصيب . (ومنهم) من يأمل البقاء الى اقصى مدة العمر الذي يتصور لأهل عصره ، وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً ويشغل بجمع ما يمكنه في هذه المدة وربما

يُجتهد بجمع الأزيد منه . (ومنهم) من يأمل أقل من ذلك الى أن ينتهي الى من لا يأمل ازيد من سنة ، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ولا يقدر لنفسه وجوده في عام قابل ، فإن بلغه حمد الله على ذلك ، ومثله يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف واذا جمع ما يكفيه السنة اشتغل بالعبادة . (ومنهم) من يأمل أقل من السنة الى أن ينتهي الى من لا يأمل ازيد من يوم وليلة فلا يستعد إلا لتهارده دون غده . (ومنهم) من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به وهو ينتظره ، ومثله يصلي دائماً صلاة المودعين ، وروي أن النبي صلى الله عليه وآله سأل بعض الصحابة عن حقيقة إيمانه قال : « ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى » ، وكان بعضهم اذا يصلي يلتفت يميناً وشمالاً ، ولما قيل له ما هذا الالتفات قال : « انتظر ملك الموت من أي جهة يأتيني »

ثم اكثر الخلق (لا) سيما في أمثال زماننا قد غلبهم طول الأمل بحيث لا يأمل أقل من أقصى مدة السنّ وقلّ فيهم من قصر أمله ، والعجب أنه كلما يزداد السن يزداد طول الأمل وفي عصرنا اكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول أمليهم اكثر من الشبان ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يشيب ابن آدم وتشب فيه خصمات الحرص وطول الأمل » وقال صلى الله عليه وآله : « حب الشيخ شاب في طلب الدنيا وإن التفت ترقوته من الكبّر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم » .

ثم يعرف طول الأمل وقصره بالأعمال : فمن اعتنى بجمع اسباب لا يحتاج اليها في سنة فهو طويل الأمل ، وكذلك من انتشرت اموره بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات الى مدة معينة كالسنة وازيد منها وكان عليه ديون من الناس كذلك ، ومع ذلك لم يكن مضطرباً ولا خائفاً وهو طويل الأمل ،

فعلامه قصر الامل أن يجمع امره بحيث لا يكون عليه من الناس شيء ولا يسعى لطلب قوت الزائد على اربعين يوماً ، ويصرف أوقاته في الطاعة والمباداة ، ويرى نفسه كمسافر يجتهد في تحصيل الزاد .

فصل

ذكر الموت مقصر للامل

ذكر الموت يقصر الامل ويدفع طوله ويوجب التجافي عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود ، ولذا ورد في فضيلته والترغيب فيه اخبار كثيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اكثرُوا ذكر هادم اللذات » قيل وما هو يا رسول الله ؟ قال : « الموت فما ذكره عبد على الحقيقة في منعة إلا ضاقت عليه الدنيا ولا في شدة إلا اتسعت عليه » ، وقال صلى الله عليه وآله : « تحفة المؤمن الموت » وقال صلى الله عليه وآله : « الموت كفارة لكل مسلم » ، وقيل له صلى الله عليه وآله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نعم ! من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة » وقال صلى الله عليه وآله : « اكثرُوا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهّد في الدنيا » ، وقال صلى الله عليه وآله : « كفى بالموت واعظاً » وقال صلى الله عليه وآله : « الموت الموت ألا ولا بد من الموت ، جاء الموت بما فيه ، جاء بالروح والراحة والسكرّة المباركة الى جنة عالية لاهل دار الخلود الذين كانت لها سمعهم وفيها رغبتهم » وقال صلى الله عليه وآله : « اذا استحققت ولاية الله والسعادة جاء الأجل بين العينيين وذهب الامل وراء الظهور ، واذا استحققت ولاية الشيطان

والشقاوة جاء الامل بين العيين وذهب الاجل وراء الظهر . وذكر عنده صلى الله عليه وآله رجل فاحسنوا الثناء عليه فقال صلى الله عليه وآله : « كيف ذكر صاحبكم للموت » ، قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت » ، قال : « فان صاحبكم ليس هنالك » وسئل أي المؤمنين ا كبريا وكرم فقال : « اكثرهم ذكراً للموت واشدهم استعداداً له اولئك هم الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » ، وقال الباقر عليه السلام : « اكثروا ذكر الموت فإنه لم يكثر ذكره انسان إلا زهد في الدنيا » وقال الصادق عليه السلام : « اذا انت حملت جنازة فكن كأنك انت المحمول وكأنك سألت ربك الرجوع الى الدنيا ففعل ، فانظر ماذا تستأنف » ثم قال عليه السلام « عجباً لتوم حبس أولهم عن آخرهم ثم نودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون » ، وقال عليه السلام : لا يي بصير بعد ما شكى اليه الوسواس « اذكر يا ابا محمد تقطع أوصالك في قبرك ورجوع أحبائك عنك اذا دفنوك في حفرتك وخروج بنات الماء من منخريك واكل الدود لحمتك فان ذلك يسلي عليك ما أنت فيه » ، قال ابو بصير : فوالله ما ذكرتني إلا سلى عني ما أنا فيه من هم الدنيا ، وقال عليه السلام : « من كان كدفنه معه في بيته لم يكتب من الفافلين وكان ماجوراً كلما نظر اليه » (١) وقال عليه السلام : « ذكر الموت يميت الشهوات في النفس ويقطع منابت الففلة ويقوي القلب بمواعيد الله ويرق الطبع ويكسر انلام الهوى ويطفي نار الحرص ويحقر الدنيا وهو معنى ما قال النبي صلى الله عليه وآله : (فكل ساعة خير من عبادة سنة) وذلك عندما يحل اطناب خيام الدنيا ويشدها في الآخرة ولا ينكر

(١) صحيحنا اكثر الاحاديث على الوسائل (ج ١ : الباب ٢٣ من ابواب

الاستحضار في كتاب الطهارة) وعلى احياء العلوم (٤ : ٢٨٣)

نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة ومن لا يعتبر بالموت وقلة حيلته وكثرة عجزه وطول مقامه في القبر وتحيره في القيامة فلا خير فيه ، وقال النبي صلى الله عليه وآله : « كثروا ذكر هادم اللذات » - ثم ذكر تمام الحديث كما مر - ثم قال عليه السلام : « والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا فطوبى لمن أكرم عند النزول بأولها وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها والموت أقرب الأشياء من بني آدم وهو بعده أبعد فما أجراً الإنسان على نفسه وما أضعفه من خلق ، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت وكرهه من كرهه ، قال النبي صلى الله عليه وآله : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » (١)

فصل

العجب ممن ينسى الموت

عجباً لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه وهو أظهر اليقينات والقطعيات في العالم واسرع الأشياء إلى بني آدم ، قال الله سبحانه وتعالى : « أين ما تكونوا يدير كركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » (٢) وقال سبحانه : « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (٣) وقال الصادق عليه السلام : « ما خلق الله يقيناً لا شك فيه

(١) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة الباب ٨٤

(٢) النساء الآية ٨٠ . (٣) آل عمران الآية ١٨٢

أشبه بشك لا يقين فيه من الموت « وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « ما انزل الموت حق منزلته من عند غداً من أجله » وقال عليه السلام : « لو رأى العبد أجله وسرعته اليه لأبغض العمل من الدنيا » وقال الصادق عليه السلام : « مامن أهل بيت شهر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفحه كل يوم خمس مرات » وقد تقدمت أخبار آخر في هذا المعنى .

فصل

الموت اعظم الدواهي

اعلم أن الموت داهية من الدواهي العظمى ومن كل داهية اشد وادهى وهو من الأخطار العظيمة والاهوال الجسيمة ، فمن علم أن الموت مصرعه والتراب مضجعه والقبر مقره وبطن الأرض مستقره والدود أنيسه والعقارب والحيات جليسه ، فحذير أن تطول حسرته وتندوم عبرته وتنحصر فيه فكرته وتعظم بليته وتشتد لأجله رزيته ويرى نفسه في اصحاب القبور ويعدها من الاموات ، إذ كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وحقيق ألا يكون ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعله وسعيه وجده إلا فيه وله ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لو أن البهائم يعلمون ما تعلمون ما اكلم منها سمياً » وقال صلى الله عليه وآله لقوم يتحدثون ويضحكون : « اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » ومضى صلى الله عليه وآله بمجلس قد استعلاه الضحك فقال : « شوبوا مجلسكم بذكر مكدرات اللذات » قالوا وما مكدر اللذات ؟ قال : « الموت »

ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فسكرهم فيه وذكركم له ومن يذكركه ليس يذكركه بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها فلا ينفع ذكره في قلبه ، فالطريق فيه أن يفرغ القلب عن كل شيء ، إلا عن ذكر الموت الذي بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر الى بلد بعيد ما بينهما مفازة خطيرة أو بحر عظيم لا بد أن يركبه فإنه لا يتفكر إلا فيه ، ومن تفكر في الموت بهذا الطريق وتكرر منه ذلك لا أثر ذكره في قلبه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره . بالدنيا وتنزجر نفسه عنها وينكسر قلبه ويستعد لأجله . وأوقع طريق فيه أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله ونقلوا من انس العشرة الى وحشة الوحدة ، ومن ضياء المهود الى ظلمة الاحود ، ومن ملاعبة الجواري والغلمان الى مصاحبة الهوام والديدان ، ويتذكر مصرعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ثم يتفكر كيف محي التراب الآن حسن صورتهم وكيف تبددت اجزاؤهم في قبورهم وكيف أربلوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم وواوشت ديارهم ، فمما تذكر رجلا رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية حياته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وأمله في العيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمؤثرات الأسباب وركونه الى القوة والشباب وميله الى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وكيف كان ينطق وقد اكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد اكل التراب اسنانه ، وكيف دبر لنفسه الامور وجمع من حطام الدنيا ما لا يتفق احتياجه اليه على مر الأعوام والشهور وكرر الأزمنة والدهور . ثم يتأمل أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وسيصير حاله في القبر كحالهم ، فملازمة هذه الأفكار وامثالها ، مع دخول

المقابر وتشجيع الجنائز ومشاهدة المرضى تجدد ذكر الموت في قلبه ، حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه ، وعند ذلك ربما يستعمله ويتجافى عن دار الغرور ، وأما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقليل الجدوى في التنبيه والایقاظ . ومهما طاب قلبه بشيء من اسباب الدنيا فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقتها ، كما نقل أن بعض الاكابر نظر يوماً الى داره فاعجبه حسنها فبكى وقال : والله لولا الموت لكنت بها مسروراً .

فصل

مراتب الناس في ذكر الموت

الناس بين من همك في الدنيا خائض في لذاتها وشهواتها وبين تائب مبتدئ وعارف منتهي . (فالأول) لا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره ليذمه لصدمة عما يحبه من الدنيا وهو الذي يفر منه وقال الله تعالى فيه : « قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ » الآية (١) وهذا يزيد ذكر الموت بعداً من الله ، إلا اذا استفاد منه التجافي عن الدنيا ويتنقص عليه نعيمه ويتكدر صفو لذته ، وحينئذ ينغمه لأن كل ما يكدر على الانسان اللذات فهو من أسباب نجاته . (والثاني) يكثر ذكر الموت ليذبح من قلبه الخوف والخشية فيفي تمام التوبة ، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل الاستعداد وتهيئة الزاد وتمام التوبة ، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل تحت قوله صلى الله عليه وآله : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » لأن هذا ليس يكره الموت ولقاء

الله ، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو الذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارهاً للقاءه . وعلامة هذا أن يكون دائماً الاستعداد للموت لا شغل له سواه ، وإن لم يكن مستعداً له عاملاً بما ينفعه في الآخرة التحقق بالأول . (وأما الثالث) فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقاء حبيبه والمحبة لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا في غالب الأمر يستبطن محبة الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل الى جوار رب العالمين ، كما روي أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال : « حبيب جاء على فاقة لا أفلاح من رده ، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنى والسقم أحب إلي من الصحة والموت أحب إلي من الحياة فسهل علي الموت حتى ألقاك » . وأعلى رتبة منه من يفوض امره الى الله ولا يختار لنفسه شيئاً من الموت أو الحياة والفقر والغنى والمرض والصحة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها الى مولاه ، وهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى درجة التسليم والرضى وهو الغاية والانتهاء .

تتميم

المبادرة الى الحسنات

من علامات قصر الأمل وذكر الموت المبادرة الى الحسنات واشتياق الخيرات ، ولذا ورد فيه الترغيب والحوذر عن آفة التأخير ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اغتتم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » وقال صلى الله عليه وآله : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله

غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » (١) وكان صلى الله عليه وآله إذا احسن من أصحابه غفلة وغرة نادى فيهم بصوت عال : « اتسكّم المنية إما بشقاوة أو بسعادة » ، وروي أنه ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي : أيها الناس الرحيل الرحيل . وقال بعض الأكابر : التوبة في كل شيء خير إلا في أعمال الآخرة .

(ومنها) :

العصيان

ولا ريب في كونه من رذائل قوتي الغضب والشهوة معاً لأن بعض أنواعه من رذائل أحدهما من جانب الإفراط أو التفريط أو من باب رداءتها وبعض آخر من أنواعه من رذائل الأخرى . وضده (التقوى والورع) وبالمعنى الأعم اعني الاجتناب عن مطلق المعصية خوفاً من سخط الله ، وقد تقدم ما ورد في فضيلتها فتذكر .

(ومنها) :

الوقاحة

وهو عدم مبالاة النفس وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية أو العرفية وكونه من رداءة قوتي الغضب والشهوة ظاهر .

ضدها (الحياء) وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات

(١) صحيحنا الحديث على أحياء العلوم ج ٤ ص ٣٩٠ . وفي نسخ

الكتاب (اوج ومن اوج) .

الشرعية والعقلية والعادية حذراً من الذم واللوم ، وهو أعم من التقوى ، إذ التقوى اجتناب المعاصي الشرعية ، والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف أيضاً ، فهو من شرائف الصفات النفسية ، ولذا ورد في فضله ما ورد ، قال الصادق عليه السلام : « الحياء من الايمان والايمان في الجنة » وقال عليه السلام : « الحياء والعفاف والعبي أعني عبي اللسان لا عبي القلب من الايمان » وقال عليه السلام : « الحياء والايمان مقرونان في قرن فاذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه » وقال عليه السلام : « لا ايمان لمن لا حياء له » ثم حقيقة الحياء كما عرفت هو الانفعال عن ارتكاب ما ينم شرعاً أو عقلاً أو عرفاً ، فالانفعال عن غير ذلك حمق ، فان الانفعال عن تحقيق احكام الدين أو الحمود عما ينبغي شرعاً وعقلاً لا يعد حياء بل حمقاً ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الحياء حياءان : حياء عقل وحياء حمق ، فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل » (١)

(١) صحيحناه الأحاديث هنا على اصول السكافي في باب الحياء .

(ومنها) :

الاصرار على المعصية

رجوع رذيلة الاصرار الى أي القوى وذمها - ضد الاصرار التوبة
وتعريفها - هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق ؟ - وجوب التوبة -
تحقيق في وجوبها - عموم وجوبها - لا بد من العمل بعدها - فضيلتها -
قبولها - طريقة التوبة من المعاصي - تكفير الصغائر ومعنى الكبائر - الصغائر
قد تكون كبائر - شروط كمال التوبة - هل يصح التبعيض فيها ؟ - اقسام
التائبين - مراتب التوبة - عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة - علاج
الاصرار على الذنوب - الانابة - المحاسبة والمراقبة - المعنى الظاهر لها - حاسبوا
انفسكم قبل ان تحاسبوا - مقامات مرابطة الفعل للنفس .

وهو إما ناشئ من رداءة إحدى القوتين وخروجها عن اطاعة العاقلة
أو عن رداءتهما معاً ، فيكون من رذائل القوتين ، وكل ما يدل على ذم مطلق
المعصية أو على ذم خصوص افرادها المعينة يدل على ذم الاصرار على المعصية
بطريق أولى واوكد . والأخبار الواردة في ذم خصوص افراد المعاصي ربما
يظفر بجملة منها في هذا الكتاب عند ذكر كل معصية ، وأما الأخبار الواردة
في ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جداً ، كقول النبي صلى الله عليه وآله :
« مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يناديان بأربعة اصوات ،
يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا
علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : فيا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا علموا

بما علموا ، فيقول الآخر : ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا .
واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام وأنه لينظر الى ازواجه في
الجنة يتنعمن « ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تبدين عن واضحة
وقد عمتك الأعمال الفاضحة ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات » وقال الباقر
عليه السلام : « إن الله قضى قضاء حتماً ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه
حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النعمة » وقال عليه السلام . « ما من
شيء أفسد للقلب من خطيئته إن القلب ليوافق الخطيئة فما يزال به حتى يغلب
عليه فيصير أعلاه أسفله » ، وقال عليه السلام : « إن العبد ليزن الذنب
فيزوى عنه الرزق » ، وقال الصادق عليه السلام : « يقول الله تعالى إن أدنى
ما صنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاعتي أن احرمه لذينة مناجاتي » وقال عليه
السلام : « من همَّ بسيئة فلا يعملها فإنه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب تعالى
فيقول وعزتي وجلالي لا أغفر لك بعد ذلك ابداً » وقال عليه السلام : « أما إنه
ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب وذلك قول
الله عز وجل في كتابه : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ
وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (١) » قال عليه السلام : « وما يعفو الله أكثر مما
يؤاخذ به » وقال عليه السلام : « إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل
وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم » وقال الكاظم
عليه السلام : « حق على الله ألا يعصى في دار إلا اضحاهما للشمس حتى
يطهرها » (٢) .

(١) الشورى الآية ٢٩ .

(٢) صحيحنا الأحاديث هنا على أصول الكافي (باب الذنوب)

والأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، ولا يتوهم احد أنه يمكن ألا يصل اليه أثر الذنب ووباله فإن هذا محال فإنه لم يتجاوز عن الأنبياء في تركهم الاولى فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي ، نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا الى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثمًا ويعذبوا في الآخرة عذابا أكبر واشد ، أما سمعت أن ابلك آدم قد اخرج من الجنة بتركه الاولى ، حتى روي أنه لما أكل الشجرة تطايرت الحلال عن جسده وبدأت عورته وجاء جبرئيل عليه السلام واخذ التاج من رأسه وخلي الاكليل عن جنبه ونودي من فوق العرش اهبطا من جوارى فإنه لا يجاورني من عصائي ، فالتفت آدم الى حواء باكياً وقال هذا أول شؤم العصية أخرجنا من جوار الحبيب ، وروي أنه تعالى قال يا آدم أي جار كنت لك قال نعم الجار يارب ، قال يا آدم اخرج من جوارى وضع عن رأسك تاج كرامتي فإنه لا يجاورني من عصائي ، وقد روي أن آدم بكى على ذنبه مائتي سنة حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الاولى ، فإن كانت مؤاخذته في نهى تنزيه مع حبيبه وصفيه هكذا فكيف معاملته مع الغير في ذنوب لا تحصى .

وصل

التوبة وتعريفها

ضد الاصرار (التوبة) ، وهي الرجوع من الذنب القولي والفعل
والفكري ، وبعبارة اخرى هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد الى
القرب ، وبعبارة اخرى ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال

وتدارك ما سبق من التقصير ، وكما أن الإصرار على المصيان من رذائل قوتي
 النفس والشهوة ، فالرجوع عنه وتركه من فضائلها ، بمعنى أن العزم على
 ترك كل معصية يكون من عمل كليهما أو أحدهما ومن فعل النفس باعانتها وانقيادها
 للعاقلة ، وإن كان الباعث على الرجوع وتهيج النفس والقوتين على مباشرة
 الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين
 المحبوب ويمكن أن يقال إن التوبة هو الرجوع عن الذنب ، وهو من ثمرات
 الخوف والحب ، فإن مقتضى الحب أن يمثل مراد المحبوب ولا يعصي في شيء
 مما يريد ويطلب من الحب ، فتكون من فضائل القوتين أيضاً . ويمكن أن
 يقال إن التوبة عبادة عن مجموع العلم بضرر الذنوب وكونها حجاباً بينه وبين الله
 والندم الحاصل منه والقصد المتعلق بالترك حالاً واستقبالاً والتلافي للماضي والندم
 والقصد بالترك والتلافي من فعل القوتين أو فعل النفس بوساطة القوتين وانقيادها
 للعاقلة ، والعلم المذكور من العاقلة فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث .

وتوضيح حقيقة التوبة أنه إذا علم العبد علماً يقينياً أن ما صدر عنه من
 الذنوب حائلة بينه وبين محابه نار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب
 وصار متأسفاً على ما صدر عنه من الذنوب ، سواء كانت أفعالا أو تروكا
 للطاعات ، ويسمى تألمه بسبب فعله أو تركه المفوت لمحبوبه ندماً . وإذا غلب
 هذا الندم على القلب انبعثت منه حالة أخرى تسمى ارادة وقصداً الى فعل له
 تسبق بالحال بترك الذنب الذي كان ملاسماً له ، وبلاستقبال بعزمه على ترك
 الذنب المفوت لمحبوبه الى آخر عمره . وبالماضي بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء ،
 فالعلم أعني اليقين بكون الذنوب سحوماً مهلكة هو الأول وهو مطلع البواقي ،
 إذ مهما اشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب فيتألم به

القلب حيث ينظر بأشراق نور الايمان واليقين أنه صار محجوباً عن محبوبه ،
 كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب
 أو انحسار حجاب فيرى محبوبه قد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في
 قلبه وتنبعث بتلك النيران ارادته للانتهاض للتدارك ، فالعلم والندم والقصد
 المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مترتبة في الحصول
 يطلق اسم (التوبة) على مجموعها ، وربما أطلقت التوبة على مجرد الندم ،
 وجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمره والتابع للتأخر ، وإلى هذا
 الاعتبار يشير قوله صلى الله عليه وآله : « الندم توبة » إذ لا يخلو الندم عن
 علم أوجبه وأثمره ، أو عن عزم يتبعه وينلوه ، فيكون الندم محفوظاً بطرفيه
 أعني ثمرته ومثمره ، وبهذا الاعتبار قيل في حدها : إنها ذوبان الحشا لما سبق
 من الخطأ ، أو نار في القلب تلهب وصدع في الكبد لا ينشعب ، وربما
 أطلقت على مجرد ترك الذنوب حالاً والعزم على تركها استقبالا ، وبهذا الاعتبار
 قيل في حدها : إنها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء ، وإنها تبديل الحركات
 المذمومة بالحركات الحمودة ، أو إنها ترك اختيار الذنب حالاً وتوطين القلب
 وتجرید العزم على عدم العود اليه استقبالا . وعلى هذا لا يكون الندم داخلاً
 في حقيقة التوبة ، وقد صرح بعض الاعاظم بخروجه عنها محتجاً بأن الندم وهو
 تألم القلب وحزنه على الذنب غير مقدور ، ولذا ترى تقع الندامة على أمور في
 قلبه وهو يريد ألا يكون ذلك فلا يكون الندم مقدوراً ، وإنما المقدور تحصيل
 أسبابه أعني الايمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقهما في قلبه . وعلى هذا
 فلا يكون الندم من التوبة إذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها ، فاللازم فيها
 التندم دون الندم . وغير خفي بأن الندم كغيره من صفات النفس ، فإن أمكن

ازالة الصفات النفسية وكسبها فالتندم كذلك وإلا لزم بطلان علم الأخلاق بالكلية ، وأيضاً إذا أمكن تحصيل سبب الندامة اعني العلم بفوات المحبوب لزم ترتب المسبب اعني الندامة عليه فما معنى عدم كونه مقدوراً ، فالندامة في الازالة والتحصيل لا يكون أصعب من كثير من الأخلاق النفسية . وبعضهم يعد ما عدا التندم من شرائط التوبة ، قال : « وأما الندم اعني تألم القلب على الذنب الذي هو روح التوبة فغير مقدور ، وهو التوبة حقيقة ، وإلما المقدور تحصيل أسبابه من العلم والایمان وتحقيقهما في قلبه » انتهى ، وفيه ما لا يخفى بعلاوة ما سبق ، قال الصادق عليه السلام : « التوبة جبل الله ومدد عنايته ، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال ، وكل فرقة من العباد لهم توبة ، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر وتوبة الأولياء من تلويح الخطرات ، وتوبة الأصفياء من التنفيس ، وتوبة الخالص من الاشتغال بغير الله ، وتوبة العام من الذنوب ، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبته ومنتهى أمره وذلك يطول شرحه هنا .

« وأما توبة العام فأن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة والاعتراف بجنايته دائماً واعتقاد الندم على ماضى والخوف على ما بقى من عمره ، ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك الى الكسل ويديم البكاء والاسف على ما فاتته من طاعة الله ويحبس نفسه عن الشهوات ويستغيث الى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود الى ما سلف ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة ويقضي عن الفوائت من الفرائض ويرد المظالم ويعتزل قرناء السوء ويسهر ليله ويظلم نهاره ويتفكر دائماً في عاقبته ويستعين بالله سائلاً منه الانتقام في سرائه وضرائه ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسقط عن درجة التوايين فان في ذلك

طهارة من ذنوبه وزيادة في عمله ورفعة في درجاته قال الله عز وجل : **وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا** وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا **الْكَاذِبِينَ** « (١)



هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟

التوبة إما تكون عن ذنب سبق مثله ، (أما) (٢) ترك ذنب لم يسبق مثله حالاً والعزم على تركه استقبالا لا يسمى توبة بل يسمى تقوى ويسمى صاحبه متقياً لا تائباً ، ولذا يصح القول بأن النبي صلى الله عليه وآله كان متقياً عن الكفر ولا يصح القول بأنه كان تائباً عنه . ثم المراد بالمثّل السابق أعم من أن يكون مثلاً في الصورة أو المنزلة ، فالشيخ الهنلي الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق ولم يقدر الساعة على فعلها إذا أراد التوبة عنها ينبغي أن يتوب عما يماثلها منزلة ودرجة كالقذف والسرقة وامثالها ، إذ لا معنى للتوبة عما يماثلها صورة أعني نفس الزنا وقطع الطريق مع عدم قدرته عليهما ، ولو لم تكن التوبة عما يماثل الشيء في المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشيء لزم أن يكون باب التوبة مسدوداً بالنسبة إلى مثل الشيخ الهنلي وكل من صدر منه معصية والآن لا يقدر عليها ، وهو باطل لانفتاح باب التوبة إلى الموت ، ولما ذكرنا بعض المشايخ في باب التوبة : « إنما ترك اختيار ذنب سبق مثله منه منزلة لا صورة تعظيماً لله وحذراً من سخطه » فقوله « سبق مثله » احتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله

(١) صححنا هذه الرواية على [مصباح الشريعة] الباب ٨٠

(٢) وفي النسخ [أو] بدل [أما] والصحيح ما انتهنا .

فإنه لا يسمى توبة بل تقوى ، وقوله : « منزلة لا صورة » لادخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله ، وعلى هذا فتوبة العنين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذي فارق قبل طريان العنة ، والظاهر أن بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الآن على أنه لو كان قادراً على الزنا لتركه أيضاً لاشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذي فارقته قبل طريان العنة فلو كان قادراً عليه لتركه أيضاً .

قال أبو حامد الغزالي : « إن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذي فارق قبل طريان العنة ، قلت لا لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على التورك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه » ثم قال : « واسكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي فارقته ونار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقه الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فاني أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته ، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وأن لم تطرأ عليه حالة تبيح فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ، واسكنه نائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بآدنى خوف ، والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ففساد يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تمنحي عن القلب بشيئين أحدهما حرقه الندم والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل ، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها

دون المجاهدة ، ولولا هذا قلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعيش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما يدل ظاهر الشرع على اشتراطه .

فصل

وجوب التوبة

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة بالاجماع والنقل والعقل : أما الاجماع فلا ريب في انعقاده . وأما النقل فمكثوه تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَمَلَكُمْ تُفْلِحُونَ » (١) وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » (٢) ، ومعنى النصوح الخالص لله خالياً عن شوائب الأغراض من مال أو جاه أو خوف من سلطان أو عدم اسباب ، والأمر للوجوب ، فتكون التوبة واجبة بمقتضى الآيتين .

وأما العقل فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك في ثبوته لها . « بيان ذلك » أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك السرمد ، ولولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن معنى لوجوبه ، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة إلى سعادة الأبد . ولا ريب في أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله والانس به ، فكل من كان محجوباً عن اللقاء والوصال محروماً عن مشاهدة الجلال والجمال فهو شقي لا محالة محترق بنار الفراق ونار جهنم . ثم لا مبعثد عن لقاء الله إلا اتباع

الشهوات النفسية والغضب والانس بهذا العالم الفاني والا كيباب على حب
مالا بد من مفارقتة قطعاً ، ويعبر عن ذلك بالذنوب . ولا مقرب من لقاء الله
إلا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلباً للانس
به بدوام الذكر والمحبة له بدوام الفكر في عظمتة وجلاله وجماله على قدر طاقته .
ولا ريب في أن الانصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول
الى القرب الذي هو السعادة ، ولا يتم ذلك إلا بالتوبة التي عبارة عن العلم والندم
والعزم ولا يتم الواجب إلا به فهو واجب فالتوبة واجبة قطعاً .

تتمة نيب

تحقيق في وجوب التوبة

كيف لا تكون التوبة عن المعاصي واجبة مع أن العلم بضرر المعاصي وكونها
مهلكة من اجزاء الايمان ووجوب الايمان ومما لا ريب فيه ، والعالم بهذا العلم اذا لم
يعمل به فكما لا يعلمه أو ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الايمان ، لأن كل علم
يراد ليكون باعثاً على العمل ، فلا يقع النقص عن عهده مالم يصير باعثاً ، فالعلم
بضرر الذنوب إنما اريد ليكون باعثاً على تركها فن لم يتركها فهو فاقده لهذا
الجزء من الايمان ، وهو المراد بقول النبي صلى الله عليه وآله : « لا يزني
الزاني حين يزني وهو مؤمن » وما اراد به نفي الايمان بالله ووحدانيته وصفاته
وكتبه ورساله فإن ذلك لا ينافي الزنا والمعاصي ، وإنما اراد به نفي الايمان بالله
لسكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً لسخطه ، وليس الايمان باباً واحداً بل هو
كما ورد نيف وسبعون باباً أعلاها الشهادتان وادناها اماطة الأذى عن الطريق ،

ومثاله قول القائل ليس الانسان موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً
أعلاها الروح والقلب وأدناها اماطة الأذى عن البشرة ، بأن يكون مقصوص
الشارب مقاوم الأظفار نقي البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسله
الملوثة بأروائها المستكرهه الصور بطول مخالبها وأظفارها ، فالإيمان كالإنسان
وفقد الشهادتين كفقده الروح الذي يوجب البطالان بالكلية ، والذي ليس له
إلا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر اجزائه من الأعمال ، فهو كالإنسان
مقطوع الأطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الظاهرة والباطنة إلا أصل
الروح ، وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة
التي تخلفت عنها الأعضاء التي تمددها وتقويها ، فكذلك من ليس له إلا أصل
الإيمان وهو مقصّر في الأعمال قريب من أن تنقلع شجرة إيمانه اذا صدمتها
الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده ، فكل إيمان
لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف
الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة ، فالحجوب عن
الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل ،
كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي فروع ليساق الى الموت المعدم للروح
التي هي أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الأصل ،
ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقائه
جميعاً يستدعي وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع ،
ولكن بقاءه يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل ،
فساواة العاصي والمطيع في اسم المؤمن كساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر في اسم
الشجرة ، وإنما يظهر الفرق اذا عصفت الرياح القوية فعند ذلك تنقطع أصول

شجرة القرع وتتناثر أوراقها وتبقى شجرة الصنوبر ثابتة على أصلها وفرعها .
ومثل المعاصي الذي لا يخاف الخلود في النار لأجل معصيته اتكالا على إيمانه
بالتوحيد والرسالة ، كمثل الصحيح الذي يأكل الأغذية المضرة والسمومات
ولا يخاف الموت اتكالا على صحته ، فكما يؤدي صحة هذا الصحيح بتناوله
السمومات والأغذية إلى المرض والمرض إلى الموت ، فكذلك تؤدي ذنوب
المعاصي إلى سوء الخاتمة وسوء الخاتمة إلى الخلود في النار ، فالمعاصي والإيمان
كالسمومات والمأكولات المضرة للأبدان ، فكما أن مضرة السمومات لا تزال
تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الخلط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج
فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكذلك آثار المعاصي لا تزال تتراكم في النفس
حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها أصل الإيمان ، فالخائف من الموت في هذه
النشأة القصيرة إذا وجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات فالخائف
من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ترك الذنوب ، ومن تناول السم وندم إذا
وجب عليه أن يتقيا ويرجع عن تناوله باخراجه عن المعدة فتناول سموم الإيمان
وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام له
مهلة التدارك .

فالبدار البدار معاشر اخواني إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب
بروح إيمانكم عملا لا ينفع بعده الاحتماء ويخرج الأمر فيه عن أيدي أطباء
القلوب ، فلا ينفع حينئذ وعظ الواعظين ونصح الناصحين ، وتحقق عليكم
كلمة العذاب وتدخلون تحت عموم قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » (١) وقوله تعالى :

« تَخْتَمُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ » (١) وغير ذلك من الآيات .

ثم مقتضى الأدلة المذكورة كون التوبة واجبة على الفور فيجب على كل مسلم أن يتوب عن ذنوبه فوراً ولا يجوز له التأخير ، قال لقمان لابنه : « يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة » ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين (احدهما) ان تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ديناً وطبعاً فلا يقبل المحو (والثاني) أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، ولذلك ورد أن أكثر صياح أهل النار من التسوية فما هلك من هلك إلا بالتسوية .

فصل

عموم وجوب التوبة

وجوب التوبة يعم الأشخاص والاحوال فلا ينبغي أن ينفك عنه احد في حالة ، قال الله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا » (١) وهو يعم الكل في الكل ، ومما يدل على وجوبها على الكل أن كل فرد من أفراد الناس اذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع في مملكة بدنه بين الشهوات جنود الشياطين وبين العقول احزاب الملائكة ، إذ لا تكمل غريزة العقل في أحد إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المدمومة ، واذا قام القتال بينهما لا بد بحكم العقل والشرع أن يغلب جنود الله على جنود

الشیطان یسمها بکسر الشهوات ورد النفس علی سبیل القهر والغلبة علی الصفات المحمودة والعبادات ، ولا معنی لوجوب التوبة إلا هذا . ومما يدل علی وجوبها علی الدوام وفي کل حال هو أن کل عبدا لا یخلو عن معصية بجوارحه ، فإن خلا فی بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا یخلو عن رذائل النفس والهمم بالذنوب بالقلب ، فإن خلا عن ذلك أيضاً فلا یخلو عن وسوسة الشیطان بإیراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذکر الله ، فان خلا عنه فلا یخلو عن غفلة وقصور فی العلم بالله وبصفاته وآثاره ، وكل ذلك نقص یجب الرجوع عنه وهو معنی التوبة .

ولعدم خلو احد من الخلق من نوع هذا النقص واصله فی حالة وان تفاوتوا فی المقادیر یلزم وجوب التوبة علی کل عبدا فی کل حالة ، ولو خلا عن التوبة عن جمیع الذنوب فی لحظة واختطفه الموت لزم خروج روحه بلا توبة لعدم انفكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصي المذكورة ، فالتوبة واجبة علی کل عبدا سالك فی کل نفس من أنفاسه ، قال بعض العرفاء (١) « لولم یبک العاقل فیما بقي من عمره إلا علی فوت ماضی من عمره فی غیر طاعة الله لكان حقیقاً أن یخزيه (٢) ذلك الی المات فكیف من یتقبل ما بقي من عمره بمنزل ماضی من جهله » ومن عرف قدر العمر وفائدته وما یكتسب به من سعادة الأبد یعلم أن ما یضیع منه فی المعصية وغیر التوبة أي حسرة وندامة یترتب علیه ، فان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة فان ضاعت منه بغیر فائدة بکی علیها لا محالة وإن ضاعت منه وصار ضیاعها سبب هلاکة كان بكاؤه منه أشد ، وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها لا یصلها العبد الی سعادة الأبد

(١) هو ابو سلیمان الدرانی فیما نقل عنه فی احیاء العلوم [٤ : ١٠]

(٢) فی نسخ جامع السعادات [یخزيه] .

وانقاذها اياه من شقاوة السرمد ، وأيُّ جوهر انفس من هذا ، فمن ضيعها في
الفلة خسر خسرانا مبيناً ومن صرفها في معصية فقد هلك هلاكاً أبدياً ، وقد
قيل إن الله تعالى الى عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الإلهام ﴿ احدهما ﴾ اذا
خرج من بطن امه يقول له : عبدي قد اخرجتك الى الدنيا طاهراً لطيفاً
واستودعتك عمرك واثمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر كيف
تلقاني ، ﴿ والثاني ﴾ عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في امانتي
عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فالتك على الوفاء أو اضعفها فالتك بالمطالبة
والعقاب ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ » (١)
وبقوله تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » (٢) ، وقدروي
أن ملك الموت اذا ظهر للعبد عند موته أعلمه أنه قد بقي من عمره ساعة لا تستأخر
عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والأسف ما لو كانت له الدنيا
بجذافيرها لأعطاها بدل أن يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليتدارك فيها
تفريطه ولا يجد اليها سبيلاً ، وقدروي أيضاً أنه اذا كشف الغطاء للعبد قال :
ملك الموت اخبرني يوماً اعتذر فيه الى ربي واتوب وازود صالحاً لنفسه ،
فيقول فنيبت الايام فلا يوم فيقول اخبرني ساعة ، فيقول فنيبت الساعات فلا ساعة ،
فيغلق عليه باب التوبة فيغرغر بروحه وتتردد انفاسه في شرايفه ويتجرع
غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب اصل
ايمانه في صدمات تلك الأهوال ، فاذا زهقت نفسه فإن سبقت له من الله الحسنی
خرجت روحه على التوحيد وذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقاوة
والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة .

تَمَثُّلُ نَبِيٍّ

التوبة هي بعض المعاصي المذكورة اعني المحرمات وترك الواجبات واجب بفتوى الشرع بمعنى أن التارك لهذه التوبة والمرتكب لهذه المعاصي يكون معذبا بالنار ، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق وتكليف الجميع به لا يوجب فساداً في النظام السكلي ، وأما التوبة عن بعض آخر منها كالخواطر والهمم الطارية على القلب والقصور عن معرفة كنهه جلال الله وعظمته وامثال ذلك ، فليس واجباً بهذا المعنى لمنافاته انتظام العالم ، إذ لو كلف الخلق كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعاش ورفضوا الدنيا بالكلية ، وذلك يؤدي الى بطلان التقوى رأساً لأنه إن فسدت المعاش لم يتفرغ احد للتقوى ، فالتوبة عن كل ما هو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار ، بل هي واجبة بمعنى آخر ، وهو ما لا بد منه للوصول به الى غاية القرب الى الله والى المقام المحمود والدرجات العالية ، فمن رضي باصل النجاة وقنع به لم تكن هذه التوبة واجبة عليه ، ومن طلب الوصول الى ما ذكر وجبت عليه هذه التوبة وجوباً شرطياً بمعنى توقف مطلوبه عليه كما جرت عليه طوائف الانبياء والاولياء واكابر العرفاء والعلماء ، ولأجله رفضوا لذات الدنيا بالكلية ، وعلى هذا فما ورد من استغفار الانبياء والأوصياء وتوبتهم إنما هو من ترك دوام الذكر وغفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لأجل اشتغالهم بالمباحات ، لا عن ذنوب كذنوبنا لتعاليمهم وتقديسهم عن ذلك ، قال الصادق عليه السلام : « إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب الى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب. ان الله تعالى

ينخص أوليائه بالمصائب وليأجرهم عليها من غير ذنب كذنوبنا فإن ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله » ويضمنونه أخبار آخر .

فصل

لا بد من العمل بعد التوبة

لا يكفي في تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب مجرد تركها في المستقبل ، بل لا بد من محو آثارها التي انطبعت في جوهر النفس بنور الطاعات ، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الانسان ارتفعت منها ظلمة الى قلبه ، كما ترتفع من نفس الانسان ظلمة الى وجه المرأة الصقيلة ، فان تراكت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت رينا ، كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبيثاً ، كما قال تعالى : « كَذَلَا بَلَّ رَأْيُ عَلِيٍّ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (١) فاذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه ، كما أن الخبيث في وجه المرأة اذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وفسده وصار بحيث لا يقبل التصقيل بعده ، فالتائب من الذنوب لا بد له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه ولا يكفي مجرد تركها في المستقبل ، كما لا يكفي في تصقيل المرأة وظهور الصور فيها قطع الانفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الآثار ، وكما ترتفع الى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظامها ، فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها ولهذا النور تنمحي ظلمة المعاصي والشهوات ، واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وآله :

« اتبع السيئة الحسنة تمحها » فاذن لا يستغني العبد في حال من أحواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات بمعنى أن تكون الحسنة التي ترتكب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة لقوله صلى الله عليه وآله : « اتق الله حيث كنت » ، ولأن المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب ، فلا يحورها إلا نور يرتفع إليه من حسنة تضادها إذ الضد إنما يرتفع بالضد ، فيكفر سماع الملهي بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنباً بالعبادة فيه ، ويكفر من المصحف محدثاً باكرامه وتقيله وكثرة قراءته ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل شراب حلال هو أحب إليه إلى غير ذلك وليس ذلك أي ايقاع المناسبة شرطاً في المحو ، فقد روي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله إني عاجلت امرأة فاصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض علي بحكم الله فقال : « أما صليت معنا » قال بلى فقال « إن الحسنات يذهبن السيئات » .

وينبغي أن تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتقدم عليها ويمحو آثارها قبل أن يتراكم الزين على القلب فلا يقبل المحو ، قال الله تعالى : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتَوُُّونَ رِمَن قَرِيبٍ » (١) أي عن قرب عهد بعمل السوء وقال : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ » (٢) قال الصادق عليه السلام : « ذلك إذا عاين أمر الآخرة » ، وقد ورد مثله عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً .

فصل

فضيلة التوبة

اعلم أن التوبة أول مقامات الدين ورأس مال السالكين ومفتاح استقامة السائلين ومطلع التقرب الى رب العالمين ، ومدحها عظيم وفضلها جسيم ، قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، وقال الباقر عليه السلام : « إن الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها فالله أشد فرحا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها » ، وقال عليه السلام : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ » ، وقال الصادق عليه السلام : « إن الله يحب من عباده المقتن التواب » يعني كثير الذنب كثير التوبة وقال عليه السلام : « إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه الله فستر عليه » فقلت : وكيف يستر عليه ؟ قال « ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحى الى جوارحه والى بقاع الأرض أن اكتسبي عليه ذنوبه فيلقى الله عز وجل حين يلتزم وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب » وقال الصادق عليه السلام : « إن الله عز وجل اعطى التائبين ثلاث خصال لو اعطى نخلصة منها جميع أهل السموات والأرض لنجوا بها » قوله عز وجل . « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ » (٢) الى آخره وقوله : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ

السَّارِسَ وَمَنْ سَحَوَّاهُ يَسْتَجِبُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ
 لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا
 - الى قوله - وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ « (١) وقوله : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ
 مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ
 وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ
 مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ - الى قوله - وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » (٢)
 وقال ابو الحسن عليه السلام : « أحب العباد الى الله المنيبون التوابون »

فصل

قبول التوبة

التوبة المستجعة لشرائطها مقبولة بالاجماع ويدل عليه قوله تعالى :
 « هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » (٣) وقوله تعالى : « غَافِرِ
 الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ » (٤) وقوله تعالى : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا
 أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَحْسِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » (٥) وقول
 النبي صلى الله عليه وآله : « إن الله تعالى يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل الى
 النهار ولمسيء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » وبسط اليد كناية
 عن طلب التوبة وطالب التوبة يقبله ألبتة ، وقوله صلى الله عليه وآله :

(١) المؤمن الآية ٧ - ٩ (٢) الفرقان الآية ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠

(٣) الشورى الآية ٢٤ . (٤) المؤمن الآية ٢ .

(٥) النساء الآية ١١٠

« إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » وقوله صلى الله عليه وآله : « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندتم لتاب الله عليكم » وقوله صلى الله عليه وآله : « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل في الجنة » قيل كيف ذلك يا رسول الله قال : « يكون نصب عينيه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة » وقوله صلى الله عليه وآله : « كفارة الذنب الندامة » وقوله صلى الله عليه وآله : « من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته » ثم قال : إن السنة لكثير من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته ، ثم قال : إن الشهر لكثير من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته ، ثم قال : إن الجمعة لكثير من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته ، ثم قال : إن يوماً لكثير من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته » وقال الباقر عليه السلام : لمحمد بن مسلم : « ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بهد التوبة والمغفرة ، أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان » فقال له : فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة قال : « يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته » قال : « فانه فعل ذلك صراراً يذنب ثم يتوب ويستغفر ، فقال : « كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات فأياك أن تقنط المؤمن من رحمة الله » وقوله عليه السلام : « إذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده إلى حلقه - لم تكن للعالم توبة وكانت للجاهل توبة » وقوله عليه السلام : « إن آدم صلى الله عليه قال : يارب سلطت علي الشيطان وأجبرته مني مجرى الدم ، فاجعل لي شيئاً ، فقال : يا آدم جعلت لك إن من

هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه فإن عملها كتبت عليه سيئة ، ومن هم منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة فإن هو عملها كتبت له عشرًا ، قال : يارب زدني ، قال : جعلت لك ، إن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له ، قال : يارب زدني ، قال : جعلت لهم التوبة وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه قال : يارب حسبي ، وقول الصادق عليه السلام « إن الرجل ليدنّب الذنب فيدخله الله به الجنة » قيل يدخله الله بالذنّب الجنة ؟ قال : « نعم إنه ليدنّب فلا يزال منه خائفًا ما قُتِلَ لنفسه فيرحمه الله فيدخله الجنة » وقوله عليه السلام « العبد المؤمن إذا ذنب ذنبًا أتجّله الله سبع ساعات ، فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء ، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة ، وإن المؤمن ليدكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له ، وإن الكافر لينسا من ساعته » وقوله عليه السلام « ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب علي إلا غفرها الله له ولا خير فيمن يقارف في يومه أكثر من أربعين كبيرة (١) » وروي : « أن الله تعالى لما لعن إبليس سأله النظرة فانظره إلى يوم القيامة فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله تعالى : بهزئي لا حجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح » وورد في

(١) صححنا الأحاديث الواردة في هذا الباب على أصول المكافي باب الاعتراف بالذنوب . وباب من يهمل بالحسنة أو السيئة وباب التوبة . وباب الاستغفار من الذنوب . وباب فيما أعطى الله عز وجل آدم وقت التوبة .

الاسرائيليات أن شاباً عبد الله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر في المرأة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك ، فقال : إلهي أطعمتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة ، فإن رجعت اليك اتقبلني ، فسمع قائلاً يقول : أحببتنا فأحببتنا ، فتركتنا فتركتنا ، وعصيتنا فأهملناك ، فإن رجعت إلينا قبلناك . والأخبار والآثار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة عليه أيضاً .

ثم الناظر بنور البصيرة لا يحتاج في هذا المعنى الى بيان ، إذ يعلم أن التوبة توجب سلامة القلب ، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله ، ويعلم أن القلب خلق في الأصل سليماً صافياً ، إذ كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما مرض واسودّ بأمراض الذنوب وظلماتها ، ودواء التوبة يزيل هذه الأمراض ، ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات ، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات ، كما لا طاقة للظلام الليل مع نور النهار ، ولسكندورة الوسخ مع بياض الصابون والماء الحار . نعم إذا تراكمت الذنوب بحيث صارت ريناً وطبعاً وفسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء والنورانية بعد ذلك ، فمثل هذا القلب لا تفيده التوبة ، بمعنى أنه لا يرجع ولا يتوب وإن قال باللسان تبنت ، إذ أوساخ الذنوب غاصت في تجاويفه وتراكمت فيه بحيث لا يقبل التطهير ولو بلغ فيه أدى الى انخراق القلب وهلاكه ، لصيرورة الأوساخ جزءاً من جوهره ، كما أن الثوب الذي غاص الوسخ في تجاويفه وخلل وتراكم فيه لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون أدى ذلك الى انخراقه . وهذا حال أكثر الخلق المأبئين على الدنيا المعرضين عن الله ، فانهم لا يرجعون ولا يتوبون لصيرورة ذمائم الأخلاق وورذائلها ملكات راسخة في نفوسهم وغاصت أوساخها في تجاويف

قلوبهم ، بحيث لا يتنبهون ولا يتيقظون حتى يقصدوا التوبة ، ولو قصدوها فأنما هو بمجرد اللسان والقلب غافل خال عن الايمان ، بل تتعذر عليه التوبة لبطلان حقيقتها .

فصل

طرق التوبة عن المعاصي

إعلم أن ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب ، وهي كما ذكرناها لا تخلو عن الصفات والافعال الشيطانية المتعلقة بالوهم ، والصفات والافعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية ، والصفات والافعال البهيمية المتعلقة بالقوة البهيمية ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية الخروج عنها ينقسم الى اقسام ثلاثة : (ائحدها) ترك الطاعات الواجبة من الصلاة والصوم والزكاة والحس والكفارة وغيرها ، وطريق التوبة عنها أن يجتهد في قضائها بقدر الامكان . (وثانيها) المحرمات التي بين العبد وبين الله أعني المنهيات التي هي حقوق الله كشرب الخمر وضرب المزامير والكذب والزنا بغير ذات بعل ، وطريق التوبة عنها أن يندم عليها ويوطن قلبه على ترك العود الى مثلها ابداً . (وثالثها) الذنوب التي بينه وبين العباد ، وهي المعبر عنها بحقوق الناس ، والامر فيها أصعب وأشكل ، وهي إما في المال أو في النفس أو في العرض أو في الحرمة أو في الدين فما كان في (المال) يجب عليه أن يرده الى صاحبه إن أمكنه ، فإن عجز عن ذلك لعدم أو فقر وجب أن يستحل منه ، وإن لم يحله أو عجز عن الاتصال لغيبة الرجل غيبة منقطعة أو موته وعدم بقاء وارث له ، فليصدق عنه إن أمكنه ، وإلا فعليه بالتضرع والابتهاال الى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة ، وعليه بتشكير حسناته

وتكثير الاستغفار له ليكون يوم القيامة عوضاً عن حقه ، إذ كل من له حق على غيره لا بد أن يأخذ يوم القيامة عوضاً عن حقه إما بعض طاعاته أو بتحمل هذا الغير بعض سيئاته . وما كان في (النفس) فان كانت جنسية حُرِّيت عليه خطأ وجب أن يعطي الدية وإن كان عمداً وجب عليه أن يمكن المجنى عليه أو أوليائه مع هلاكه من القصاص حتى يقتص منه ، أو يجعل في حل ، وإن عجز عن ذلك فعليه بكثرة اعتقاق الرقاب ، لأن ذلك نوع احياء وإيجاد لا يقدر الانسان على أكثر منه ، فيقابل به الاعدام والاماتة ، وعليه الرجوع أيضاً الى الله بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنه يوم القيامة . وما كان في (العرض) بأن شتمه أو قذفه أو بهته أو اغتابه فحقه أن يكذب نفسه عند من قال ذلك لديه ويستحل من صاحبه مع الامكان إن لم يخف تهديده وزيادة غيظه وهيجان فنتته من اظهاره ، فإن خاف ذلك فليكثر الاستغفار له ويبتهل الى الله يرضيه عنه يوم القيامة . وما كان في (الحرمة) بأن خان مسلماً في اهله وولده أو نحوهما ، فلا وجه للاستحلال إذ اظهر ذلك يورث الغيظ والفتنة ، لأن من له شوب الرجولية لا يمكن أن يحل من خان في حرمة ووطى زوجته ، كيف ولو أحله ورضى بذلك كان فيه عرق من الديانة ، فاللازم لمثله أن يكثرتضرع والابتهال الى الله المتعال ويواظب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانه في مقابلة خيانتة ، وإن كان حياً فليفرحه بالاحسان والانعام وبذل الاموال ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج ويسمى في مهماته واغراضه ويتألف به ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه فر بما سمحت نفسه في القيامة بالاحلال ، فان أبى أن يكون انعامه وتلطفه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة خيانتة فان كل ظلم وايداء وحق من حقوق العباد اذا لم يحل

صاحبه يوم القيامة يقتص من الظالم في يوم القيامة بالحكم العدل القهري بأخذ العوض سواء رضى الظالم أم لا ، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم لا كما أنه يحكم في الدنيا على من اتلف مال غيره باعطاء المثل ويقهر على ذلك ويحكم على هذا الفير بقبوله ويجبر عليه إن امتنع عن الابراء وعن القبول فكذلك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العاديين في محكمة القيامة ، فيقتص من كل ظالم موز بأخذ حسناته ووضعها في موازين أرباب المظالم ، فان لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك المسكين بسيئات غيره ، وبذلك يعلم أنه لا خلاص لأحد في القيامة إلا برجحان ميزان الحسنات على ميزان السيئات ومع الرجحان ولو بقدر مثقال تحصل النجاة ، فيجب على كل مهتد بيوم الحساب أن يسعى في تكثير الحسنات وتقليل السيئات حتى لا ترجح سيئاته يوم القيامة على حسناته ولو بمثقال فيكون من الهالكين وعلى كل حال لا يغفل عن التضرع والابتهال في الليل والنهار الى الله سبحانه لعله بعميم لطفه لا يفضحه يوم تبلى السرائر ويرضى خصمه بخفي أظافه . وما كان في (الدين) بأن نسب مسلماً الى الكفر أو الضلالة أو البدعة فليكنب نفسه بين يدي من قال ذلك عنده ويستحل من صاحبه مع الامكان وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهال الى الله ليرضيه عنه يوم القيامة . ومجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس ارضاء الخصوم مع الامكان ، وبدونه التصديق وتكثير الحسنات والاستغفار والرجوع الى الله بالتضرع والابتهال وليرضيه عنه يوم القيامة ويكون ذلك بشيئة الله ، فلهذا إذا علم الصديق من قلب عباده ووجد ذله وانكساره ترحم عليه وارضى خصماءه من خزانة فضله ، فلا ينبغي لأحد أن يئأس من روح الله .

فصل

تكفير الصفائر ومعنى الكبائر

اعلم أن صاحب الشرع قسم الذنوب الى كبيرة وصغيرة ، وحكم بأن اجتناب الكبائر يكفر الصفائر ، وأن الصلوات الخمس لا تكفر الكبائر وتكفر الصفائر ، قال الله تعالى : « إِنَّ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » (١) وقال : « وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّامَمَ » (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة تكفر ما بينهما إن اجتنبت الكبائر » واجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كن يتمسكن من امرأة ومن موافقتها فكيف نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس ، فإن مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من اقدمه على النظر في اظلامه ، فهذا معنى تكفيره ، فإن كان امتناعه لعجز أو خوف أو نحو ذلك فلا يصلح للتكفير ، فكذلك من لا يشتهي الحمر بطبعه ولو ابيع له لما شربه ، فاجتنابه لا يكفر عن الصفائر التي هي من مقدّماته كسماع الملاهي والأوتار ومثله .

ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في الافة ولا في الشرع والعرف لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالاضافة الى ما دونه وصغير بالاضافة الى ما فوقه . وقد اختلف العلماء في تعيين

الكبائر اختلافاً لا يكاد يرجى زواله ، واختلفت الروايات فيها أيضاً ، والأظهر بالنظر إلى الروايات وإلى الجمع بينها كون الكبيرة عبارة عما توعده بالنار على فعله أو ما ورد في نص الكتاب النهي عنه ، ويعني بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة ، أو أن تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه . ويمكن أن يقال إن الشرع لم يعينها وأبهمها ليكون العباد على وجل منها ، فيجتنبون جميع الذنوب ، كما أبهم ليلة القدر ليظمجد الناس في طلبها ويواظبوا في ليال متعددة على العبادات ، وكما أبهم الاسم الأعظم ليواظبوا على جميع أسماء الله . والحاصل أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا جاز أن يتطرق إليه الإبهام ، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة ، فإن موجبات الحدود معلومة بأسمائها ، وإنما حكم الكبيرة أن اجتنابها يكفر الصغائر وأن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرؤون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر .

فصل

الصغائر قد تكون كبائر

اعلم أن الصغيرة قد تكبر بأسباب (أحدها) الإصرار والمواظبة ، ولذلك قال الصادق عليه السلام : « لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار » . والسرف فيه أن الصغيرة أقله تأثيرها لا تؤثر في القلب باطلاً مرة أو مرتين ، ولكن إذا تكررت وتراكمت آثارها الضعيفة صارت قوية وأثرت على التدريج في القلب ، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر

على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « خير الأعمال أدومها وإن قل » ، وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وإن قلت فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وإن قلت ، ثم معرفة الاصرار موكول الى العرف ، قال الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « ولم يصرخوا على ما فعلوا وهم يعلمون » ، « الاصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الاصرار » .

(وثانيها) استصغار الذنب فإن العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله وكلما استصغره كبر عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به ، واستصغاره يصدر عن الالف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمخدور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤخذ بما يجري عليه في الغفلة لعدم تأثيره به ، ولذلك ورد في الخبر « أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تغفر » قيل وما المحقرات ؟ قال : « الرجل يذنب الذنب فيقول طوبى لي لو لم يكن غير ذلك » وروي صلى الله عليه وآله أنه نزل بأرض قرعاء فقال لأصحابه « يا أيُّها الناس ائتموا بالحطاب » فقالوا يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطاب ، قال : « فليأت كل إنسان بما قدر عليه » فجاءوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض ، فقال صلى الله عليه وآله « هكذا تجتمع الذنوب إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شيء طالباً ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثروا وكل شيء أحصيناه في إمام مبین » وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تصغر ما ينفع يوم القيامة ولا تصغر ما يضّر »

يوم القيامة فكونوا فيما أخبركم الله كمن عاين » وقال الباقر عليه السلام : « اتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها طالباً يقول أحذركم أذنب واستغفر الله إن الله تعالى يقول : « وَ نَكْتُئِبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارُهُمْ وَ كَذَلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » (١) وقال عز وجل : « إِنَّهَا إِنْ تَكُ مَنَاقِلَ حَبِيبَةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » (٢) وقال الصادق عليه السلام : « إن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير » وقال الكاظم عليه السلام : « لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف » (٣) ، والسر في عظم الذنب في قلب المؤمن كونه عالماً بجلال الله وكبريائه فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأي الصغير كبيراً ، وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه « لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها » ، ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين : « إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر وكنا نعدّها على عهد رسول الله من الموبقات » إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالاضافة إلى جلال الله كبائر .

(ونالها) أن يأتي بالصغائر ولا يبالي بفعلها اغتراراً بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ، ولا يعلم أنه انما يمهل مقتاً ليزداد بالامهال اثماً فتزهق أنفسهم

(١) يس الآية ١١ . (٢) لقمان الآية ١٥ .

(٣) صحيحنا الاحاديث كلها على اصول السكافي باب التوبة . وباب

تفسير الذنوب .

وهم كافرون ، فمن ظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به فهو جاهل بمكان الغرور وآمن من مكر الله الذي يأمن منه إلا الكافرون .

(ورابعها) السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونها نعمة وسبب الشقاوة ، فكما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها في تسويد قلبه ، فمن مزق عرض مسلم وفضحه وخجله أو غبنه في ماله في المعاملة ثم فرح به ويقول أما رأيتني كيف مزقت عرضه وكيف فضحته وكيف روجت عليه الزيف كانت معصيته أشد مما إذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه ، إذ الذنوب مهلكات وإذا ابتلي بها العبد فينبغي أن يتأسف من حيث إن العدو أعنى الشيطان ظفر به وغلب عليه لا أن يفرح بغلبة العدو عليه فالمرضى الذي يفرح بانكسار أناته الذي فيه دواؤه لتخلصه من ألم شره لا يرجي شفاؤه .

(وخامسها) أن يذنب ويظهر ذنبه بأن يذكره بعد اتيانه أو يأتي به في مشهد غيره ، فإن ذلك خيانة منه على الله الذي أسدله عليه وتحريك الرغبة والشر فيمن أسحمه ذنبه أو أشهده فعله ، فهما خيانتان انضمتا إلى خيائته فتغلظت به ، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت خيائته رابعة وتفاحش الأمر ، وهذا لأن من صفات الله أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر فلاظهار كفران هذه النعمة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له » وقال الصادق عليه السلام : « من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ، ومن جاءنا يبيد عورة قد سترها الله فنحوه » .

(وسادسها) أن يكون الآتي بالصغيرة عالماً يقتدي به الناس فإذا فعله

بمحضرة الناس أو بحيث اطلعوا عليه كبر ذنبه وذلك كلبسه الذهب والابريسم وأخذته مال الشبهة واطلاقه اللسان في اعراض الناس ونحو ذلك ، فهذه ذنوب يقتدى العالم فيها ويتبع عليها فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم ، فطوبى لمن اذا مات مات معه ذنوبه ، وفي الخبر « من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء » قال الله تعالى : ونكتب ما قدموا وآثارهم ، والآثار ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل فعلى العالم وظيفتان : (احدهما) ترك الذنب ، (والاخرى) اخفاؤه ، وكما تتضاعف أوزار العالم على السيئات اذا اتبع فيها فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات اذا اتبع .

فصل

شروط كمال التوبة

يشترط في تمام التوبة وكالها بعد تدارك كل معصية بما مر من طول الندم وقضاء العبادات والخروج عن مظالم العباد طول البكاء والحزن والحسرة واسكاب الدموع وتقليل الأكل وارتياض النفس ليزوب عن بدنه كل لحم نبت من الأغذية المحرمة والمشتبهة ، قال امير المؤمنين عليه السلام لمن قال بمحضرة استغفر الله (شككتك امك أندري ما الاستغفار ان الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان : أولها الندم على ما مضى ، والثاني العزم على ترك العود عليه ابداً ، والثالث أن تؤدي الى المخواقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع أن تعتمد الى كل فريضة عليك ضعفتها تؤدي حقها ، والخامس أن تعتمد الى اللحم الذي نبت على السمحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد

بالعظم وينشأ منهما لحم جديد ، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته
خلالوة المعصية فعند ذلك تقول استغفر الله .

فصل

هل يصح التبعيض في التوبة

اعلم أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح بشرط ألا
تكون الذنوب التي يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التي لا يتوب عنها ، كأن
يتوب عن الكبائر دون الصغائر أو عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض
حقوق الله ، أو عن شرب الخمر دون الزنا أو بالعكس ، أو عن شرب الخمر
دون أكل أموال الناس بالباطل خيانة وتلبيساً أو غصباً أو قهراً ، أو عن
بعض الصغائر دون بعض الكبائر كالذي يتوب عن الغيبة مع اصراره على شرب
الخمر . والدليل على إمكان ذلك وصحته أن العبد إذا علم أن الكبائر أعظم
اثماً عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو اليها
فلا يبعد أن يتوب عن الأعظم دون الأصغر ، وكذا إذا تصور أن بعض
الكبائر أشد وأغلظ عند الله من بعض فلا يبعد أن يتوب عن الأغلظ دون
الأخف ، وقد تكون ضراوة أحد بنوع معصية شديدة فلا يقدر على الصبر عنها
وتكون ضراوته بنوع آخر منها أقل ، فيمكنه الترك بسهولة فيتوب عنه دون
الأول ، وإن كان الأول أغلظ وأشد اثماً ، كالذي شهوته بالخمر أشد من شهوته بالغيبة
فيترك الغيبة ويتوب عنها دون الخمر ، فالتوبة عن بعض المعاصي دون بعض مع
اختلافها نوعاً بأي نحو كان ممكن وصحيح ، ومعها يندفع عنه اثم ما تاب عنه ويكتب

عليه اثم ما لم يتب عنه ، بل ربما كان أكثر ما وقع من التوبة من هذا القبيل إذ كثير التائبون في الأعصار الخالية والقرون الماضية ، ولم يكن أحد منهم معصوماً فيكون كل منهم مجازماً بأنه يصدر عنه معصيته البتة . ويدل على الصحة قوله عليه السلام : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، حيث لم يقل التائب من الذنوب ، نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تماثلها غير صحيح وغير معقول لاستوائهما في حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله ، فلا معنى للتوبة عن أخذ الخبز الحرام دون اللحم الحرام ، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام ، أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر ، إذ لو كان ذلك صحيحاً لصح أن يتوب عن أخذ هذا الخبز دون ذلك الخبز ، أو عن أخذ هذا الدرهم دون ذلك الدرهم وهكذا . والحاصل أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تفاوتها في العقاب واقتضاء الشهوة صحيح ، ومع تماثلها فيهما غير معقول . ومن العلماء من قال ان التوبة عن البعض دون البعض لا تصح مطلقاً ، واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم ، وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة ، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا ان كان توجبه لأجل المعصية إذ العلة شاملة لهما ، لأن من يتوجع على قتل ولد بالسيف يتوجع على قتله بالسكين ، لأن التوجع إنما هو بفوات المحبوب ، سواء كان بالسيف أو بالسكين ، وكذلك توجع التائب إنما هو لفوات المحبوب بالمعصية سواء عصي بالسرقة ، أو بالزنا وجوابه قد ظهر مما ذكرناه

فصل

اقسام التائبين

التائبون بين من سكنت نفسه عن الشروع الى الذنوب فلا يحوم حومها ، وبين من بقي في نفسه الشروع اليها والرغبة فيها وهو يجاهدها ويمنعها :
والأول بين من سكّن النزوع وبطلانه فيه لأجل قوّة اليقين وصدق المجاهدة ومن سكّنه وانقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط : والأول من الأول أفضل من الثاني ، والثاني منه أدون من الثاني والوجه ظاهر ، وايضاً التائبون بين من نسي الذنب من دون اشتغال بالتفكير فيه ، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه . ولا ريب في أن التذكّر والاحتراق بالنظر الى المبتدي ومن يخاف عليه العود أفضل ، لأنه يصدّه عنه ، والنسيان بالنظر الى المنتهي السالك والواصل الى مرتبة الحب والانس الواصل من نفسه أنه لا يعود أفضل ، لأنه شغولٌ مانع عن سلوك الطريق ، وحاجب من الحضور بلا فائدة . ولا ينافيه بكاء الانبياء وتناجيهم من الذنوب ، لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم الى الدرجات اللائقة بالامة ، فإنهم بُعثوا لارشادهم ، فعليهم التلبّس بما تنتفع الامة بمشاهدته وإن كان نازلاً عن ذروة مقامهم ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأُشرّع » (١) ولا تعجب من هذا فإن الامم في كنف شفقة الانبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكلما وُشي في كنف الرعاة ، والاب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير

(١) الحديث نبوي مروي في احياء العلوم ج ٤ ص ٣٨ .

ينزل الى درجة نطق الصبي ، والراعي لشاة أو طائر يصوت به رغاء أو صغيراً
شبيهاً بالبهيمة والطائر ، تلطفاً في تعليمه .

فصل

مراتب التوبة

اعلم أن التائب إما يتوب عن المعاصي كلها ويستقيم على التوبة الى آخر
عمره فيتمدرك ما فرط ، ولا يعود الى ذنوبه ، ولا يصدر عنه معصية إلا الزلات
التي لا يخلو عنها غير المعصومين ، وهذه التوبة هي التوبة النصوح والنفس
التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع الى ربها راضية مرضية ، أو يتوب
عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على امهات الطاعات ، إلا أنه ليس ينفك
عن ذنوب تصدر عنه في مجاري احواله غفلة وسهولة وهفوة لا عن محض العمد
وتجريد القصد ، وإذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على
الآل يعود الى مثله ، ويتشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدي اليه ، والنفس
التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها ولها حسن الوعد
من الله تعالى بقوله : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن
ربك واسع المغفرة » ، والى مثلها الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله : « خياركم
كل مفتن تواب » وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة يفيء أحياناً ويميل أحياناً »
وفي خبر آخر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » (١) أي الحين بعد
الحين ، وكل ذلك شاهد صدق على أن هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة

(١) صحيحنا النبويات الثلاث على احياء العلوم ج ٤ ص ٣٩ .

ولا يلحق صاحبه بدرجة المصيرين ، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله الى درجة التائبين فهو ناقص ومشله مثل الطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين ، ومثل الفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار في أوقات نادرة . ولا ريب في نقصانه ، فالعالم حق العالم هو الذي لا يؤيس الخلق من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومفارقة السيئات المحتطفات ، إذا شال الفترات وما يصدر عن السهو والغفلات لا يفسد النفس ولا يبطلها بحيث لا يقبل الإصلاح ، أو يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب ، فيقدم عليه عمداً وقصداً لعجزه عن قهر الشهوة وقمعها ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك لاكثر الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة ، وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ عنها يتندم ، ويقول سأتوب عنها ، لكنه يسؤل نفسه ويسوف توبته يوماً بعد يوم ، والنفس التي هذه درجاتها هي التي تسمى النفس المسولة المسئول صاحبها واليه الإشارة بقوله تعالى : « وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » (١) فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكرهته لما يتعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليها ولكن يخاف عليها من حيث تسويقها وتأخيرها ، فربما اختطفها الموت قبل التوبة ويقع أمرها في المشيئة فيدخل في زمرة السعداء ، أو يسلك في سلك الأشقياء ، أو يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود الى الذنوب عمداً وقصداً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف ويتندم بل ينهمك انهماك الغافل

في الذنوب واتباع الشهوات ، وهذا معدود من المصرين ونفسه محسوبة من النفوس الامارة بالسوء الفرارة من الخير ، ومثله إن مات على التوحيد وختم له بالحسنى وغلبت طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة ، وإن ختم له بالسوء كان من أهل النار ، وإن مات على التوحيد ولكن ترجعت سيئاته على حسناته فأمره الى الله ، ولعله يندب في النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته ثم يخلص منها بهيم لطفه .

فصل

عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة

اعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي أن يمنع ذلك عن التوبة علماً منه أنه لا فائدة فيه فإن ذلك من غرور الشيطان ، ومن أين له هذا العلم فلعله يموت تائباً قبل أن يعود الى الذنب .
وأما الخوف من العود فليتداركه بتجريد القصد وصدق العزم فإن وفي به فقد نال مطلبه وإلا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها وليس عليه إلا هذا الذنب الذي أحدثه الآن ، وهذا من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة فلا يمنعك خوف العود من التوبة فإنك من التوبة أبداً بين احدي الحسينين : (احدهما) العظمى وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود الى ذنبه في المستقبل : (وثانيتهما) وهي الصغرى غفران الذنوب الماضية وإن لم يمنع العود الى الذنب في المستقبل ، ثم إذا عاد الى الذنب ينبغي أن يتوب عنه دفعة ويتبعه بحسنة لتمحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . والحسنات المكفرة للذنوب إما متعلقة بالقلب وهي الندم والتضرع الى الله والتذلل له واضمار الخير للمسلمين

والعزم على الطاعات ، أو باللسان وهي الاعتراف بالظلم والاساءة وكثرة الاستغفار ، أو بالجوارح وهي أنواع الطاعات والصدقات . وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتمحوها وفي الخبر أن الذنب اذا اتبع بثمانية اعمال كان العفو عنه مرجوآ ، اربعة من اعمال القلوب وهي: التوبة ، أو العزم على التوبة ، وحب الاقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة ، واربعة من اعمال الجوارح ، وهي: أن تصلي عقب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدها سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تصدق بصدقة ، ثم تصوم يوماً ، وفي بعض الاخبار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين ، وفي بعضها تصلي اربع ركعات ، ولا تظن أن الاستغفار باللسان بدون حل عقدة الاصرار لا فائدة فيه أصلاً بل هو توبة الكذابين لما ورد من أن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزى بآيات الله ، لأن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولا فائدة فيه أصلاً هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم المادة وعلى سبيل الغفلة أي ما يكون مجرد حركة اللسان من دون مدخلية للقلب كما اذا سمع شيئاً مخوفاً فيقول على الغفلة استغفر الله ، أو نعوذ بالله من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه ، وأما اذا انضاف اليه تضرع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص رغبة وميل قلبي الى انقلاعه عن هذا الذنب فهي حسنة في نفسها وإن علم أن نفسه الامارة ستعود الى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لأن يدفع بها السيئة ، فلا استغفار بالقلب وإن خلا عن حل عقدة الاصرار لا يخلو عن الفائدة وليس وجوده كعدمه . وقد عرف ارباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية يقينية لا يمتريها ريب وشبهة صدق قوله تعالى : « كَفَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ ثِقَالٍ ذِرَّةً فَخَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ ثِقَالٍ ذِرَّةً شَرًّا

يَرَهُ» (١) وإذا جزموا وقطعوا بأنه لا تخلو ذرة من الخير عن اثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن اثر ، ولو كانت كل شعيرة خالية عن اثر لكان لا يرجح الميزان باجتماع الشعيرات ، فيزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات الى أن يثقل فقل كفة السيئات ، فايك وأن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأنيها وتستحق ذرات المعاصي فلا تنقيها كالمرأة الخرفاء تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد ، وأي غنى يحصل منه وما وقع ذلك في الثياب ، ولا تدري أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً ، وأن اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمع ذرة ذرة ، وربما ترتب على عمل قليل ثواب جزيل فلا ينبغي تحقير شيء من الطاعات ، قال الصادق عليه السلام : « إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث : رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه ، وغضبه في معاصيه فلا تحقروا شيئاً فلعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عبادته فلا تحقروا منهم احداً فلعله ولي الله » فإذا الاستغفار بالقلب حسنة لا يضيع اصلاً بل ربما قيل الاستغفار بمجرد اللسان ايضاً حسنة ، إذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالنظر الى السكوت عنه وإن كان نقصاً بالاضافة الى عمل القلب ، فينبغي ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار ويجتهد في اضافة حركة القلب اليها ويتضرع الى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير .

فصل

علاج الاصرار على الذنوب

اعلم أن الطريق الى تحصيل التوبة والعلاج لحل عقدة الاصرار على الذنوب أن يتذكر ما ورد في فضلها كما مرّ ويتذكر قبـح الذنوب وشدة العقوبة عليها وما ورد في الكتاب والسنة من ذم المذنبين والعاصين ويتأمل في حكايات الانبياء وأكابر العباد وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية بسبب تركهم الأولى وارتكابهم بعض صفات المعاصي وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته كما دلّ عليه الأخبار الكثيرة ويتذكر ما ورد من العقوبات على احاد الذنوب كالزنا والسرقـة والقتل والكبر والحسد والكذب والغيبة وأخذ المال الحرام وغير ذلك من احاد المعاصي مما لا يمكن حصره ، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن احتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا ، ويتذكر خسارة الدنيا وشرف الآخرة وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب ، ولا يغتر بعدم الاخذ الحالي إذ لعله كان من الاملاء والاستدراج . فمن تأمل في جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة البتة ، إذ لو لم ينزعج الى التوبة بعد ذلك فهو إمامعتوه احق ، أو غير معتقد بالمعاد وينبغي أن يجتهد في قلع اسباب الاصرار من قلبه اعني الغرور وحب الدنيا وحب الجاه وطول الأمل وغير ذلك .

فصل

الانابة

اعلم أن الانابة هو الرجوع عن كل شيء مما سوى الله والاقبال على الله تعالى بالسر والقول والفعل حتى يكون دائماً في فكره وذكره وطاعته فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها ، إذ التوبة هو الرجوع عن الذنب الى الله ، والانابة هو الرجوع عن المباحات ايضاً اليه سبحانه ، فهو من المقامات العالية واما نزل السامية قال الله سبحانه : « وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ » (١) وقال سبحانه : « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » (٢) وقال : « وَأُزِلْفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » (٣) وانابة العبد تتم بثلاثة امور: (الاول) أن يتوجه اليه بشرائش باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره (الثاني) ألا يكون خالياً عن ذكره وذكر نعمه ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه (الثالث) أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية.

(١) الزمر الآية ٥٥ .

(٢) المؤمن الآية ١٣ .

(٣) ق الآية ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ .

المحاسبة والمراقبة

﴿ تَذَنِّب ﴾ اعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتها من وجه للاصرار على الذنوب ، ومثلها في كونها من ثمرات الخوف والحب وتعلقها بقوتي الشهوة والغضب وكونها من فضائلها ، فنحن نشير هنا الى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتها وفضيلتها والأعمال التي يتوقف تماميتها عليها في فصول .

فصل

المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة

﴿ المحاسبة ﴾ أن يعين في كل يوم وإيلة وقتاً يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه ، ليعاتب نفسه ، ويقهرها لو جدها في هذا اليوم واليلة مقصرة في طاعة واجبة ، أو مرتكبة لمعصية ، ويشكر الله سبحانه لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية ، ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات المندوبة .

﴿ والمراقبة ﴾ أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائماً حتى لا يقدم على شيء من المعاصي ، ولا يترك شيئاً من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة . هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة ويأتي اعتبار امور واعمال آخر فيه عرفاً .

فصل

حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا

اعلم أن الكتاب والسنة واجماع الأمة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب والمطالبة بمشاقيل الذر من الأعمال والخطرات والالحظات، قال الله سبحانه: « وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يُرْمَى الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَمْوَالَهُمْ مَخْزًى وَمَنْعًا وَمَا يَنْبَغُ لَهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ إِتْرَاءَهُمْ أَنْ يَنْصَرُوا إِلَيْهِمْ فِي الْحَقِّ » (١) وقال: « يَوْمَ يُنْفَخُ الْكِتَابُ وَتُحْشَرُ الْأَنْفُسُ إِلَى رَبِّهَا فَأُخْرِجُوا مِنْهَا فَمَا تَتَجَوَّعُونَ لَهُمْ فَأَوْفَىٰ أُولَئِكَ بِهِمْ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَنْصَرُّونَ وَأَنَّهُمْ لَهُمْ مُّشْفِقُونَ » (٢) وقال: « يَوْمَ يُنْفَخُ الْكِتَابُ وَتُحْشَرُ الْأَنْفُسُ إِلَى رَبِّهَا فَأُخْرِجُوا مِنْهَا فَمَا تَتَجَوَّعُونَ لَهُمْ فَأَوْفَىٰ أُولَئِكَ بِهِمْ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَنْصَرُّونَ وَأَنَّهُمْ لَهُمْ مُّشْفِقُونَ » (٣) وقال: « يَوْمَ يُنْفَخُ الْكِتَابُ وَتُحْشَرُ الْأَنْفُسُ إِلَى رَبِّهَا فَأُخْرِجُوا مِنْهَا فَمَا تَتَجَوَّعُونَ لَهُمْ فَأَوْفَىٰ أُولَئِكَ بِهِمْ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَنْصَرُّونَ وَأَنَّهُمْ لَهُمْ مُّشْفِقُونَ » (٤) وقال: « يَوْمَ يُنْفَخُ الْكِتَابُ وَتُحْشَرُ الْأَنْفُسُ إِلَى رَبِّهَا فَأُخْرِجُوا مِنْهَا فَمَا تَتَجَوَّعُونَ لَهُمْ فَأَوْفَىٰ أُولَئِكَ بِهِمْ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَنْصَرُّونَ وَأَنَّهُمْ لَهُمْ مُّشْفِقُونَ » (٥)

(١) الأنبياء الآية ٤٨ . (٢) المجادلة الآية ٧ .

(٣) الكهف الآية ٤٧ . (٤) الزلزال الآية ٧ - ٨ .

(٥) آل عمران الآية ٣٨ .

لَا يُظَاهَمُونَ» (١) وقال : « قَوُّ رَبِّكَ لَنَسْتَأْذِنَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَمْكُونُ » (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان . وورد بطرق متعددة أن كل أحد في يوم القيامة لا يرفع قدماً عن قدم حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقته . والآيات والأخبار الواردة في محاسبة الأعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقيير والقطمير أكثر من أن تحصى ، وبأزائها أخبار دالة على الأمر بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا ، والترغيب عليها وعلى كونها سبباً للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة وخطره ومناقشته ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب ، وطالبها في الأنفاس والحركات وحاسبها في الخطرات واللمحظات ، ووزن بوزان الشرع أعماله وأقواله خف في القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه ، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، وقادته إلى الخزي سيئاته ، قال الله سبحانه : « وَ لَتَنْظُرُنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » (٣) والمراد بهذا النظر المحاسبة على الأعمال وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا » وقال الصادق عليه السلام : « إذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه فليأس من الناس كلهم ، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله تعالى ، فإذا علم الله تعالى ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلا أعطاه ، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها ، فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة ثم تلا (في يوم كان مقداره

(١) البقرة الآية ٢٨١ . (٢) الحجر الآية ٩٢ .

(٣) الحشر الآية ١٨ .

«خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (١) .

وتفريع المحاسبة على الأمر باليأس عن الناس والرجاء من الله يدل على أن الانسان إنما يرجو الناس من دون الله في عامة أمره وهو غافل عن ذلك وأنّ عامة المحاسبات إنما ترجع الى ذلك ، وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الأمر بمحاسبة النفس يدل على أن الوقفات هناك إنما يكون للمحاسبات ، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوماً فيوماً لم يحتاج الى تلك الوقفات في ذلك اليوم وقال عليه السلام : « لو لم يكن للحساب مهول إلا حياء العرض على الله تعالى ، وفضيحة هتك الستر على الخفيات لحق للمرء ألاّ يهبط من رؤس الجبال ، ولا يأوى الى عمران ، ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلاّ عن اضطرار متصل بالتلف ، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار ، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنه الى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسئول ، قال الله تعالى : « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٢) وقال الكاظم عليه السلام : « ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم ، فإن عمل حسنة استزاد الله تعالى ، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه » وفي بعض الاخبار ينبغي أن يكون للمعاقل اربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه .

(١) الحاقة الآية ٤ . (٢) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة .

فصل

مقامات مرابطة العقل للنفس

اعلم أن العقل بمنزلة تاجر في طريق الآخرة ورأس ماله العمر وقد استعان في تجارته هذه بالنفس فهي بمنزلة شريكه أو غلامه الذي يتجر في ماله ، وربح هذه التجارة تحصيل الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة الموصلة الى نعيم الأبد وسعادة السرمد ، وخسرانها المعاصي والسيئات المؤدية الى العذاب المقيم في دركات الجحيم ، أو نقول رأس مال العبد في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي ، وموسم هذه التجارة مدة العمر ، وكما أن التاجر يشارط شريكه أولاً ، وبراقبه ثانياً ، ويحاسبه ثالثاً ، وإن قصر في التجارة بالخيانة والخسرات وتضييع رأس المال يعاقبه ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة ، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس الى أن يرتكب هذه الأعمال ، ومجموع هذه الأعمال يسمى بالحاسبة والمراقبة تسمية الكل باسم بعض أجزائه ، وقد يسمى مرابطة ايضاً ، فأول الأعمال في المرابطة (المشاركة) وهي أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرة ألا يرتكب المعاصي ، ولا يصدر منها شيء يوجب سخط الله ، ولا يقصر في شيء من الطاعات الواجبة ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل . والاولى أن يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها فيخاطب النفس ويقول لها ، يا نفس مالي بضاعة سوى العمر ومهما فني فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد وقد أمهلني الله فيه بعظيم لطفه ، ولو توقفت لكنت

أتمنى أن يرجعني الى الدنيا يوماً واحداً لأعمل صالحاً ، فاحسبي أنك توفيت ثم رددت فأتيك أن تضيعي هذا اليوم ، فإن كل نفسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمها أبد الآباد ، ويتذكر ما ورد في بعض الأخبار من أن كل عبيد خلقت له بأزاء كل يوم وليلة من عمره اربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فإذا مات تفتح له هذه الخزائن ، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها ، فإذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي أطاع الله فيها يراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة ، فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وُزِعَ على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بألم النار ، وإذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي عصى الله فيها يراها سوداء مظلمة يفوح نذنها ويتغشا ظلامها ، فيناله من الهول والفرع ما لو قسم على أهل الجنة لينقص عليهم نعيمها ، فإذا فتحت له خزانة بأزاء الساعة التي نام فيها ، أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه ، وهكذا يعرض عليه بعد ساعات عمره الخزائن ، وعند ذلك يتحسّر العبد على أهله وتقصيره ويناله من الغبن ما لا يمكن وصفه ، وبعد هذا التذكّر يخاطب نفسه ويقول : اجتهد في اليوم في أن تعمري خزائنك ، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ، ولا تركني الى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العالين ما يدركه غيرك فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة إن دخلت الجنة ، إذ ألم الغبن والحسرة والنحطاط الدرجة مع وجود ما فوقها من الدرجات الغير المتناهية التي نال اليها أبناء نوعك مما لا يطاق ، ثم يستأنف لها وصية في أعضائه السبعة أعني العين والأذن واللسان والفرج والبطن واليد والرجل ، ويسلمها اليها لأنها

رعيا خادمة لها في التجارة ، ولا يتم أعمال هذه التجارة إلا بها ، فيوصيها بحفظ هذه الأعضاء عن المعاصي التي تصدر عنها ، وبأعمال كل منها فيما خلق لأجله ، ثم يوصيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة وبالنوافل والخيرات التي تقدر عليها ، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم ، لكن إذا اعتادت النفس بتكرار المشاركة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحفظها استغنى عن المشاركة فيها ، وإن اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة إلى المشاركة فيه وبقيت الحاجة إليها في الباقي ، وكل من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس أو أمثال ذلك لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد ، وواقعة حادثة لها حكم جديد ، والله عليه فيها حق ، فعليه أن يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والالتقياد للحق في مجاريها . وينبغي أن يوصيها بالتدبر في عاقبة كل امر يرتكبه في هذا اليوم والليلة ، وهذه الوصية عمدة الوصايا ورأسها ، وقد روي أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وقال يا رسول الله أوعني فقال له : « فهل أنت مستوص إن أنا أوصيتك ، حتى قال له ذلك ثلاثاً وفي كلها يقول الرجل نعم يا رسول الله فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله « إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن يك راشداً فامضه ، وإن يك غيياً فأنته » . ويظهر من هذا الخبر أن التأمل في عاقبة كل أمر أعظم ما يحصل به النجاة فينبغي أن يؤكد العهد والميثاق في ذلك على النفس ، ويحذرها عن الإهمال ، ويبيظها كما يوعظ العبد المتمرد الآبق ، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، فهذا وما يجري مجراه هو المشاركة وهو أول مقامات المرابطة .

وثانيها « المراقبة » وهو أن يراقب نفسه عند انطواء في الأعمال فيلاحظها بالعين السائلة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت ، ثم يراقب الله في كل حركة وسكون بأن يعلم أن الله تعالى مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على أعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب في حقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشارة للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك ، قال الله سبحانه : « إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَىٰ عِلْيَيْكُمْ رَقِيبًا » (١) وقال : « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ » (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وفي الحديث القدسي : « إنما يسكن جنات عدن الذين إذا همسوا بالمعاصي ذكروا عظمي فراقبوني ، والذين انحنى أصلاهم من خشيتي ، وعزني وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض ، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب » وحكي أن زليخا لما خلت بيوسف فقامت وغطت وجه صنمها فقال يوسف : « مالك أتعجبين من مراقبة جماد ولا أستحيي من مراقبة الملاك الجبار » . وهذه المعرفة أعني معرفة اطلاع الله على العباد وأعمالهم وسرائرهم وكونه رقيباً عليهم إذا صارت يقيناً أي خلت عن الشك ثم استولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهممة إليه ، والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين : (أحدهما) مراقبة المقربين وهي مراقبة التعظيم والاحلال ، وهي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة الجلال ، ومنكسراً تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير ، وهذا هو الذي صار همه هما واحداً ، وكفاه الله سائر الهموم ، (وأخرهما) مراقبة الورعين من أصحاب اليمين ، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله على ظهورهم

وبواطنهم ، ولكن لا تدهشهم ملاحظة الجلال والجمال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات الى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها ، وغلب عليهم الحياء من الله ، فلا يقدمون ولا يجمحون إلا بعد التثبت ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله مطلباً عليهم ، فلا يحتاجون الى انتظار القيامة ثم ينبغي للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها .

وحالاته لا تخلو عن ثلاثة لأنه إما أن تكون في طاعة أو معصيته أو مباح فراقبته في الطاعة بالقربة والاخلاص والحضور والاكمال وحراستها عن الآفات ومراعاة الأدب ، ومراقبته في المعصية بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتكفير ، ومراقبته في المباح بمراعاة الأدب بأن يأكل بعد التسمية وغسل اليدين وسائر الآداب المقررة في الشرع للأكل ، ويقعد مستقبل القبلة ، وينام بعد الوضوء على اليد اليمنى مستقبل القبلة ، وبالصبر عند ابتلائه ببليّة ومصيبة ، وبالشكر عند كل نعمة ، ويتذكر شهود المنعم وحضوره ، ويكف النفس عن الغضب وسوء الخلق عند حدوث أمر تميل النفس عنده الى الغضب ، والتضجر والتكلم بما لا يحسن من الأقوال ، فإن لكل واحد من أفعاله وأقواله حدوداً لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . وينبغي ألا يخلو عند اشتغاله بالمباحات عن عمل هو الأفضل كالدكر والفكر وتخليص النية فإن الطعام الذي يتناوله من عجائب صنع الله فلو تفكر فيه وتدبر في فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح ، والناس عند الأكل على أقسام : (قسم) ينظرون فيه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام

الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك وهؤلاء هم اولو الأسباب . (وقسم) ينظرون فيه بعين المقت والسكرامة ، ويلاحظون وجه الاضطراب اليها ، ويتمنون الاستغناء عنه وعدم كونهم مقهورين مسخرين بشهوته وهؤلاء هم الزهاد : (وقسم) يرون فيه خالفه ، ويشاهدون في صنع الصانع ، ويترقون منه الى صفات الخالق من حيث إن كل معاول اثر من العلة ، ورشحة من رشحات ذاته وصفاته ، فشاهدته تذكر العلة ، بل التأمل يرشدك الى أن دلالة كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك وخالقك ، وإيجابها لحضوره عندك وظهوره لديك وتوجهه اليك وقربه منك أشد وأقوى من دلالة مشاهدتك بدن زيد وصورته وحرركاته وسكناته على وجوده وحضوره عندك وسر ذلك ظاهر واضح . وهؤلاء المشاهدون الصانع في كل مصنوع ، والخالق في كل مخلوق هم العرفاء المحبون ، إذ الحب إذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره وما ينتسب اليه اشتغل قلبه بالمحبوب ، وكل ما يتردد العبد فيه وينظر اليه من الموجودات هو صنع الله تعالى فله في النظر منها الى الصانع مجال إن فتحت له أبواب الملكوت : (وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة وليس نظرهم الى الطعام إلا من حيث يوافق شهوتهم ، وتلتذ به ذائقهم ، ولذلك يذمون له لو لم يوافق هواهم وهؤلاء أكثر أهل الدنيا .

* * *

(وثالثها) أي ثالث مقامات المراقبة واعمالها هو (المحاسبة) بعد العمل فإن العبد كما يختار وقتاً في أول كل يوم ليشارط فيه النفس على سبيل التوصية بالحق ينبغي له أن يختار وقتاً في آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به ،

ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في آخر كل سنة مع الشركاء وهذا أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب في يوم القيامة ، وقد ورد في الأخبار أن العاقل ينبغي أن يكون له أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر في صنع الله ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب ، ولذلك كان الصدر الأول من الخائفين ومن تقدّمنا من سلفنا الصالحين في غاية السعي والاهتمام في محاسبة النفس بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، ويعتقدون أن العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه أم من محاسبة شريكه ، وأن من لا يحاسب نفسه إما معتوه أحق ، أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة ، إذ العاقل المعتقد به مع أهواله وشدائده وما يوجبه من الخجلة والحياء والافتضاح إذا علم أن محاسبة النفس في الدنيا تقطه ، أو توجب خفته كيف يجوز له أن يتركها .

ثم كيفية المحاسبة بعد العمل أن يطالب نفسه أولاً بالفرائض التي هي بمنزلة رأس ماله ، فإن أدتها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أدتها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها واستوفى منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه ، وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها ، كذلك ينبغي أن يفتش عن أفعال النفس ويضيق عليها وليتق غائلتها وحيلتها فإنها خداعة مكاراة ملبسة ، فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل أن يتولاه غيره في صعيد

القيامة ، ثم بتصحيح الجواب عن جميع أفعاله وأحواله من نظره وقيامه وقعوده ونومه وأكله وشربه حتى عن سكوته لم سكت ، وعن سكونه لم سكن ، وعن خواطره وأفكاره وصفاته النفسية وأخلاقه القلبية ، فإن خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع بحيث أدت الحق في الجميع ولم تترك شيئاً مما يجب عليها ولم ترتكب شيئاً من المعاصي حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم ولم يكن شيئاً باقياً عليها ، وإن أدت الحق في البعض دون البعض كان قدر ما أدت الحق فيه محسوباً لها ويبقى غيره باقياً عليها فيثبتة عليها ، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وعلى جريدته . ثم النفس غريم يمكن أن تستوفي منها الديون أما بعضها فبالإفراقة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقق الحساب وتميز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء .

* * *

(ورابعها) وهو آخر مقامات المراقبة (معاتبة النفس) ومعاقبتها على تقصيرها ، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة ، وإلزامها الرياضات الشديدة فإنه إذا حاسب نفسه فوجد لها خائنة في الأعمال مرتكبة للمعاصي مقصرة في حقوق الله متوانية بحكم الكسل والبطالة في شيء من الفضائل فلا ينبغي أن يهملها إذ لو أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وانس بها بحيث عسر بعد ذلك فطامها عنها . فينبغي للماقل أن يعاتبها أولاً ، ويقول : أف لك يا نفس هلكتني وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والأشرار ، فيا إيتها النفس الأمارة الخبيثة أما تستحيين وعن عيبك لاتنتهين ، فما اعظم جهلك وحقاقتك ، أما تعرفين أن بين يديك

الجنة والنار وانت صائرة الى احدهما عن قريب ، فما لك تضحكين وتفرحين
وباللهو والعصيان تشتغلين ، أما علمت أن الموت يأتي بغتة من غير اخبار وهو
أقرب اليك عن كل قريب ، فما لك لا تستعدين له ، أما تخافين من جبار السماوات
والأرض ، ولا تستحيين منه تعصين بحضرتة وأنت عالمة بأنه مطلع عليك ،
ويحك يا نفس جري على معصية الله إن كانت لا اعتقادك أنه لا يراك فما اعظم
كفرك ، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك ، وأقل حياؤك
وما أعجب نفاقك ، وكثرت دعاويك الباطلة فإنك تدّعين الايمان بلسانك ،
وأثر النفاق ظاهر عليك ، فتنبهي عن رقبتك وخذي حذرک ، لو أن يهودياً
أخبرك في الدّ اطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركته ، ولو أخبرك طفل بعقرب
في ثوبك نزعته ، فقول الله وقول انبيائه المؤيدين بالمعجزات وقول الاولياء
والحكماء والعلماء أقل تأثيراً عندك من قول يهودي أو طفل ، فلا يزال يكرر
عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات والمعاتبات ، ثم يماقبها ويلزمها ما يشق
عليها من وظائف العبادات والتصدق بما يحبه جبراً لما فات منها وتداركاً لما فرط
فيها ، فإذا أكل لقمة مشتبهة ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر الى
غير محرم يعاقب العين بمنع النظر ، وإذا اغتاب مسلماً يعاقب اللسان بالصمت
والذكر مدة كثيرة ، وكذلك يعاقب كل عضو من اعضائه إذا صدرت منه معصية
يمنعه من شهواته ، وإذا استخف بصلاة ألزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائها
وآدابها ، وإذا استهان بفقير اعطاه صفو ماله ، وهكذا الحال في سائر المعاصي
والتقصيرات .

وطريق العلاج في إلزام النفس بعد تقصيرها في العمل على هذه العقوبات
وربطها على تلك الطاعات الشاقة والرياضات أمران : (الأول) تذكر ما ورد

في الأخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها ، والاجتهاد في الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات ، قال الصادق عليه السلام : « طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهوواه ، ومن هزم جند هواه ظفر برضى الله ، ومن جاوز عقله نفسه الامارة بالسوء بالجهد والاستسكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزاً عظيماً ، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى وليس لقتلها وقطعها سلاح وآلة مثل الافتقار الى الله ، والخشوع والجوع والظما بالنهار ، والسهر بالليل ، فإن مات صاحبه مات شهيداً ، وإن عاش واستقام اداه عاقبته الى الرضوان الاكبر ، قال الله عز وجل : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين » ، وإذا رأيت مجتهداً ابلغ منك في الاجتهاد فوبخ نفسك ولها وعيها تحيثاً على الازدياد عليه ، واجعل لها زمماً من الامر ، وعناً من النهي ، وسفهاً كالرايض للفارة الذي لا يذهب عليه خطوة من خطواته إلا وقد صح اولها وآخرها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي حتى تورمت قدماه ويقول : أفلا أكون عبداً شكوراً . أراد أن يعتبر به امته فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال . ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله ورأيت بركاتها واستضأت بنورها لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت ارباً ارباً ، فما اعرض عنها من اعرض إلا بحرمان فوائد السلف من العزيمة والتوفيق » (١) قيل لربيع بن خثيم : مالك لا تنام بالليل قال : « لأنني اخاف البيسات » والأخبار الواردة في فضل السعي والاجتهاد ومخالفه النفس والهوى اكثر من أن تحصى .

(١) الحديث بطوله مروي عن [مصباح الشريعة] . باب ٨١ ، ص ١٨٤

مع اختلاف يسير هنا فصحيحناه عليه كما كان هناك .

(الثاني) : مصاحبة أهل السعي والاجتهاد في العبادة ، ومجالسة المجاهدين المرئاضين الذين لا ينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات ، وإلزام نفوسهم على ضروب النكاح والعقوبات ، فلا لحظة احوالهم ومشاهدة أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وافعالهم حتى قال بعضهم : « إذا عترتني فترة في العبادات نظرت الى بعض العباد واجتهاده في العبادة فكنت بعد ذلك اعمل اسبوعاً ما إلا أن ذلك غير مرجو في أمثال زماننا ، إذ لم يبق في عباد الله من يجتهد في العبادة اجتهاد الأوائل ، وليس فينا من تقرب عبادته عبادة ادنى رجل من سلفنا الصالحين . فينبغي أن يعمل من المشاهدة الى سماع احوالهم ، ومطالعة حكاياتهم واخبارهم ، ومن لاحظ حكاياتهم وسمع احوالهم واطلع على كيفية اجتهادهم في طاعة الله يعلم أنهم عباد الله واحباؤه وأنهم ملوك الجنة ، قال بعض اصحاب امير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : صلينا خلفه الفجر فلما سلم انتقل الى يمينه وعليه كآبة فكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال : « والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وما أرى اليوم شيئاً شبيهم ، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً فقد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله عز وجل ، يراوون بين أقدامهم وجباههم ، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين » ، وكان اويس القرني يقول في بعض الليالي : « هذه ليلة الركوع » فيحيي الليل كله في ركعة ويقول في بعضها : « هذه ليلة السجود » فيحيي الليل كله في سجدة وقال ربيع ابن خثيم : « أتيت اويساً فوجدته جالساً قد صلى الفجر فجلست موضعاً وقلت لا أشغله عن التسبيح فكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب . ثم ثبت حتى صلى العشاء . ثم ثبت مكانه

حتى صلى الصبح ، ثم جلس فقلبته عيناه فقال : اللهم إني أعوذ بك من عين
 نومة وبطن لا يشبع » وروي أن رجلاً من العباد كآتم امرأة ووضع يده على
 فخذهما ثم ندم فوضع يده في النار حتى نشت (١) عقوبة لها ، وبعضهم نظر إلى امرأة
 فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار
 لينقص على نفسه العيش ، ومر بعضهم بفرقة فقال : متى بنيت هذه الفرقة ثم أقبل
 على نفسه وقال : تسألين عما لا يعينك لا عاقبتك بصوم سنة فصامها . وروي أن
 أبا طلحة الأنصاري شغل قلبه في الصلاة طين في الحائطة فتصدق بالحائطة
 جبراً لما فاتته من الحضور في الصلاة ، وكان بعضهم اعتلت إحدى قدميه فيصلي
 على قدم واحدة حتى يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وكان بعضهم يقول : « ما أخاف
 من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين صلاة الليل » ، وحكى رجل أنه نزل بعض
 أهل الله عندنا بالمحصب (٢) وكأن له أهل وبنات ، وفي كل ليل يقوم ويصلي إلى
 السحر . فإذا كان السحر ينادي بأعلى صوته أيها الركب المعرسون (٣) اكل هذا
 الليل تسامون ، فكيف ترحلون . فيسمع صوته كل من كان بالمحصب ، فيتواثبون
 بين باك وداع ، وقارئ ومتوضئ ، وإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح
 يحمدا القوم السرى . وهكذا كان عمل عمال الله ، وسلوك سالكى طريق الآخرة
 وحكاياتهم غير محصورة خارجة عن الإحصاء اشرنا إلى النموذج منها ليعلم الطالبون
 كيفية سيرة الرجال في مراعاة النفس ومراقبتها ، ويعلمون أن عباد الله ليسوا

(١) النشيش صوت غليان الماء . (٢) المحصب : بالمهملةين وضم

الميم وتشديد الصاد موضح بمكة على طريق منى ويسمى بطحاء .

(٣) التعريس : نزول المسافرين آخر الليل للنوم والاستراحة من قولهم :

عرس القوم .

امثالنا بل هم قوم آخرون ، قال بعض الحكماء : « يا ابن الله عباداً انعم عليهم فمرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر اليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتاً للحكمة ، وتوايت للعظمة ، وخزانة للقدرة ، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت ، وتلوز (٣) بحجب الغيوب ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ما لا يمكن لواصل أن يصفها ، فهم في باطن امورهم كالديباج حسناً ، وفي الظاهر مناديل مبدولون لمن أرادهم تواضعاً ، وطريقة لهم لا يبلغ اليها بالتكاف وإنما هو فضل الله يوتيهِ من يشاء . فهلك يا حبيبي بمطالعة أحوالهم وحكاياتهم ، لينبث نشاطك وتزيد رغبتك ، وإياك أن تنظر الى اهل عصرك ، وامرئ قل في أمثال زماننا من يذكر الله رؤيته ، ويعينك في طريق الدين صحبتته ، فإن تطع أكثر من في بلدك وعصرك يضلوك عن سبيل الله .
(ومنها) :

الغفلة

وهي فتور النفس عن الالتفات والتوجه الى ما فيه غرضها ومطلبها ، إما عاجلاً أو آجلاً ، وضدها النية وترادفها الارادة والقصد ، وهي انبعاث النفس وميلها وتوجيهها الى ما فيه غرضها ومطلبها حالاً أو مآلاً ، والموافق لغرض النفس إن كانت خيراً لها وسعادة في الدنيا أو الدين فالغفلة عنه وعدم انبعاث النفس الى تحصيله رذيلة ، والنقصان والنية له والقصد اليه فضيلة وكمال ، وإن كان شراً وشقاوة فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة ، والنية له وارادته رذيلة

(١) قال في القاموس اللوز بالزاي الملاذ والمليجاء

ثم باعث النفس على النية أو الغفلة والسكف إن كان من القوة الشهوية كانت النية أو الغفلة متعلقة بها فضيلة أو رذيلة ، وإن كان من قوة الغضب كانت النية أو الغفلة متعلقة بهذه القوة كذلك ، فالنية والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية وعلى دفع كافر يؤذي المسلمين متعلقة بقوة الغضب ، والنية في العبادات مع انضمام التقرب اليها تسمى إخلاصاً ، ثم المتبادر من الموافق للفرض والمطلوب لما كان ما هو كذلك عند العقلاء وأرباب البصيرة فيكون المراد منه ما هو مرغوب ومطلوب في نفس الأمر وما تحصيله خير وسعادة ، وبهذا الاعتبار تكون الغفلة باطلاً مضمومة ، والنية ممدوحة ، فلو ذمت الغفلة باطلاً مضمومة ، ومدحت النية كذلك كان بهذا الاعتبار ، والآيات والأخبار الواردة في ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار كما وصف الله الغافلين وقال « إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » (١) وقال : « أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » (٢)

﴿ تنبيه ﴾ الغفلة بالمعنى المذكور أعظم من أن يكون فتور النفس وخمودها عن الانبعاث إلى ما يراه موافقاً للفرض مع الجهل بالموافق والملائم ، أو مع العلم به ومع النسيان عنه ، أو مع التذكر له ، وربما خص في عرف أهل النظر بصورة الذهول وعدم التذكر ، ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام ، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات

تقديم

الفغلة موجبة للحرمان

الفغلة والكسالة عما ينبغي تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان عن سمادة الدارين ، وتؤدي الى شقاوة المنشأين ، إذ الإهمال في رعاية أمر المعيشة ومصالحها يؤدي الى هلاكة الشخص وانقطاع النوع ، والفغلة عن اكتساب المعارف والأخلاق الفاضلة وعن اداء الفرائض والنوافل تنجر الى ابطال غاية الابداع اعني بلوغ كل شخص الى كماله المستعمله ، وهو مع كونه صريح المضادة والمنازعة لخالق العباد يوجب الهلاكة والشقاوة أبد الآباد .

وصل

ضد الفغلة النية - تأثير النية على الاعمال - النية روح الاعمال والجزاء بحسبها - عمادة الاحرار والاجراء والعبيد - نية المؤمن خير من العمل - النية غير اختيارية - الطريق في تخليص النية .

قد عرفت أن ضد الفغلة النية وهي انبعاث النفس وتوجهها الى ما يراه موافقاً لغرضها ، وقد عرفت ايضاً أن النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهي واسطة بين العلم والعمل ، إذ ما لم يعلم أمر لم يقصد ، وما لم يقصد لم يفعل ، فالعلم مقدم على النية وشرطها والعمل ثمرتها وفرعها ، إذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فإنه لا يتم إلا بعلم وشوق وارادة وقدرة ، إذ كل انسان خلق بحيث يوافق بعض الامور ويلأثم غرضه ، ويخالفه بعض الامور

فاحتاج الى جلب الموافق ودفع المخالف المنافي ، وهو موقوف على ادراك الملائم
 النافع ، والمنافي الضار ، إذ ما لم يعرف الشيء لم يعقل طلبه أو الهرب عنه وهو
 العلم ، وعلى الملل والرغبة والشهوة الباعثة عليه وهو الشوق ، إذ من أدرك الغذاء
 أو النار لا يكفيه ذلك للتناول والهرب ، ما لم يكن شوق الى التناول والهرب ،
 وعلى القصد والشرع والتوجه اليه وهو النية ، إذ كم مشاهد للطعام راغب
 فيه شائق اليه لا يريد لكونه مؤذياً أو حراماً أو لعذر آخر ، وعلى القدرة
 المحركة للأعضاء اليه أي الى جلب الملائم أو دفع المضار وبها يتم الفعل ، فهي
 الجزء الأخير لآلة التامة التي بها يتم فعل الفاعل المختار ، فالأعضاء لا تتحرك
 الى جانب الفعل ولا توجد إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر النية ، والنية تنتظر
 الداعية الباعثة اعني الشوق ، والشوق ينتظر العلم أو الظن بكون ما يفعل
 موافقاً له ، فإن كان الشوق صادراً عن القوة البهيمية بأن يكون الفعل مما تقتضيه
 هذه القوة كأكل وشرب وجماع وكسب مال وأمثال ذلك من الالتذات
 الشهوية كانت النية والقصد أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو
 رذائلها ، وإن كان مما تقتضيه القوة السبعية من دفع مؤذ أو طلب الاستعلاء
 أو تفوق وأمثال ذلك كانت النية أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها
 أو رذائلها . وقد ظهر بما ذكر أن المحرك الأول هو الغرض المطلوب اعني المقصود
 المادي بعد تعلق العلم به وهو الباعث الأول ، وينبعث منه الشوق وهو الباعث
 الثاني ، ويتولد منه القصد والنية وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعث
 لانتهاضها على تحريك الأعضاء الى جانب العمل .

فصل

تأثير النية على الأعمال

العمل غرضه الباعث أي باعته الأول إما واحد كالقيام للأكرام ، أو لله رب من السبع المتهمم عليه ، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعية متساوياً أو متفاوتاً كالصدق للفقير والقرابة بالنظر إلى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سبباً للاعطاء ، أو بدون استقلال واحد لو انفرد ، بل المستقل المجموع كالمثال المذكور بالنظر إلى من يعطي ماله قريبه الفقير ويمتنع عند الانفراد أي لا يعطيه قريبه الغني ، ولا الأجنبي الفقير ، أو مع استقلال بعض دون بعض بأن يكون للشأن تأثير بالاعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل ، ثم يتعدد الجزء بتعدد البواعث إن خيراً فخير كالدخول في المسجد لزيارة الله ولا انتظار الصلاة والاعتكاف والازواء والتجرد المذكور ، وترك الذنوب وملاقة الاتقياء واخوانه المؤمنين ، واستماع المواعظ واحكام الدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن شراً فشر كالعود فيه للتحديث بالباطل ، وملاحظة النساء والمناظرة للمباهاة والمراءاة ، وربما كانت بعض البواعث خيراً وبعضها شراً كالصدق للثواب والرياء ، ودخول المسجد لبعض البواعث الأوكل ، وبعض البواعث الثانية ، والعمل الذي باعته من هذا القسم قد ظهر حكمه في باب الاخلاص ، ثم باعث العمل المباح إن كان خيراً بجعله عبادة كالنطيب يوم الجمعة لاقامة السنة ، وتعظيم المسجد واليوم ، ودفع الأذى بالنتن ، والأكل لقوة العبادات ، والجماع للولد ، وتطبيب خاطر الزوجة ، والترفيه بنومة

أودعابة مباحة لرد نشاط الصلاة ، وإن كان شراً بجملة معصية كالتعطيل للتفاخر
بإظهار الثروة ، والتزين للزنا ولا يؤثر في الحرام فلا يباح شرب الخمر لموافقة
الأقران والأخوان ، فالمماصي لا تتغير موضوعاتها بالنية بخلاف الطاعات والمباحات
فإنها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات ، وبالفاسدة تصير أعظم المهلكات ،
فإن أعظم خسران من يغفل عن النية ، ويتماطل الأعمال تعاطي البهائم المهمل
على قصد حفظ النفس ، أو على السهو والغفلة وقد كانت غاية سعي السلف أن
يكون لهم في كل شيء نية صحيحة حتى في أكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء .
ولا ريب في إمكان تصحيح النية في كل مباح بحيث يترتب عليه
الثواب بل يمكن تصحيح النية في كل نقصان مالي وعرضي ، فإن من تلف
له مال فإن قال هو في سبيل الله كان له أجر ، وإن سرقة أحد أو غصبه يمكن أن
ينوي كونه من ذخائر الآخرة ، وإذا بلغه اغتياب غيره له فيمكن أن يطيب
خاطره بأنه سيجعل عليه سيئاته وينقل إلى ديوانه حسناته ، فأياك أن تستحق
شيئاً من نياتك وخطرات قلبك ولا تقدم على عمل إلا بنية صحيحة ، فإن
لم تخطر النية توقف ، إذ النية لا تدخل تحت الاختيار ، وقد قيل : « إن
من دعى أخاه إلى طعام بدون رغبة باطنة في إجابته ، فإن أجابه فعليه وزران :
النفاق وتعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه ، وإن لم يحبه ولم يأكل فعليه وزر واحد .
هو النفاق ، فلا بد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون لأنه إذا لم يكن
كذلك كان غافلاً ، والغافلون قد وصفهم الله تعالى فقال : « إن هم إلا كالأنعام
بل هم أضل سبيلاً » وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم ، قال الصادق
عليه السلام : « صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم لأن سلامة القلب
من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الأمور كلها ، قال الله عز وجل :

يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الأوقات الإيمان في معنى قوته وضعفه ، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه مقهورتان تحت سلطان تنظيم الله تعالى وأفعاله منه ، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه ، في أمب ، والناس منه في راحة « (١)

فصل

النية روح الأعمال وأجزاء بحسبها

النية روح الأعمال وحقيقتها ، وأجزاء يكون حقيقة عليها ، فإن كانت خالصة لوجه الله تعالى كانت ممدوحة وكان جزاؤها خيراً وثواباً ، وإن كانت مشوبة بالأغراض الدنيوية كانت مذمومة وكان جزاؤها شراً وعقاباً ، قال الله سبحانه : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » (٢) والمراد بالارادة النية لترادفهما كما تقدم وأوحى الله الى داود : « يا داود لا تطاول على المرئيين ولو علم أهل محبتي منزلة المرئيين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها ، يا داود ائن تخرج مریداً من كربة هو فيها تستعده كتبته عندي حميداً ومن كتبته حميداً لا يكون عليه وخشة

(١) هذا بعض الحديث المذكور في مصباح الشريعة . الباب الرابع

ص ١٣٥ وفي البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر . باب النية

وشرائطها ومراتبها ص ٧٧ لكن المذكور في البحار فيه اختلاف يسير عما

في المصباح فمصباحنا على البحار لكون المذكور في البحار أصبح مما في

المصباح . (٢) الانعام الآية ٥٢

ولافاقة الى المحلوقين » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » وإنما قال ذلك حين قيل له إن بعض المهاجرين الى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة الا أخذ الغنائم من الأموال والسبايا أو نيل الصيت عند الاستيلاء فبين صلى الله عليه وآله : أن كل أحد ينال في عمله ما يرغبه ، ويصل الى ما ينويه كائنًا ما كان دنيويًا كان أو أخرويًا ، وهذا الخبر مما يعمده المحدثون من المنواترات وهو أول ما يعلمونه اولادهم وكانوا يقولون انه نصف العلم ، وقال صلى الله عليه وآله : « ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ، وإنما ينظر الى القلوب لأنها مظنة النية » ، وقال صلى الله عليه وآله : « ان العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة فيصحف مختومة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول : اتقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بما فيها وجهي ، ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون : يا ربنا انه لم يعمل شيئاً من ذلك فيقول الله تعالى : انه نواه » وقال صلى الله عليه وآله : « الناس اربعة رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الوزر سواء ، ألا ترى كيف شاركه بالنية في محاسن عمله ومساويه » ولما خرج صلى الله عليه وآله الى غزوة تبوك قال : « ان بالمدينة اقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطأنا موطئاً يغيظ الكفار ولا انفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة الا شاركونا في ذلك وهم في المدينة » قالوا وكيف ذلك

يا رسول الله وليسوا معنا فقال : « حسبهم العذر فشاركونا بحسن النية » وفي الخبر أن رجلا من المسلمين قُتل في سبيل الله بأيدي بعض الكفار وكان يدعى بين المسلمين قتيل الحمار لأنه قاتل رجلا من الكافرين نية أن يأخذ حماره وسأله فقتل على ذلك فاضيف إلى نيتيه ، وهاجر رجل إلى الجهاد مع اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وكانت نيتيه من المهاجرة أن يأخذ امرأة كانت في عصاكر الكفار ويتزوجها وتسمى أم قيس فاشتهر هذا الرجل عند اصحاب النبي بمهاجر أم قيس ، وفي أخبار كثيرة : « من هم بحسنة ولم يعملها كتب له حسنة » كما تقدم ، وقد ورد أنه إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل في النار وكذا المقتول لأنه أراد قتل صاحبه وقال صلى الله عليه وآله : « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم : فلان يقاتل للدنيا ، فلان يقاتل حمية ، فلان يقاتل عصبية ، ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله إلا لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا » وقال صلى الله عليه وآله : « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي اداءه فهو زان ، ومن استدان ديناً وهو لا ينوي قضاؤه فهو سارق ، ومن تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة » (١) وكل ذلك مجازاة على حسب النية ، وقال الصادق عليه السلام : « إن العبد المؤمن الفقير ليقول يا رب ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير فإذا علم الله عز وجل ذلك منه بصدق النية كتب له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله ، إن الله واسع كريم » وسئل عليه السلام عن حد العباداة التي إذا فعلها فاعلمها كان مؤدياً فقال : « حسن النية

(١) صحيحنا النبويات كلها على احياء العلوم ج - ٤ . باب فضيلة النية

بالطاعة » وقال عليه السلام : « وإنما أُخِلُّد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو أُخِلُّدوا فيها أن يعصوا الله تعالى ابداً ، وإنما أُخِلُّد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً فبالنيات أُخِلُّد هؤلاء وهؤلاء ، ثم تلى قوله تعالى : **قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكْرٍ** قال : على نيته « (١) وأمثال هذه الأخبار أكثر من أن تحصى ، وأي شبهة في أن عماد الأعمال النيات والعمل مفتقر الى النية ليصير خيراً ، والنية في نفسها خير وأن تعذر العمل ، وعون الله تعالى للعبد على قدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، وإن نقصت نقص بقدره ، فرب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية ، ولذلك كان السلف يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل ، ونقل أن بعض المريدين يطوف على العلماء ويقول : **« من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فأني لا أحب أن تأتي علي ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله تعالى »** فقال له بعض العلماء : **« أنت قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فاذا فترت أو تركته فهم بعمله »** إذ من ثم يعمل الخير كمن يعمل به . ثم السر في مجازاة الأعمال على حسب النية ، وكون النية حقيقة العمل وعماداً وروحاً له إن العمل من حيث هو عمل لا فائدة فيه ، وإنما فائدته للأثر الذي يصل منه الى النفس من النورانية والصفاء ، ولا يزال يتكرر وصول هذا الأثر من الأعمال اليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء ، فيحصل لها التجرد التام وينخرط في سلك الملائكة ، ولا ريب في أن وصول هذا الأثر من الأعمال إنما هو مع صحة النية وخواصها وكونها لله سبحانه من دون شوب الأغراض ، بل التأمل يعطي أن هذا الأثر

(١) صحيحنا الاخبار كلها على اصول الكافي الجزء الثاني . باب النية .

إنما هو حقيقة من محض النية وإن كانت حادثة لأجل العمل .

فصل

عبادة الأحرار والاجراء والعبيد

قد ظهر مما ذكر أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الاجر في الآخرة إلا ما يراد به التقرب الى الله والدار الآخرة أي يراد به وجهه الله من حيث هو من دون غرض آخر من الأغراض الدنيوية ، أو يراد به التوصل الى ثوابه ، أو الخلاص من عقابه ، فمن أراد بعبادته محض وجهه الله واخلصها له لكونه أهلاً للعبادة ولحبه له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله فاحبه واشتاق اليه ، ولا يريد سواه ، ولا يتبهج بغير حبه وانسه والاستغراق في لجة شهوده فيفرح بعبادته وتوحيه قلبه اليه بطاعته ، فجزاؤه أن يحبه الله ويحببيه ويقربه الى نفسه وبدنه قرباً معنوياً ودنوياً روحانياً كما قال في حق بعض من هذا صفته : « وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ » (١) وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك لكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب نظراً الى أنه لم يعرف من الله سوى كونه إلهاً صانعاً للعالم قادراً قاهراً عالماً ، وأن له جنة ينعم بها المطيعين ، وناراً يعذب بها العاصين ، فعبدته ليفوز بجنته أو يتخلص من ناره ، فجزاؤه بمقتضى نيته أن يدخله جنته ، وينجيّه من ناره لأن جزاء الأعمال على

حسب النيات كما أخبر الله تعالى عنه في غير موضع من كتابه ، فإن لكل امرئ ما نوى ، ولا تصغ الى قول من ذهب الى بطلان العبادة اذا قصد بفعلها الثواب أو الخلاص من العقاب زعماً منه أن هذا القصد منافي للاخلاص الذي هو ارادة وجه الله وحده ، وأن من قصد ذلك إنما قصد جلب النفع الى نفسه ، ودفع الضرر عنها لا وجه الله سبحانه ، فإن هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها ، بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها ، فإن حقيقة النية عبارة من انبعاث النفس وميلها وتوجهها الى ما فيه غرضها ومطلبها ، إما عاجلاً أو آجلاً ، لا مجرد قول الناصي عند العبادة أفعل كذا قرابة الى الله ، ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وإن لم يكن لنفسه انبعاث الى التقرب ، هيهات هيهات ، إنما هذا تحريك لسان وحديث نفس ، وما ذلك إلا كقول الشبعان اشتهي هذا الطعام قاصداً حصول الاشتهاه ، وهذا الانبعاث اذا لم يكن حاصلًا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه بمجرد القول والتصور ، واكثر الناس تنعذر منهم العبادة ابتغاء لوجه الله ، وتقربا اليه لأنهم لا يعرفون من الله تعالى إلا المرجو والخوف ، ففانية مرتبتهم أن يتذكروا النار ويحذروا انفسهم عقابها ، ويتذكروا الجنة ويرغبوا انفسهم ثوابها ، وخصوصاً من كان ملتفتاً الى الدنيا فإنه قلما تنبعث له داعية الى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة فضلاً عن عبادته على نية اجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، فإنه قل من يفهمها فضلاً عن يتعاطاها ، فلو كلف بها لكان تكليفاً بما لا يعطاق ، وليس معنى الاخلاص في العبادة إلا عدم كونها مشوبة بشوائب الدنيا ، والمخلوطة العاجلة للنفس كمسح الناس ، ونيل المال والاخلاص من النفقة لعق المبد ونحو ذلك ، وظاهر أنه لا تنافيه ارادة الجنة والاخلاص من

النار بما وعد في الآخرة وإن كان من جنس المألوف في الدنيا ، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثاً ، إذ كل ما وعد به الجنة وأوعد عليه النار مما رغب ووعد به ورهب وأوعد عليه ، وما ورد في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى قال الله سبحانه : « يَدْعُونَ نَارَ غَيَّا وَرَّهَبًا » (١) ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الدليل الممين الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياتاً ولا شيئاً مما ينفعه ويؤذيه أن يستغني عن جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها من مولاه . ومن تأمل يجد أن القائل ببطالة العبادة بإحدى النيتين ترجع نيته الصحيحة في عبادته إلى إحداها وهو لا يشعر به .

ومما يدل صريحاً على ما ذكرناه قول الصادق عليه السلام : « العبادة ثلاثة : قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد ، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء ، وقوم عبدوا الله عز وجل حباً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة » (٢) ، وهذا يدل على أن العبادة على الوجهين الأولين لا تخلو من فضل أيضاً فضلاً عن أن تكون صحيحة ، نعم لا ريب في أن العبادة على الوجه الأخير لا نسبة لمنزلتها ودرجتها إلى درجة العبادة على الوجهين الأولين ، فإن من تنعم بقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم يسخر ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم إلى وجه الحور العين بالملتفت إلى الصور المستنوعة من الطين ، وكما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجوه النساء الجميلة بالحنفاء التي تعرض عن النظر إلى وجوههن ويلتفت إلى صاحبتهما

(١) الأنبياء الآية ٩٠ . (٢) صحيحنا الرواية على أصول الكافي

ويألف بها ، بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطراب ، إذ التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أو النسوان الجميلة أعظم كثيراً من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين وبين جمال النسوان الجميلة والخنفساء ، وكيف والتفاوت في الثاني متناه وفي الأول غير متناه وأي نسبة للمتناهي الى غير المتناهي .

فصل

نية المؤمن خير من العمل

لما عرفت أن النية روح العمل وحقيقته ، وتوقف نفع العمل عليها دون العكس ، وكون الغرض الأصلي من العمل تأثير القلب بالميل الى الله تعالى وتوقفه على النية فهي خير من العمل بمعنى أن العمل إذا حلل الى جزئيه يكون جزؤه القلبي اعني النية خيراً من جزئه الجسماني اغني ما يصدر من الجوارح ، والثواب المترتب عليه أكثر من الثواب المترتب عليه ، ولذا قال الله سبحانه : « كُنْ يَنَالُ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ » (١) فإن المقصود من اراقة دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا ، وبذلها ايثاراً لوجه الله دون مجرد الدم واللحم ، وميل القلب إنما يحصل عند جزم النية والهم وإن علق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى صفة القلب ، ولذا ترى أن الجامع امرأته على قصد أنها غيرها آثم بخلاف الجامع غيرها على أنها امرأته ، ولذا ورد أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة لأن هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه

عن الهوى وهو غاية الأعمال الحسنة وإنما الاتمام بالعمل يزيد لها تأكيداً . وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور « نية المؤمن خير من عمله ونية الكافر شر من عمله » وكل عامل يعمل على نيته .

وحاصله أن كل طاعة تتضمن نية وعملًا ، وكل منهما من جملة الخيرات وله أثر في المقصود وتكون النية خيراً من العمل وأثرها أكثر من أثره . والفرض أن المؤمن اختياريًا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرها أي النية التي هي جزء من طاعته خير من عمله الذي هو جزءها الآخر (فإن قيل) ما ذكرت لا يفيد أزيد من أن العمل إذا كان مع النية يكون كل من العمل والنية خيراً وذا ثواب وإذا كان بدونها لا يكون خيراً ولا يكون له ثواب ، والمقصود كون النية خيراً من العمل في الصورة الأولى وكون ثوابها أعظم ولم يظهر وجه الخيرية مما ذكرت (قلت) ذلك وإن ظهر اجمالاً إلا أنه لا بد لتوضيحه لتظهر جليلة الحال فنقول .

الوجه في كون النية خيراً من العمل وراجحة عليه في الثواب أنه لا ريب في أن المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها في الآخرة وتنعمها بلقاء الله سبحانه ، والوصول إلى اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وانسه ، وهي موقوفة على دوام الفكر والذكر المرجبين لا تقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها إلى الله سبحانه . فإذا حصل بمجرد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه إلى الله تعالى كان ضعيفاً غير راسخ ، وإنما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح لأن بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لأجلها كل واحد منها عن الآخر ، فيرى أن العضو إذا أصابته جراحة تنال بها النفس ، وأن النفس إذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف

تأثرت الأعضاء وارتعدت الفرائس ، فالطاعات التي هي فعل الجوارح إنما تُشَرِّعُ للتوصل بها إلى صفة النفس اعني التوجه والميل إلى الله سبحانه ، فالنفس هو الأتسل والمتبوع والأمير والجوارح كالخدم والأتباع ، وصفات القلب هي المقصودة لذاتها ، وأفعال الجوارح هي المطالبة بالمعرض لكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس اعني الميل والنية والتوجه . ولا ريب في أن ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالمعرض وثوابه أعظم من ثوابه .

ومن المساني الصحيحة للحديث أن المؤمن يقتضي إيمانه ينوي خيرات كثيرة لا يوفق إعمالها ، إما لعدم تمكنه من الوصول إلى أسبابها ، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها ، أو لما نعمة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول إلى أسبابها كالذي ينوي إن آتاه الله مالا ينفقه في سبيله ، ثم لما آتاه ينفقه البخل عن الانفاق فهذا نيته خير من عمله ، وايضاً المؤمن ينوي دائماً أن تقع عباداته على أحسن الوجوه لأن إيمانه يقتضي ذلك ، ثم إذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك ولا يأتي بها كما يريد فما ينويه دائماً خير مما يعمل به في كل عبادة ، وإلى هذا أشار الباقر عليه السلام حيث قال : « نية المؤمن خير من عمله وذلك لأنه ينوي الخير ما لا يدركه ، ونية الكافر شر من عمله ، وذلك لأن الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه » ، وقيل للصادق عليه السلام : سمعتك تقول نية المؤمن خير من عمله فكيف تكون النية خيراً من العمل ؟ قال عليه السلام : لأن العمل إنما كان رياء للمخلوقين ، والنية خالصة لرب العالمين ، فيعطي عز وجل على النية ما لا يعطي على العمل » ، ثم قال : « إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فتغلبه عينه فينام فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة » ، وبعض الأخبار المتقدمة بعض ذلك ويؤكد أيضاً

(وقيل) معنى الحديث : « إن النية بمجرد خیر من العمل بمجرد بلا نية (وفيه) أن العمل بدون النية لا يتصف بالخيرية أصلاً فلا معنى للترجيح في الخيرية ، وقيل سبب الترجيح : « إن النية سرّاً لا يطلع عليه إلا الله ، والعمل ظاهر ، وفعل السرّ أفضل » وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً إلا أنه ليس مراداً من الحديث لأنه لو نوى أحد أن يذكر الله تعالى بقلبه أو يتفكر في مصالح المؤمنين كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيراً من العمل الذي هو الذكر والتفكير مع اشتراك النية والعمل في السرية ، وبداهنة كون الذكر والتفكير خيراً من نيتهما .

فصل

النية غير اختيارية

النية غير داخلة تحت الاختيار ، وذلك لما عرفت من أنها انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ملائمة ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً أو آجلاً ، وهذا الميل اذا لم يكن حاصلًا للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الاخطار بالبال والاجراء على اللسان ، بل ذلك كقول الشبان نويت أن اشتهي الطعام وأميل اليه ، أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلاناً وأحبه ، فلا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء ، وميله اليه ، وتوجهه نحوه الا باكتساب اسبابه ، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وانما قد تنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ، وما لم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه قصده نحوه ، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده دائماً واذا اعتقد فإنما يتوجه القلب اذا كان فارغاً غير مصروف عنه بفرض شاغل

أقوى منه ، وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها اسباب كثيرة بها تجتمع وتختلف ، ذلك بالأشخاص والأحوال والأعمال ، فإذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد لم يمكنه أن يتزوج على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة ، إذ النية اجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة فكيف ينوي الولد ، ولذا كان أهل السالك من السلف كثيراً ما يمتنعون عن جملة من الطاعات اذا لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرني نية ، وذلك اعلمهم بأن النية روح الأعمال وقوامها وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لا سبب قرب ، وروي أنه أتى الصادق عليه السلام مولى له فسلم عليه وجلس فلما انصرف عليه السلام انصرف معه الرجل فلما انتهى الى باب باب داره دخل وترك الرجل فقال له ابنه اسماعيل : « يا ابيه الا كنت عرضت عليه الدخول » فقال : « لم يكن من شأنى ادخاله » قال : فهو لم يكن يدخل قال : « يا بني اني اكره أن يكتبني الله عراضاً » .

تتميم

الطريق في تخلص النية

الطريق في تخلص النية في الطاعات تقوية ايمانه بالشرع ، وتقوية ايمانه بعظم ثواب الطاعات مع خلوص النية ، واذا قوي ايمانه فربما انبعث من نفسه رغبة الى فعل الطاعة مع خلوص النية ، مثلاً من لم تكن له نية الولد في النكاح بل كانت نيته فيه مجرد قضاء الشهوة فينبغي له أن يقوي ايمانه بعظم ثواب من سعى

في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وآله ، ويدفع عن نفسه جميع المفرات عن الولد
كثقل المؤونة وطول المتعب وغيره ، وإذا فعل ذلك انبعثت من نفسه رغبة الى
تحصيل الولد للأواب .
(ومنها) :

الكراهة

وهي نفرة الطبع عما لا يخلو عن ايلام واتعاب فاذا قويت سميت مقتاً ،
وضدها الحب وهو ميل الطبع الى الشيء الملد ، فإن تأكد ذلك الميل
وقوي سمي عشقاً .

اعلم أن عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعاد امور متناسبة مترتبة بعضها
على بعض ، وكذا اضدادها اعني الشوق والنية والحب والانس امور متناسبة
يترتب بعضها على بعض ، فنحن هنا نشير اجمالاً الى معانيها والفرق بينها ،
ثم نذكرها مفصلة على الترتيب .

فنقول قد عرفت أن الغفلة والنية ضدان وهما عبارتان عن عدم انبعاث
النفس وانبعائها الى ما فيه غرضها الملائم إما عاجلاً أو آجلاً ، وأما عدم الرغبة
والشوق فهما أيضاً ضدان ومبدءان للغفلة والنية (بيان) ذلك أن معنى عدم
الرغبة ظاهر ، والشوق عبارة عن الرغبة الى الشيء الذي لم يصل اليه وكان مفقوداً
عنه بوجه ، فالشوق لا يخلو عن ألم المفارقة ولو زالت المفارقة وحصل الوصال انتفى الشوق ،
ثم فرق الشوق عن النية ظاهر ، فان الشوق مجرد الرغبة الى الشيء من دون اعتبار انبعاث
النفس الى طلبه في مفهومه ، والنية هي الانبعاث المذكور ، فالشوق مبدء النية ، والنية
مترتبة عليه ، وبذلك يظهر الفرق بين ضديهما ايضاً اعني عدم الرغبة والغفلة

(وأما الكراهة) والحب فقد عرفت أنها عبارتان عن نفرة الطبع عن المؤلم وعن ميله الى الملد ، سواء انبعثت النفس على طلبه أم لا ، وبهذا يفترق الحب عن النية فان النية هي انبعثت النفس وهو مغاير لمجرد الميل بل الميل منشأ للانبعث ، وسواء حصل الوصول الى الملد أم لا ، وبهذا يفترق عن الشوق فان الشوق يعتبر في مفهومه عدم الوصول ، فالشوق والنية والارادة لا ينفكان عن الحب ، والحب يكون مقارنا لهما ألبتة ، فاذا حصل الوصول الى المطلوب زال الشوق والارادة وبقي الحب بدونها وبما ذكر يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة (وأما الانس) فهو عبارة عن استبشار النفس بما يلاحظه من المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه ، والبعد عبارة عن عدم الوصول الى المحبوب أو الوصول الى ما لا يستبشر ولا يتهيج بملاحظته لعدم الرغبة اليه أو للتنفر عنه ، فالحب منشأ الانس ، والانس يترتب عليه وهو غاية المحبة فلا يخلو انس عن المحبة والمحبة قد تكون بدون انس ، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوبا للقوة العاقلة كالعلم بحقائق الأشياء ، وقد يكون مطلوبا للقوة الغضبية كالاستيلاء والغلبة ، وقد يكون مطلوبا للقوة الشهوية كالمال والأزواج ، وعلى كل تقدير تكون الامور المذكورة أعني عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبهمة واضدادها أعني الشوق والارادة والحب والانس متعلقة بتلك القوة ، معدودة من رذائلها أو فضائلها ، ثم المحبوب إن كان مما يستحسن حبه وطلبه شرعا وعقلا كان ما يتعلق به من الشوق والارادة والحب والانس من الفضائل ، واضدادها من الرذائل ، وإن كان مما يندم حبه وطلبه شرعا وعقلا كان بالعكس .

فصل

الشوق - افضل مراتب الشوق الشوق الى الله - تعلق الحب بجميع القوى - أقسام الحب بحسب مبادئه - لا محبوب حقيقة إلا الله - الشهود التام هونهاية درجات العشق - سرعان الحب في الموجودات - رد المنكرين لحب الله - معرفة الله اقوى سائر اللذات - تحقيق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه - الطريق الى الرؤية واللقاء - تفاوت المؤمنين في محبة الله - الواجب اظهر الموجودات - علام محبة الله - معنى حب الله لعبده - الحب في الله والبغض في الله - الوفاء في الحب - الانس - الانس قد يشمر الادلال .

قد تقدم تفصيل الكلام في النية والغفلة .

وأما الشوق فنقول في بيانه قد عرفت أن الشوق عبارة عن الميل والرغبة الى الشيء عند غيبته فان الحاصل الحاضر لا يُشتاق اليه ، إذ الشوق طلب يسوق الى نيل امر ، والموجود لا يطلب ، فالشوق لا يتصور إلا الى شيء . ادرك من وجه ولم يدرك من وجه ، فما لا يدرك أصلاً لا يُشتاق اليه إذ لا يتصور أن يشتاق أحد الى شخص لم يره ولم يسمع وصفه ، وما ادرك بكمله لا يشتاق اليه ايضاً إذ المداوم لمشاهدة المحبوب والواصل اليه من جميع الوجوه لا يتصور أن يكون له شوق ، فالشوق يختص بغيره بما ادرك من وجه دون وجه وهذا إنما يكون باحد وجهين (احدهما) أن يتضح الشيء اتضاحاً ولم يستكمل الوضوح فاحتاج الى استكماله فيكون الشوق الى ما بقي من المطلوب مما لم يحصل .

مثال ذلك أن من غاب عنه ، عشوقه ، وبقي في قلبه خياله يشتاق الى

استكمال خياله بالرؤية ، ومن رأى معشوقه في ظلمة بحيث لا تنكشف له حقيقة
حضوره يشتاق الى استكمال رؤيته بأشراق الضوء عليه ، فلو رآه بتمام الرؤية
انتهى الشوق كما انه لو أتمى عن قلبه ذكره وخیاله ومعرفة حتى نسيه لم يعقل
وجوده (وثانيهما) أن يدرك بعض كمالات المحبوب ووصل اليه وعلم اجمالاً
أن له كمالات اخر ولم يدركها ولم يصل اليها فيكون له شوق الى ادراك تلك
الكمالات ، مثال ذلك أن يرى وجنة محبوب به ولا يرى شعره ولا سائر اعضائه
فيشتاق الى رؤية ذلك

فصل

افضل مراتب الشوق الشوق الى الله

افضل مراتب الشوق هو الشوق الى الله سبحانه والى لقائه ، وهي
المطلقة الى الوصول اليه والى حبه وانسه والتقرب لديه ، وهو رأس مال
السالكين ، ومفتاح أبواب السعادة للطلابين ، والوجهان الموجهان للشوق
متصوران في حق الله بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين ، فلا يخاو عارف
من الشوق الى الله .

أما الوجه الأول فلأن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن بلغ
غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح ، بل
يكون مشوباً بشوائب التخيلات المسكرة بالمعلومات والممانعة عن ظهورها اليقيني
(لا) سيما اذا انضاف اليها شواغل الدنيا ، فكمال الوضوح في الأمور الإلهية
إنما هو بالمشاهدة واشراق التعبلي ولا يكون ذلك في هذا العالم بل يكون في
الآخرة ، فهذا أحد الموجهين لشوق العارفين الى الله سبحانه وهو الشوق الى

استكمال الوضوح فيما اتضح اتضح ما .

وأما الثاني فلأن الأمور الإلهية لا نهاية لها وإنما ينكشف لكل عارف بعضها وتبقى أمور غير متناهية خفية عنه ، والعارف يعرف اجمالاً وجودها ، وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقاً الى أن يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمة الله وجلاله وصفاته وأفعاله بما لا يعرفها اصلاً لا مع الوضوح ولا مع الإبهام والاحمال ، والشوق الأول ربما انتهى في الآخرة اذا حصل الشهود واللقاء المغنوي لأجل استخلاص النفس من موانع الطبيعة وقشوراتها وحصول التجرد التام لها ، وأما الشوق الثاني فلا يمكن أن ينتهي في الدنيا ولا في الآخرة ، إذ نهاية ذلك أن ينكشف للعبد في الآخرة من عظمة الله وكبريائه وجلاله وصفاته واحكامه وأفعاله ما هو معوم لله تعالى وهو محال ، إذ معلومات الله المتعلقة بذاته وصفاته وأفعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة فتمتنع احاطة الانسان بها ، فلا يزال العبد عالماً بأنه قد بقي من جلال الله وعظمته ومن صفتيه وفعله ما لم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، وما من عبد إلا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لا نهاية لها فيشتاق اليها ألبتة ، واذا كان اصل الوصال واللذة حاصلًا فربما كان الشوق الى المراتب التي فوق مرتبتها شوقاً لذيقاً لا يظهر فيه ألم ، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة ودرجاتها متوالية الى غير النهاية ، وتحصل للعبد هذه الدرجات في الآخرة على التدرج ، فلا يزال العبد يتصاعد ويترقى اليها ، ولا يزال النعيم واللذة تزايد له أبد الآباد من غير انقطاع له ، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلاً له عن الاحساس بالشوق الى ما لم يحصل له الله ، فإن امكن في الآخرة حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا لكان حصول المعارف

والابتهاجات والأنوار وتجدها في الآخرة ممكناً ، وإن لم يكتسب أصلها في الدنيا فيتجدد ويتوارد على العبد في الآخرة على الدوام والاستمرار من دون أن ينتهي الى حد . وربما كان قوله تعالى : « نُرُّهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتُنِمْ كُنَّا نُورًا » (١) إشارة الى هذا المعنى ، ويكون المراد به اتمام النور في عين ما استندار في الآخرة استنارة محتاجة الى الظهور . ثم الى زيادة الاستكمال والاشراق ، وإن اختص حصول نعم الآخرة وأنوارها وابتهاجاتها على النعم التي تزود من أصلها ولم يحصل للعبد ما لم يكتسب في الدنيا أصله من الأنوار والابتهاجات ، فيكون ترقى العبد في الآخرة في ازدياد الابتهاج والاشراق فيما حصل له أصله ، وعلى هذا فربما انتهى الى حد ووقف هناك ولا يتضاعف ، وقوله تعالى نورهم يسمى الى آخر الآية يحتمل لهذا المعنى ايضاً بأن يكون المراد طلب اتمام نور تزود من الدنيا أصله ، « قيل » وقوله تعالى : « أَنْظُرُونَا نَقْتَضِيْهِمْ مِنْ نُّورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا » (٢) يدل على أن الأنوار لا بد أن يتزود أصلها في الدنيا ، ثم يزداد في الآخرة اشراقاً ، فأما أن يتجدد نور لم يكتسب أصله في الدنيا فلا .

ثم لا يخفى أن تعيين الأصل والفرع للأنوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل ، وليس لنا طريق الى القطع بأن أي شيء أصل لأي نور وبهجة ، وربما كان المظنون عندنا أن أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعي الاجمالي بأن الواجب سبحانه في غاية العظمة والجلال والقدرة والكمال ، وأنه تام فوق التمام ، وكل ما سواه من المهيئات الموجودة صادرة عنه على أشرف أنحاء الصدور واقواها وأدناها على العظمة ، وأنه لا موجود ولا شيء إلا الواجب

وصفاته وأفعاله ، وأن ذاته الأقدس ذات لا يمكن أن يكون لذهن من الأذهان العالية ، ولا لمدرک من المدارك المتعالية عقلاً كان أو نفساً أو غيرها لو أمكن أن يكون مدرکاً أن يدرك في لحاظ التعقل ذاتاً يمكن أن تكون فوقه أو مثله ، بل كلما تصور اجمالاً فهو فوقه ، وكذا صفاته الكمالية وأفعاله ، وأن صفاته الكمالية من عظمتهم وجلاله وقدرته وجهاله وعلمه وحكمته وغير ذلك غير متناهية ، وليس لها حدٌ وغاية ، وما تعلق به علمه من مخلوقاته لا نهاية له كثرة وقوة وكمالاً وأن له من المراتب الغير المتناهية من العظمة والجلال ما لا يطيق اشرف الموجودات واقواها لا ادراك أولها ، فمن عرف ذلك وتيقن به وعلم ان هذا العالم وما فيه لا نسبة له الى عالم الآخرة وما فيه ، وأن ألطافه ومزايده الى عبادته الذين عرفوا نسبتهم اليه ، وتيقنوا بأن لا شرافة ولا كمال للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب اليه والوصول الى حبه وانسه فقد وصل الى أصل كل سعادة ونور وبهجة لاسيما إذا دفع عن نفسه ذمائم الأخلاق واتصف بفضائلها . وقد ظهر مما ذكر أنه لا ريب في ثبوت الشوق للعباد الى الله سبحانه ، والعجب ممن انكر حقيقة الشوق الى الله سبحانه لانكاره المحبة له كما يأتي إذ لا يتصور الشوق إلا الى محبوب وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار ، ولا ريب في ثبوته ايضاً من الآيات والأخبار : قال الله سبحانه : « فَسَنُكَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ » الى آخر الآية فإن الرجا لا ينفك عن الشوق وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في دعائه : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر الى وجهك الكريم ، وشوقاً الى لقائك » ، وفي بعض الكتب السماوية : « طال شوق الأبرار الى لقائي ، وأنا الى لقاءهم لأشد شوقاً » ، وفي اخبار داود عليه السلام : « إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري ، ونعمتها

بجلالي » ، وفيها أيضاً أنه تعالى أوحى إلى داود : « يا داود إلى كم تذكركم الجنة ولا تسألني الشوق إليّ » قال : يا رب من المشتاقون إليك قال : « إن المشتاقين إليّ الذين صفيتهم من كل كدر ، ونبتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم إليّ خرقاً ينظرون إليّ ، وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي ثم ادعو بملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوني فأقول اني لم اجمعكم لتسجدوني ولكن دعوتكم لاعرض عليكم قلوب المشتاقين إليّ ، واباهي بهم اياكم فإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض ، يا داود : اني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ، واعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدثين ، وجعلت ابدانهم موضع نظري الى الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به اليّ يزدادون في كل يوم شوقاً » ، وأوحى الله اليه أيضاً يا داود : « لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي اليّ ترك معاصيهم لما توا شوقاً إليّ ، وتقطعت اوصالهم عن محبتي » ، وفي بعض الأخبار القدسية : « ان لي عبداً يحبونني واحبهم ، ويشتاقون اليّ واشتاق اليهم ، ويندكروني واذكرونني ، واول ما اعطيتهم ان اقذف من نوري في قلوبهم ، فيخبرون عني كما اخبر عنهم ، ولو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستعد بها لهم ، واقبل بوجهي عليهم لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيهم » وقال الصادق عليه السلام : « المشتاق لا يشتهي طعاماً ، ولا يلتذ شراباً ، ولا يستطيب رقداً ، ولا يأنس حمياً ، ولا يأوي داراً ، ولا يسكن عمراً ، ولا يلبس ثياباً ، ولا يقر قراراً ، ويعبد الله ليلاً ونهاراً راجياً بأن يصل الى ما يشتاق اليه » ويناجيه باسان الشوق معبراً عما في سريره كما أخبر الله تعالى عن موسى ابن عمران في معاد ربه بقوله : وعجلت اليك رب لترضى ، وفسر النبي صلى الله

عليه وآله عن حاله « أند ما أكل ولا شرب ولا نام ، ولا اشهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه اربعين يوماً شوقاً الى ربه ، فاذا دخلت ميدان الشوق فكبر على نفسك ومراك من الدنيا ، وودّع جميع المألوفات ، واصرفه عن سوى مشوقك ، ولبّ بين حياتك وموتك لبيك اللهم لبيك أعظم الله أجرك ، ومثل المشتاق مثل الفريق ليس له همة إلا خلاصه وقد نسي كل شيء دونه » (١) وما ورد في الادعية المعصومية من طلب الشوق أكثر من أن يحصى والظواهر الآتية المثبتة للمحبة والانس تثبت الشوق أيضاً (وأما الكراهة) والبغض وضدهما اعني الحب فنقول قد عرفت أن الكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المنعّب والحب الذي هو ضدهما عبارة عن ميل الطبع الى الملائم الملدّ .

وتوضيح ذلك أنه لا يتصور حب إلا بعد معرفة وإدراك وكذلك لا يتصف بالحب جماد ولا يحب الانسان ما لا يعرفه ولم يدركه ، فالحب من خاصية الحي الدراك بعد حصول الادراك بالفعل

ثم لما كانت المدركات منقسمة الى ما يوافق طبع المدرك ويلذّه ، والى ما يخالفه ويؤلمه ، والى ما لا يؤثر فيه بالذاد وايلام . فالقسم الاول يكون مرغوباً عند المدرك ويسمى رغبة ، وميله اليه حباً ، والقسم الثاني يكون منفوراً عنه ، وتسمى نفرة عنه كراهة وبغضاً ، والثالث لا يوصف بميل وكراهة ، فلا يوصف بكونه محبوباً ، ولا مكروهاً ، ثم اللذة لما كانت عبارة عن ادراك الملائم الملدّ ونيله فالحب الذي هو الميل والرغبة اليه لا يخلو عن لذة محققة أو خيالية ، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس بادراك الملائم ونيله هذا فانك قد

عرفت أن المدرك إن كان مما يستحسن حبه شرعاً وعقلاً كان كراهته وبفضه من الرذائل وحبه من الفضائل ، وإن كان مما يذم حبه كان بالعكس من ذلك .

فصل

تعاق الحب بجميع القوى

الحب والكراهة لما كانا تابعين للأدراك فينقسمان بحسب انقسام القوة المدركة التي هي الحواس الظاهرة ، والحواس الباطنة ، والقوة العاقلة ، فمن الحب ما يتعلق بالحواس الظاهرة بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وماذا عندها ، كالصور الجميلة المرئية ، والنفحات الموزونة ، والروائح الطيبة ، والمطاعم النفيسة والملبوسات اللينة بالنظر إلى الخمس الظاهرة ، ومنه ما يتعلق بالحواس الباطنة بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وماذا عندها كالصور الملائمة الخيالية ، والمعاني الجزئية الملائمة بالنسبة إلى المتخيل والواهمة ، ومنه ما يتعلق بالعاقلة بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وماذا عندها كالمعاني السككية والذوات المجردة ، ولا ريب في أن العقلي من الحب والذات أقوى الذات وابلغها ، إذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة ، والعقل أقوى إدراكاً وأشد غوصاً ونفوذاً في حقائق الأشياء وبواطنها من الحس وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة الحسنة ، فتكون لذة العقل وحبه بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي جلت عن أدراك الحواس أتم وأبلغ ، ولذا جعل رسول الله صلى الله عليه وآله الصلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدنيا حيث قال : « حبيب إلي من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وجملة قرة عيني في الصلاة » فإن الإلتذاذ بالصلاة

لذّة عتملية كما أن الالتذاذ بالطيب لذّة شمسية ، وبالنساء نظرية ولمسية (فإن قيل) حقيقة الانسان نفسه الناطقة ولها ثلاث قوى وهي : العاقلة والشهوية والغضبية ، وقوى اخرى هي الحواس الظاهرة والحواس الباطنة ، وشأن العاقلة كما ذكرت ادراك المعاني السكّية ، والحقائق المجردة ، وشأن الحواس الظاهرة ادراك المبصرات والمسموعات والمشعومات والمذوقات والملموسات ، وشأن الحواس الباطنة ادراك المعاني الجزئية ، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها ، ومن جملة ما يدرك بالحواس ما يتعلق بقوتي الغضب والشهوة من الغلبة والاستيلاء والوصول الى المناكح والمطاعم وضدها فالجذب طنة المدركات والملتهب بها ماذا من النفس وقواها المذكورة ، وهل الحب والملتهب هو المدرك بعينه أو غيره (قلنا) الحب والملتهب أولاً في كل من هذه المدركات هو المدرك ، وثانياً وبواسطة هو النفس ، إذ كل ادراك يتعلق بإحدى القوى ليصل بالآخرة الى النفس فيحدث فيها ما يقتضيه من اللذة والألم ، إلا أن ما يدرك بالحواس مما يتعلق بقوتي الشهوة والغضب لا بد أن يصل اليهما ايضاً فيحصل لهما اللذة أو الألم وبواسطة هما يصل الى النفس ، فالمدرك أولاً للغلبة أو العجز هو الوهم فيلتهب أو يتألم ثم يصل منه أثر الادراك والالتذاذ والألم الى القوة الغضبية ، ويصل منها الأثر الى النفس فيلتهب أو يتألم ، والمدرك للطعم والريح واللين والنعومة هي الذائقة والشامة واللامسة ، فالالتذاذ والتألم لها أولاً وبواسطة القوة الشهوية ، وهذا إن كانت الشهوية قوة على حدة سوى الذائقة والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة ، وإن كانت معنى جنسياً شاملاً لجميعها فالأمر ظاهر . وبما ذكر ظهر وجهه تعلق الحب بجميع القوى .

فصل

اقسام الحب بحسب مبادئه

اعلم أن اسباب الحب ومبادئها لما كانت متعددة مختلفة فينقسم الحب لأجلها على أقسام (الأول) حب الانسان وجود نفسه وبقاءه وكاله وهو أشد اقسام الحب واقواها لأن المحبة إنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة ، ولا شيء أشد ملاءمة لأحد من نفسه ، ولا هو بشيء أقوى معرفة منه بنفسه ، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحاً لمعرفة ربه (١) ، وكيف لا يكون حب الشيء لذاته أقوى المراتب مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب والمحبوب أوثق وأبلغ ، وأي اتحاد أشد من الوحدة ورفع الاثنية بالمرّة كما بين الشيء ونفسه ، فالمحب والمحبوب واحد ، وسبب الحب غريزة في الطباع بحكم سنة الله « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » (٢) ، ومعنى حبه لنفسه كونه محباً لدوام وجوده ، ومكرها لعدمه وهلاكه ، فالبقاء ودوام الوجود محبوب ، والعدم ممقوت ، ولذا يفيض كل أحد الموت لا بمجرد ما يخافه بعده ، أو لمجرد ما يلزمه من سكراته ، بل لظنه أنه يوجب انعدام كله أو بعضه ، ولذا لو اختطف من غير ألم وتعب وأميت من غير ثواب وعقاب كان كارهاً لذلك ، وكما أن دوام الوجود محبوب فكذلك كمال الوجود محبوب ، لأن فاقد الكمال ناقص ، والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود ، فالوجود محبوب في اصل الذات وبقائه وفي صفات

«١» كما قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » «٢» الفتح الآية ٢٢ .

كماله ، والعدم محقوت فيها جميعاً .

والتحقيق أن المحبوب ليس إلا الوجود ، والمبغوض ليس إلا العدم ،
وجميع الصفات الكمالية راجعة الى الوجود ، وجميع النقائص راجعة الى
العدم إلا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود ، وكانت
تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات الكمالية التي هي من مراتب الموجودات
فكان وجوده مركب من وجودات متعددة فاذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض
اجزاء وجوده ، وبذلك يظهر أن الموجود كلما كان أقوى وكان نحو وجوده أتم
كان اجمع لمراتب الوجودات في القوة والشدة والعدة ، وكانت صفاته الكمالية
أقوى واكثر لكونها من مراتب الوجودات ، فالوجود الواجب الذي هو
النام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوي فيه جميع الوجودات ، ويكون
محيطاً بالكل ، ثم محبة الأولاد من التحقيق يرجع الى هذا القسم ، لأن
الرجل إنما يحب ولده ويتمحمل المشاق لأجله وإن لم يصل منه اليه نفع وحظ
لعله بانه خليفته في الوجود بعد عدمه ، فكان بقاء نوع بقاء له ، فلم يفرط حبه
لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه لما عجز من الطامع في
بقاء نفسه ، ولعدم كون بقاءه هو بقاءه بعينه يكون بقاء نفسه أحب اليه من بقاء ولده
لو كان طبعه باقياً على اعتداله ، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع الى حبه
لكمال نفسه فإنه يرى نفسه كبيراً قوياً لأجلهم متجماً بسببهم إذ العشيرة
كالجناح المسكّل للانسان (١) : (الثاني) حبه لغيره لأجل أنه يلتذ منه لذّة

(١) كما قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام في جملة ما أوصى به ولده الامام المجتبي
عليه الصلاة والسلام : (واكرم عشيرتك فانهم جناحك الذي به تطير ، واصلك الذي
اليه تشير ، ويدلك التي بها تصول) النهج الجزء الثالث طبع مصر ص ٦٣

حيوانية كحب كل من الرجل والمرأة للآخر لأجل الجماع ، وحب الانسان
 المأكولات والملبوسات ، والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة وهو سريع
 الحصول وسريع الزوال واطعف المراتب لخساسة سببه وسرعة زواله : (الثالث)
 حبه للغير لأجل نفعه واحسانه ، فان الانسان عبيد الاحسان وقد جبلت النفوس
 على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، ولذا قال رسول الله صلى الله
 عليه وآله وسلم : « اللهم لا تجعل لفاجر علي يداً فيحبه قلبي » ، فالسبب
 الجامع في هذا القسم هو النفع والاحسان ، وهذان القسمان عند التحقيق يرجعان
 الى القسم الأول لأن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة الى
 دوام الوجود ، وكالوجود ، وسبب اللذة باعث لحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود .
 والفرق أن الأعضاء والصحة والعلم والطعام والشراب والجماع محبوبة
 لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال ، وأما الطبيب الذي هو سبب الصحة ،
 والعالم الذي هو سبب العلم ، ومعطي الطعام والشراب والمرأة التي هي آلة لوقاع
 محبوبة لذواتها بل من حيث إنها وسائل الى ما هو محبوب لذاته ، فاذن يرجع
 الفرق الى تفاوت الرتبة ، والكل يرجع الى محبة الانسان نفسه ، فمن أحب
 المحسن لاحسانه فما أحب ذاته تحقيقاً ، بل أحب احسانه ، ولو زال احسانه
 زال حبه مع بقاء ذاته ، ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد زاد . وبالجمله
 يتطرق الى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه (الرابع) أن
 يحب الشيء لذاته لا لحظ يناله منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو
 الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به ، وذلك كحب الجمال والحسن ، فإن كل
 جمال محبوب عند مدركه ، وذلك لعين الجمال لأن ادراك الجمال عين اللذة ،
 واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ، ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور

إلا لأجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة حيوانية ، قد يحب الانسان الصور الجميلة لأجلها ، وادراك نفس الجمال لذة اخرى روحانية يكون محبوبا لذاتها ، ولا ريب في أن حب الصور الجميلة بالجهة الاولى مذموم ، وبالجهة الثانية ممدوح ، والعشق الذي يقع لبعض الناس من استحسان الصور الجميلة يكون مذموماً إن كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية ، ويكون ممدوحاً إن كان سببه الابتهاج بمجرد ادراك الجمال ، ولأجل التباس السبب في هذا العشق اختلف العقلاء في مدحه وذمه ، وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر مع أن الخضرة والماء الجاري محبوبان لأنهما كل الخضرة ويشرب الماء ، أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبه الخضرة والماء الجاري ، والطباع الصافية السليمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النفس المناسبة الشكل حتى الانسان تتفرج عنه الغموم بمجرد النظر اليها من دون قصد حظ آخر منها . وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول حيث زعموا أنه لا يتصور أن يحب الانسان غير لذاته ما لم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته ، ولم يعلموا أن الحسن والجمال ليس مقصوراً على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة ، إذ يقال هذا صوت حسن ، وهذا طعم حسن ، وهذا ريح طيب ، وليس شيء من هذه الصفات مدركة بالبصر ، وكذا ليس الحسن والجمال مقصوراً على مدركات الخواس لو جودها في غيرها فإن أكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة ، إذ يقال هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، ولا يدرك شيء من هذه الصفات بالخواس ، بل يدرك بالبصيرة الباطنة ، وكل هذه الخصال المدركة حسننها بالعقل محبوبة بالطبع ، والموصوف بها أيضاً محبوب

عند من عرف صفاته .

ومما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوباً أن الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة عليهم السلام مع أنهم لم يشاهدوهم ، حتى أن الرجل قد تجاوز حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع أمواله في نصرة مذهبه والذب عنه ، ويخاطر بروحه في قتال من يظعن في إمامه أو متبوعه مع أنه لم يشاهد قط صورته ، ولم يسمع كلامه ، فما حمله على الحب هو استحضانه بصفاته الباطنة من الورع والتقوى والتوكل والرضا وغزارة العلم والاحاطة لمدارك الدين ، وانتهاضه لافاضة علم الشرع ، ونشره هذه الخيرات في العالم ، وجملتها ترجع الى العلم والقدرة إذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفة حقائق الأمور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات ، وهما اعني العلم والقدرة غير مدركين بالحواس مع أنها محبوبان بالطبع ، ومن الشواهد على المطلوب أن الناس لما وصفوا حاتمياً بالسخاء وانوشيروا بالعدالة احبتهما القلوب حباً ضرورياً من دون نظرهم الى صورهما المحسوسة ومن غير حظ ينالونه منهما ، بل كل من حكى عنه بعض خصال الخير ، وصفات السكامل غلب على القلوب حبه مع عدم مشاهدته ، وبأس المحبين من انتشار خيره واحسانه اليهم ، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة ، ونور العقل اغلب عليه من آثار الحواس الحيوانية كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشاً على الحائط لجمال صورته الظاهرة ، وبين من يحب سيد الرسل صلى الله عليه وآله لجمال صورته الباطنة (الخامس) : محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية ، أو مجانسة معنوية ، فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما من غير ملاحظة جمال ، ولا طمع في جاه ومال ، بل بمجرد تناسب

الأرواح كما قال النبي صلى الله عليه وآله : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . (السادس) : محبته لمن حصل بينه وبينه الألف والاجتماع في بعض المواضع لاسيما اذا كان من المواضع الغريبة كالسفن والاسفار البعيدة ، والسبب فيه كون افراد الانسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقي والاجتماع ، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الانسان سمي انساناً ، فهو مشتق من الانس دون النسيان كما ظنَّ والمؤانسة لا تنفك عن المحبة ، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين أهل البلد ، أو بينهم وبين أهل القرى ، أو بين أهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة من جملة اسرار الامر بالجمعة والجماعة ، وصلاة العيدين ، والحج الباعث لاجتماع عموم الخلائق في موقف واحد (السابع) : محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر كميل الصبي الى الصبي لصباه ، والشيخ الى الشيخ لشيخوخته ، والتاجر الى التاجر لتجارته وهكذا . فإن كل شخص مائل الى من يشاركه في وصفه وصنعتة وشغله وحرفته والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في الوصف والصنعة (الثامن) : حب كل سبب وعلة مسببة ومعلولة وبالعكس فإن الماعول لما كان مثالا من العلة ، ومرتجعاً عنها ومنبجساً منها ، ومناسباً لها لكونه من صنعها فالعلة تحبه لأنه فرعها وبمنزلة بعض اجزائها التي كانت منطوية فيها ، والماعول يحبها لأنها اصله وبمنزلة كله الذي كان محتوياً عليه فكأن كلا منهما في حبه للآخر يحب نفسه .

ثم السبب إن كان علة حقيقية موجودة تكون سببية أقوى في حصول المحبة والاتحاد مما إذا كان علة معدة فأقوى اقسام المحبة ما يكون للواجب سبحانه بالنسبة الى عباده وبعد ذلك لا محبة أقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة اليه سبحانه فإن محبتهم له من حيث كونه موجداً مخرجاً لهم من العدم الصنف

الى الوجود ، ومعطياً لهم ما احتاجوا اليه في النشأتين ، ومن حيث إنه تعالى تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية ، والنفس بذاتها مشتاقة الى السكامل المطلق ، وهذه المحبة فرع المحبة ولا تحصل بدونها ولذا قال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : « ما اتخذ الله ولياً جاهلاً قط » ، وحب الأب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم من حيث إن الأب سبب ظاهر لوجود الابن وإن لم يكن سبباً حقيقياً بل علة معدة له فيحبه لأنه يراد بمنزلة نفسه ، ويظنه مثلاً من ذاته ، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته ، ويعد وجوده بعينه بمنزلة البقاء الثاني لنفسه فيظنه أنه جزؤه وفي الخلق والخلق مثله ، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له ، ويفرح بتبرجحه عليه ، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال إنه في الآن أفضل من السابق ، ومما يؤكد محبته له أنه يرجو منه نجاح مقاصده ومطالبه في حياته ومماته ، وليست محبة الابن للأب كمحبة الأب لابن ، هو أضعف لفقد بعض الأسباب الباعثة له ، ولذا أمر الأولاد في الشريعة بحب الآباء دون العكس ، وكذا المحبة التي بين المعلم والمتعلم من هذا القسم لأن المعلم كالسبب القريب للحياة الروحاني للمتعلم واقفاً الصورة الانسانية عليه ، كما أن الأب كالسبب لحياته الجسمية ورتبته الصورية فهو والد روحاني له ، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الأب ، وعلى هذا ينبغي أن تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقي وأكثر من محبة الأب ، وقد ورد في الحديث : « أن آباءك ثلاثة : من ولدك ، ومن علمك ، ومن زوجك ، وخير الآباء من علمك » وسئل عن ذي القرنين أن أباك أحب إليك أم معلمك قال : « معلمي أحب إلي لأنه سبب حياتي الباقية ، وأبي سبب حياتي الفانية » وقال امير المؤمنين عليه السلام : « من علمني حرفاً فقد صيرني عبداً » ، وعلى هذا

ينبغي أن يكون حب النبي صلى الله عليه وآله وأصياؤه الراشدين عليهم السلام أوكد من جميع أقسام الحب بعد محبة الله سبحانه لأنه المعلم الحقيقي والمكمل الأول ، ولذا قال صلى الله عليه وآله : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وولده » : (التاسع) : محبة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض كمحبة الإخوان والأقارب ، كلما كان السبب أقرب كانت المحبة أوكد ولذا تكون محبة الأخوين أشد من محبة أبناء الأعمام مثلاً ، ومن عرف الله وانتساب السبب إليه ، وبلغ مقام التوحيد ، وعرف النسبة والربط الخاص الذي بين الله وبين مخلوقاته يحب جميع الموجودات من حيث اشتراكها معها في الموجد الحقيقي ، ثم قد يجتمع بعض أسباب المحبة أو أكثرها في شخص واحد فيتضاعف الحب كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة ، حسن الخلق ، كامل العلم ، حسن التدبير ، محسن إلى والده وإلى الخلق كان حب والده له في غاية الشدة لاجتماع أكثر أسباب الحب فيه ، وربما أحب شخص آخر لوجود بعض أسباب الحب فيه من دون عكس لعدم تحقق سبب من أسباب الحب فيه ، وقد تختلف فيها أسباب الحب فيحب كل منهما الآخر من جهة ، وتكون قوة الحب بقدر قوة السبب فكما كان السبب أكثر وأقوى كان الحب أشد وأوكد .

فصل

لا محبوب حقيقة إلا الله

اعلم أنه لا مستحق للحب غير الله سبحانه ، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا هو ، ولو كان غيره تعالى قابلاً للحب ، وموضعا له فإنما هو

من حيث نسبته اليه تعالى ، فمن أحب غيره تعالى لا من حيث نسبته اليه فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله ، وكيف يكون غيره سبحانه من حيث هو لا من جهة انتسابه اليه مستحقاً للحب وهو في نفسه مع قطع النظر عنه تعالى وعن انتسابه اليه ليس إلا العدم ، والعدم كيف يصلح للحب ، فينبغي أن يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة ، أي من حيث إنهم منه تعالى وآثاره ومعلولاته وأضرأؤه وظلاله وخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة اليه تعالى كالحب والانس والمعرفة والإطاعة لخصوص النسبة ايضاً .

ومما يوضح المطلوب أن جميع اسباب ، مجتمعة في حق الله تعالى ولا توجد في غيره حقيقة ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل ومجاز محض لا حقيقة له ، أما السبب الأول اعني محبة النفس فمعلوم أن وجود كل أحد فرع لوجود ربه وظل له ، ولا وجود له من ذاته ، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف ، فوجوده ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله والى الله ، فهو الموجد المخترع له ، وهو المبتقى له ، وهو المكمل لوجوده بإيجاد صفات الكمال فيه ، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالإيجاد ، وهالك بعد وجوده لولا فضله عليه بالبقاء ، وناقص بعد بقاءه لولا فضله عليه بالتكميل ، فليس في الوجود شيء له قوام بنفسه إلا القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته ومقوم لغيره ، وحينئذ فمحبة كل شيء لنفسه ترجع الى محبة ربه وإن لم يشعر المحب به ، وكيف يتصور أن يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه مع أن من أحب الظل أحب بالضرورة الاشجار التي بها قوام الظل ، ومن أحب النور أحب لا محالة الشمس التي بها قوام النور ، وكل ما في الوجود بالاضافة الى قدرة الله تعالى كالظل بالاضافة الى الشجر والنور بالاضافة الى الشمس ، إذ الكل من آثار قدرته ، ووجوده تابع

لوجوده كما أن وجود الظل تابع لوجود الشخص ، ووجود النور تابع لوجود الشمس ، بل هذا المثل إنما هو للتفهيم ، وبالإضافة إلى أوهم العوام حيث يتوهمون أن الظل والنور تابعان للشخص والشمس ، وفايضان عنها وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما ، بل هما فائضان من الله تعالى ، موجودان به بعد حصول الشرائط كما أن أصل الشخص والشمس وشكلها وصورتهما وسائر صفاتها منه تعالى .

وأما السبب الثاني والثالث أعني الإلتئاذ والاحسان سواء كان متعمداً إلى المحب أم لا فمعلوم أنه لا لله ولا إحسان إلا من الله تعالى ، ولا محسن سوى الله فإنه خالق الاحسان وذويه ، وفاعل أسبابه ودواعيه ، وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسنفعاله ، وقطرة من بحار كماله وافضاله .

وأما الرابع أعني الحسن والجمال والكمال فلا ريب في أنه تعالى هو الجميل بذاته والكمال بذاته وهو الجمال الخالص ، والكمال المطلق ، وحقيقتهما منحصرة به تعالى ، وما يوجد في غيره تعالى من الجمال والكمال لا ينحلو عن شوائب الخلل والنقصان ، إذ النقص شامل لجميع الممكنات وإنما تتفاوت في درجات النقص وقد عرفت أن الجمال المعنوي أقوى من الجمال الصوري ، ومن كان من أهل البصيرة والكمال يكون حبه للجمال الباطن المعنوي أكثر وأقوى من حبه للجمال الصوري ، وحقيقة الجمال المعنوي الذي هو وجوب الوجود وكمال العلم والقدرة ، والاستيلاء على الكل ، واستناد الجميع إليه منحصراً بالله تعالى ، فإذا كان الجمال المشوب بالنقص محبوباً ، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذي لا يتصور جمال فوقه محبوباً ، بل المحبوب حقيقة ليس إلا هو .

باده خاك آلوده هان مجنون كند صاف اگر باشد ندانم چون كند
 على أن كل جميل بالجمال الظاهر الصوري ، أو بالجمال الباطن المعنوي
 رشحة من رشحات جماله ، وكل كامل فكمله فرع كماله ، فكل من احب جميلا
 أحب خالقه ، وما احب أحد غير الله تعالى لكنه اجتجب عنه تحت وجوه
 الاحباب واستار الاسباب ، هذا مع أن عمدة جمال المخلوقين إنما هو علمهم بالله
 وبصفاته وافعاله وقدرتهم على اصلاح نفوسهم بإزالة الرذائل والخبائث الشهوية
 المانعة عن التقرب الى الله تعالى ، وبائصافهم بمعالي الصفات وشرائفها المقربة
 الى الله وعلى اصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة ، ومعلوم أن هذه الامور اضافات
 الى الله سبحانه فجبها يرجع الى حبه تعالى .

وأما (الخامس) أعني المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية فلا ريب في أن
 للنفس الناطقة الانسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدتها ، إذ هي شمعة
 من شعلات جلاله ، وبارقة من بوارق جماله ، ولذا قال الله سبحانه : « قُلِ
 الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » (١) وقال : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » (٢)
 اذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة وبهذه المناسبة ينقطع العبد الى ربه ، ويعرفه
 عند ابتلائه بمصيبة وبليّة ، وهذه المناسبة لا تظهر ظهوراً تاماً إلا بالمواظبة على
 النوافل بعد احكام الفرائض كما قال الله تعالى : « لا يزال العبد يتقرب إلي
 بالنوافل حتى أحبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي
 يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به » وهذا موضع تزل فيه الاقدام حتى وقع
 قوم في التشبيه الظاهر ، وآخرون في الحول والاتحاد ، وأهل الحق الذين
 انكشفتم لهم استحالة التشبيه والاتحاد ، وفساد طرفي التفريط والافراط ،

واتضحت لهم حقيقة السر ، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليها هم الاقلون .
ثم من المناسبة الظاهرة التي بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله في الصفات
الربوبية والاخلاق الإلهية كالعلم والبر والاحسان واللفظ وافاضة الخير والرحمة
على الخلق وارشادهم الى الحق الى غير ذلك من الصفات الإلهية ، ولذا قيل :
تخلقوا باخلاق الله . ولا ريب في أن كل ذلك يقرب العبد الى الله ، ويصيره
مناسباً له ، وأما العلية والمعلولة فالامر فيه ظاهر ، وباقي الأسباب أسباب
ضعيفة نادرة اعتبارها في حق الله نقص .

وقد ظهر مما ذكر أن أسباب الحب بجملتها متظاهرة في حق الله تعالى
تحقيقاً لا مجازاً ، وفي أعلى الدرجات لا ادناها ، ثم كل من يحب أحداً من
الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته اياه في السبب .
والشركة نقصان في الحب لا يتصف احد بوصف محبوب إلا ويوجد شريك له
فيه ، والله سبحانه هو الذي لا يشاركه غيره في اوصاف الكمال والجمال لا وجوداً
ولا امكاناً ، فلا جرم لا يكون في حبه شركة ، فلا يتطرق اليه نقصان كما
لا تنطرق الشركة والنقصان الى اوصاف كماله ، فهو المستحق لأصل المحبة وكاملها ،
ولا متعلق للمحبة إلا هو ، إلا أنه لا يعرف ذلك إلا العارفون من أوليائه وأحبائه
كما قال سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفه بقوله : « وأنت الذي ازلت
الاغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا الى غيرك »

تأصيل

الشهود التام هو نهاية درجات العشق

قد صرح اساطين الحكمة بأن الأشياء المختلفة لا يمكن أن يحصل بينها
تشاكل وتآلف تام حتى يحصل بينها الاتحاد والمجبة ، وأما الأشياء المتماثلة
المتشاككة فيشتاق بعضها الى بعض ويسر بعضها ببعض ، ويحصل بينها التآلف
والحب والوحدة والاتحاد .

والتوضيح أن الجواهر البسيطة لتشاكلها وتماثلها يحن بعضها الى بعض
فيحصل بينها التآلف التام ، والتوحد الحقيقي في الذوات والحقائق بحيث
يرتفع عنها التغير والاختلاف ، إذ التغير من لوازم المادية ، وأما الماديات
فلا يمكن أن يحصل بينها هذا التآلف والتوحد ، ولو حصل بينهما تآلف
وشوق فإنما هو بتلاقي السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات ، وليس يمكن
أن يبلغ مثل هذه الملاقاة الى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال ،
فالجوهر البسيط المودع في الانسان اعني النفس الناطقة اذا صفي عن الكدورات
الطبيعية ، وتطهر عن الانخبات الجسمية ، وتخلي عن حب الشهوات والعلاقات
الدنيوية انجذب بحكم المناسبة الى عالم القدس ، وحدث فيه شوق تام الى اشباهه
من الجواهر المجردة ، ويرتفع منها الى ما هو فوق الكل ومنبمع جميع الخيرات
فيستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقي ، ومطالعة جمال الخير المحض ، وينمحي في
انوار تجلياته القاهرة ، ويصل الى مقام التوحيد الذي هو نهاية المقامات ،
فيفيض عليه من انواره ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على

خاطر ، فيحصل له من البهجة واللذة ما يضمحل عنده كل بهجة ولذة ، والنفس التي بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيراً في حالتي التعلق بالبدن والتجرد عنه ، إذ استعمال القوى البدنية لا يصدها عن ملاحظة الجمال المطلق ، وما يحصل لغيرها من السعادة في الآخرة يحصل لها في هذه النشأة :

امروز در آن کوش که بینا باشی
حیران جمال آن دلارا باشی
شرمت بادا چو کودکان در شب عید
تا چند در انتظار فردا باشی

نعم الشهود التام والابتهاج الصافي عن الشوب يتوقف على تجردها السكلي عن البدن، فانها وإن لا حظت بنور البصيرة في هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة إلا أن ملاحظتها لا تخلو عن شوائب السكرة الناشئة من الطبيعة ، فالصفاء التام يتوقف على التجرد السكلي ، ولذا تشاق ابدأ الى رفع هذا الحجاب ، ويقول :

حجاب چهره جان میشود غبار تنم
خوشا دمی که از این چهره برده بر فکنم
چنین قفس نه سرای چو من خوش الحانی است
روم بروضه رضوان که مرغ آن چمنم

وهذه المحبة نهاية درجات العشق ، وغاية الكمال المتصورة لنوع الانسان، وذروة مقامات الواصلين ، وغاية مراتب السكاملين ، فما بعدها مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها كالانس والرضا والتوحيد ، ولا قبلها مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالصبر والزهد وسائر المقامات ، وهذا العشق هو الذي افراط العرفاء وأرباب الذوق في مدحه ، وبالغوا في الثناء عليه ثناءً ونظماً وصرحوا بأنه غاية

الاتحاد والكمال المطلق ، ولا كمال إلا هو ولا سعادة إلا به كما قيل :

عشق است هر چه هست بگفتم وگفته اند

عشقت بوصول دوست رساند بضرب دست

وقيل :

جز محبت هر چه بدم سود در محشر نداشت

دين و دانش عرض كردم كس بچيزي بر نداشت

فصل

سريان الحب في الموجودات

اكثر اقسام المحبة فطرية طبيعية كمحبة المتناسبين والمتجانسين والعلّة والمعلول ومحبة الجنال وغير ذلك ، والارادي الكسبي منها قليل كمحبة المتعلم للمعلم وربما أمكن ارجاءه ايضاً الى الطبيعي ، واذا كان الحب طبيعياً فالاتحاد الذي من مقتضياته يكون ايضاً طبيعياً فيكون لذلك افضل من العدالة التي تقتضي الاتحاد الصناعي ، ثم مع وجود المحبة لا حاجة الى العدالة إذ هي فرع الكثرة المحوجة الى الاتحاد القشري ، فمع وجود الاتحاد الطبيعي لا يقع الاحتياج اليه ، وقد صرح قدماء الحكمة بأن قوام الموجودات وانتظامها بالمحبة ، والمحبة الفطرية ثابتة بينها ، وليس شيء من الموجودات خالياً عنها كما أنه ليس شيء منها خالياً عن الوجود والوحدة ، وقد صرحوا بأنه كل الوحدة فهو سار في جميع الكائنات من الافلاك والعناصر والمركبات ، إذ الحب والشوق الى التشبه بالفاعل رقص الافلاك ، وادار رحاها بسم الله بجراها ومرساها ،

والحب هو سبب ميل العناصر الى اجسادها الطبيعية ، وميل المركبات بعضها الى بعض :

سرّ حب ازلي بر همه اشيا سار يست ورنه بر گُل نژدي بلبل بيلد فرياد
ثم لما كانت المحبة التي هي ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال ، وضدها
موجباً للفساد والاختلال ، ولكل منهما مراتب ودرجات فتختلف الموجودات
بحسبها في درجات الكمال والنقصان ، والمتأخرون خصصوا الحب بذوي العقول ،
فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر الى مراكزها ، وميل المركبات بعضها
الى بعض كميل الحديد الى المغناطيس ، ولا اسم الكراهة والبغض على المنافرة
التي بينها كمنافرة الحجر الباغض الحل من الحل ، بل يسمونها بالميل والهرب ،
وكذا الموافقة والمعادات اللتين بين العُجَم من الحيوانات لا يطلقون عليها
اسم الحب والبغض ، بل يسمونها بالالف والنفرة .

فصل

رد المنكرين لحب الله

قد ظهر مما ذكر ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والانس لله تعالى
وأنة المستحق للحب دون غيره ، وبذلك ظهر فساد زعم من أنكر امكان حصول
محبة العبد لله تعالى وقال : « لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله ، وأما
حقيقة المحبة فمخال إلا مع الجنس والمثل » .

ولما أنكروا المحبة أنكروا الانس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم
الحب وثوابه وبطل على فساد هذا القول مضافا الى ما ذكر اجماع الامة على كون

الحب لله ورسوله فرضاً ، وما ورد في الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه واتصاف الأنبياء والأولياء به ، وحكايات المحبين وقد بلغت من الكثرة والصراحة حداً لا يقبل الكذب والتأويل ، فمن شواهد القرآن قوله تعالى : « يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ » (١) وقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ » (٢) وقوله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » (٣) إلى قوله : « أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » (٤) إلى آخر الآية .

وأما الأخبار الواردة والآثار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » وقال صلى الله عليه وآله : « الحب من شروط الإيمان » وقال صلى الله عليه وآله : « احبوا الله لما يغذوكم به من نعمه واحبوني لحب الله » وقد نظر صلى الله عليه وآله إلى بعض اصحابه مقبلاً وعليه إهاب كبش فقال صلى الله عليه وآله : « انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نورت له قلبه ، لقد رأيت بين أبيه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون » وقال صلى الله عليه وآله : « اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب من يقر ببي إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد » وفي الخبر المشهور أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : « هل رأيت خليلاً يميت خليفه » فأوحى الله تعالى إليه : « هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبيه » فقال : « يا ملك الموت الآن فاقبض » وأوحى الله إلى موسى عليه السلام : « يا ابن عمران كذب

(١) المائدة الآية ٥٩ . (٢) البقرة الآية ١٦٠ .

(٣) التوبة الآية ٢٤ .

من زعم أنه يحبني فاذا جنَّه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ،
ها أنا ذا يا ابن عمران مطلع على احبائي ، إذا جنهم الليل حولت ابصارهم
الى من قلوبهم ، ومثلت عقوبتي بين اعينهم ، يخاطبوني عن المشاهدة ،
ويكلموني عن الحضور ، يا ابن عمران هب لي من قلبك الخشوع ، ومن
بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع في ظلم الليل فانك تجدني قريباً ،
وروي أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد تحللت ابدانهم ، وتغيرت ألوانهم
فقال لهم : « ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ » فقالوا : الخوف من النار ، فقال :
« حق على الله أن يؤمن الخائف » ، ثم جاوزهم الى ثلاثة أخرى فاذا هم أشدّ
نحولاً وتغيراً فقال لهم : « ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ » فقالوا : الشوق الى الجنة ،
فقال : « حق على الله أن يعطيكم ما ترجون » ، ثم جاوزهم الى ثلاثة أخرى
فاذا هم أشدّ نحولاً وتغيراً ، كأن على وجوههم المرايا من النور فقال : « ما الذي
بلغ بكم ما أرى ؟ » قالوا حسب الله عز وجل فقال : « انتم المقربون » ، وفي بعض
الروايات أنه عليه السلام قال للطائفتين الأوليين : « مخلوقاً خفتم ، ومخلوقاً
رجوتم » وقال للطائفة الثالثة : « انتم اولياء الله حقاً ، معكم أصرت أن اقيم »
وقال رسول الله صلى الله عليه وآله « إن شعيباً عليه السلام بكى من حب الله
عز وجل حتى عمي فردّ الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره ،
فلما كانت الرابعة أوحى الله اليه : يا شعيب الى متى يكون هذا أبداً منك ،
إن يكن هذا خوفاً من النار فقد اجرتك ، وإن يكن شوقاً الى الجنة فقد اجحتك »
فقال : « إلهي وسيدي أنت تعلم أنني ما بكيت خوفاً من نارك ، ولا شوقاً
الى جنتك ، ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك » فأوحى الله :
« أما إذا كان هذا هكذا سأخدمك كليعي موسى بن عمران » ، وروي أنه جاء

اعرابي الى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال صلى الله عليه وآله : « ما أعددت لها ؟ » قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أنني أحب الله ورسوله فقال له النبي : « المرء مع من أحب » ، وفي أخبار داود : « قل لعبادي المتوجهين الى محبتي ما ضرتكم إذا احتجبتهم عن خلقي إذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا الي بعيون قلوبكم ، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذ بسطت ديني لكم ، وما ضركم مسخطة الخلق إذ التستم رضائي » ، وفيها أيضاً « يا داود إنك تزعم أنك تحبني ، فإن كنت تحبني فاخرج حب الدنيا عن قلبك فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب » وقال امير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل : « فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك فكيف اصبر على فراقك » وقال عليه السلام : « إن لله تعالى شرباً لا وليائه إذا شربوا سكروا وإذا سكروا طربوا وإذا طربوا طابوا وإذا طابوا ذابوا وإذا ذابوا خلصوا وإذا خلصوا طلبوا وإذا طلبوا وجدوا وإذا وجدوا وصلوا وإذا وصلوا اتصلوا وإذا اتصلوا لافرق بينهم وبين حبيبتهم » (١) وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة : « أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب احبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا الى غيرك » ، وقال عليه السلام : « يا من أذاق احبائه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين » ، وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة الى سيد الساجدين عليه السلام : « وعزتك لقد أحبتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها ، وانست نفسي ببشارتها ، ومحال في عدل أقضيتك أن تسد أسباب رحمتك عن معقدي محبتك » ، وفي مناجاته الأخرى « إلهي فاجعلنا

(١) لم نعثر على مصدر لهذه الرواية في كتب اصحابنا الامامية

من الذين توشحت اشجار الشوق اليك في حقائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم » ، ثم قال : « والحقنا بعبادك الذين هم بالبدار اليك يسارعون ، وبابك على الدوام يطرقون ، واياك في الليل والنهار يعبدون ، وهم من هيبتك مشفقون ، الذين صفيت لهم المشارب ، وبلغتهم الرغائب ، وانجحت لهم المطالب ، وقضيت لهم من وصلك المآرب ، وملأت لهم ضمائرهم من حبك ، ورزيتهم صافي شربك ، فبك الى لذيذ مناجاتك وصلوا ، ومنك على أقصى مقاصدهم حصلوا » . ثم قال : « فقد انقطعت اليك همتي ، وانصرفت نحوك رغبتني ، فأنت لا غيرك مرادي ، ولك لا سواك سهري وسهادي ، ولقاؤك قرّة عيني ، ووصلك مني نفسي ، واليك شوقي ، وفي محبتك وهي ، والى هواك صبابتي ، ورضاك بغيتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلبي ، وقربك غاية مسألتي ، وفي مناجاتك رَوْحِي وراحتي ، وعندك دواء علمتي ، وشفاء غلتي ، وبرد لوعتي ، وكشف كربتي » ، ثم قال : « ولا تقطعني عنك ، ولا تباعدني منك ، يا نعيمي وجنتي ، ويا دنياي وآخرتي » وقال عليه السلام ايضاً : « إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً ، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا ، إلهي فاجعلني ممن أصطفيتهم لقربك وولايتك ، وأخلصته لودك ومحبتك ، وشوقته الى لقائك ، ورضيتهم بقضائك ، ومنحته بالنظر الى وجهك ، وحبوته برضاك ، وأعدته من هجرتك » ثم قال : « وهيمت قلبه لارادتك ، واجتبيته لمشاهدتك ، وأخليت وجهه لك ، وفرغت فؤاده لحبك » ، ثم قال : « اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح اليك والحنين ، ودهرهم الزفرة والآنين ، وجباههم ساجدة لعظمتك ، وعيونهم ساهرة في خدمتك ، ودموعهم سائلة من خشيتك ، وقلوبهم معلقة بمحبتك ، وافئدتهم منغلقة من مهابتك ، يا من أنوار قدسه لا تبصر محبيه

رائقة ، وسُبُحات نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة ، يا منى قلوب المشتاقين ،
ويا غاية آمال المحبين ، أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل الى
قربك ، وأن تجعلك أحب إلي من سواك « وقال عليه السلام أيضاً : « إلهي
ما ألد خواطر الإلهام بذكرك على القلوب ، وما أحلى المسير اليك في مسالك
الغيوب ، وما أطيب طعم حبك ، وما أعذب شرب قربك » وقال عليه
السلام أيضاً : « وغلتي لا يبردها إلا وصلك ، ولوعتي لا يطفئها إلا نقوءك ،
وشرقي اليك لا يبدله إلا النظر الى وجهك ، وقراري لا يقرُّ دون دنوي منك ،
ولمعتي لا يردها إلا رؤيتك ، وسقمي لا يشفيه إلا طببك ، وغمي لا يزيله إلا
قربك ، وجرحي لا يبرؤه إلا صفحك ، ودين قلبي لا يجلوه إلا عفوك ،
ووسواس صدري لا يزيحه إلا أمرك » (١) وقال الصادق عليه السلام : « حب
الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله ، والمحـب
أخلص الناس سرّاً لله ، وأصدقهم قولاً ، وأوفاهم عهداً ، وأزكاهم عملاً ، وأصفاهم ذكراً ،
وأعبداهم نفساً ، تتباهى الملائكة عند مناجاته ، وتفتخر برؤيته ، وبه يعمر الله
ببلاده ، وبكرامته يكرم الله عباده ، ويصطيهم إذا سألوه بحقه ، ويدفع عنهم البلاء
برحمته ، ولو علم الخلق ما محله عند الله ومنزله لديه ما تقربوا الى الله إلا بتراب
قدميه » وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « حب الله نارا لا يمر على شيء إلا
احترق ، ونور الله لا يطلع على شيء إلا أضاء ، وسما الله ما ظهر من تحته شيء
إلا غطاه ، وريح الله ما تهب في شيء إلا حركته ، وماء الله يحيي به كل شيء ،
وأرض الله ينبت منها كل شيء ، فمن أحب الله أعطاه كل شيء من الملك والميلك »

(١) صحاحنا فقرات المناجاة الانجيلية والمناجاة الأخرى على البحار المتجدد

التاسع عشر . باب أدعية المناجاة من ص ١٠٧ الى ص ١١٤ .

قال النبي صلى الله عليه وآله : « إذا أحب الله عبداً من امتي قذف في قلوب
 اصفیائه وأرواح ملائکته وسکان عرشه محبته ليجبوه فذلك المحب حقاً ، طوبى
 له ثم طوبى له وله عند الله شفاعة يوم القيامة » (١) الى هنا كلام الصادق عليه
 السلام ، وما ورد في الحب من الاخبار والأدعية المعصومية أكثر من أن يحصى
 وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من السكثرة والتواتر حداً يمكن إنكاره ،
 وقد روي أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه بعض أهل محبته فقال له :
 « ايت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفساً ، فيهم شبان وكهول ومشايخ ، وإذا
 أتيتهم فاقراهم مني السلام ، وقل لهم يقول ربكم ألا تسألوني حاجة فإنكم أحبائي
 وأصفیائي وأوليائي افرح لفرحكم واسارع الى محبتكم » فاتاهم داود فوجدهم
 عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله وملكوته فلما نظروا الى داود نهضوا
 ليتفرقوا عنه فقال لهم داود : « أنا رسول الله اليكم جئتكم لا ببلغكم رسالة ربكم »
 فاقبلوا نحوه والقوا أسماعهم نحوه قوله والقوا أبصارهم الى الأرض فقال داود :
 « ربكم يفرقكم السلام ويقول لكم : ألا تسألوني حاجة . ألا تنادوني فاسمع
 صوتكم وكلامكم فإنكم أحبائي وأصفیائي وأوليائي . افرح لفرحكم واسارع
 الى محبتكم ، وانظر اليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة » ولما قال
 داود ذلك جرت الدموع على خدودهم . وسبّح الله كل واحد منهم ومجّده ،
 وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق .

(١) صحیحنا الاحادیث الثلاثة علی مصباح الشریعة . البسّاب الساب

فصل

معرفة الله اقوى سائر الذات

قد عرفت أن الحب هو الميل الى الشيء الملائم للملائم للمدرك والابتهاج
بإدراك الملائم ونيله ، واللذة هي نفس إدراك الملائم الملائم ونيله ، وهذا الإدراك
إن كان متعلقاً بالقوة العاقلة أي إن كان المدرك هو القوة العاقلة عبر عنه بالعلم
والمعرفة وقد عرفت أنه اقوى واشد وأشرف من الإدراكات الحسية التي هي
الابصار والاستماع والذوق والشم واللمس .

ثم هذا الإدراك أعني العلم والمعرفة يختلف أيضاً في الشرافة والكمال
بحسب شرافة المدرك أي المعلوم ، فكلما كان المدرك أجل وأشرف كان
الإدراك أي المعرفة به أجل وأعلى . ولا ريب في أن الواجب سبحانه أشرف
الموجودات وأجلها ، فالمعرفة به أعلى المعارف وأشرفها ، ويثبت من ذلك أن
أجل الذات وأعلاها هو معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم ، ولا يتصور
أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة (وبيان) ذلك بوجه أوضح
أن الذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ،
ولكل قوة وغريزة لذة ، ولذتها عبارة عن نيلها مفتضى طبعها الذي خلقت له ،
فغريزة الغضب لما خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام ،
وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به الفؤاد فلا جرم لذتها في نيل
الغذاء ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والابصار والاستشمام ،
وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنة خلقت لتعلم بها حقائق الأشياء كلها فآلتها

في العلم والمعرفة ، والعلم لكونه منتهى الكمال واخص صفات الربوبية يكون اقوى اللذات والابتهاجات ، ولذلك يرتاح الطبع اذا أُثني عليه بالذكاء وغزارة العلم لانه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه ، فيعجب بنفسه ، ويلتذ به .

والتحقيق أن الادراك والنيل الذي هو الكمال ليس إلا العلم وسائر الادراكات اعني نيل الغلبة والغذاء والاستماع والابصار والاستشمام لا تعد كالات ، ثم ليست لذة كل حلو واحدة فإن لذة العلم بالحراثة والخياطة والحياكة ليست كلذة العلم بسياسة الملك وتدير امور الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر والنواريح كلذة العلم بالله وبصفاته وملائكته وملوكوت السماوات والارض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فإن كان في المعلومات ما هو الاشرف الاجل والاعظم والاكمل فالعلم به الذ المعلوم واشرفها واكملها واطيبها ، وليت شعري هل في الوجود شيء اعلى واجمل واشرف واكمل من خالق الأشياء كلها وقيومها ومكملها ومربيها ومُبدئها ومهيئها ومديرها ومربيها ، وهل يتصور أن يكون احد في الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء اعظم من ذاته في صفات الكمال ونعوت الجلال فوق التمام وقدرته وعظمته وملكوته وعلمه غير متناهية ، فان كانت لا تشك في ذلك فينبغي ألا تشك في أن لذة المعرفة به اقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة الباطنة وغريزة المعرفة ، فان اللذات مختلفة بالنوع أولاً كمخالفة لذة الوقاع ولذة السماع ولذة المعرفة ولذة الرئاسة ، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشبق المغتلم (١) من اجماع ، ولذة الفاتر الشهوة منه ،

(١) الغلظة وزان غرفة شدة الشهوة . وعلم غلاما من باب تعب .

اذا اشتد شبقه . المغتلم المنقاد للشهوة .

وكمخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل ، ولذة النظر الى الوجه الأجمل ، ومخالفة لذة العلم باللغات ، ولذة العلم بالسمويات ، وإنما يعرف أقوى اللذتين من اضعفها بأن يؤثر عليه فان الخير بين النظر الى صورة جميلة ، وبين استنشاق روائح طيبة اذا اختار الأول كان عنده الذ من الثاني ، والخير بين الأكل واللعب بالشطرنج اذا اختار الثاني كانت لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل ، وهذا معيار في الكشف عن ترجيح اللذات وحينئذ نقول :

لا ريب في أن المعاني والذات الباطنة اغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة أكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء ، فان كان عالي الهمة ، كامل العقل اختار الرئاسة ، وترك الأكل ، وصبر على الجوع أياماً كثيرة فضلاً عن مدة قليلة ، نعم إن كان خصيس الهمة ميت القلب ، ناقص العقل والبصيرة كالصبي والمعتوه ربما اختار لذة الأكل ، ورفع مثله ليس حجة . ثم كما أن لذة الرئاسة والكرامة اغلب وأرجح من اللذات الحسية عند من جاوز نقصان الصبي والافاهة فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية الذ عنده من لذة الرئاسة بشرط أن يكون ممن ذاق اللذتين وادركهما ، فلو كان ممن لم يندق لذة المعرفة بالله لم يكن أهلاً للترجيح ومجلاً للكلام لاختصاص لذة المعرفة بمن نال رتبته وذاقها ، ولا يمكن اثبات ذلك عند من ليس له قلب ، كما لا تثبت لذة الإبصار عند الأعشى ، ولذة الاستماع عند الأصم ، ولذة الوقاع عند العنين ، ولذة الرئاسة عند الصبي والمعتوه ، وليت شعري من لا يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤثر بلذة النظر الى وجه الله تعالى ، وليس له شبه وشكل وصورة ، فحقيقة الحال كما قيل : « من ذاق عرف » ، فمن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعاً ، ويستحقق أهلها لكونها

مشوبة بالكسورات ، ومتطورة بالموت ، ويختار للذة المعرفة بالله ، ومطالعة صفاته وأفعاله ، ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية عن الانقطاع ، والمكدرات متصلة للمتواردين عليها لا تضيق بكثرة دأئها ، وعرضها من حيث التفهيم والتشيل اعظم من السماوات والأرض ومن حيث الواقع ونفس الأمر فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال المعارف بمطالعتها ومشاهدتها في جنة غير متناحية الاطراف والاقطار ، يرتع في رياضها ، ويكرع (١) في حياضها ، ويقطع من أثمارها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة بل هي أبدية سرمديّة لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم النفس الناطقة التي هي محل المعرفة وإنما تقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من جمعتها ، فاذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض بل أقطار عالم الربوبية التي هي غير متناهية ميدان للعارفين يقبؤون منها حيث يشاؤون من غير حاجة إلى حركة اجسامهم ، ومن غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً ، إلا أنهم يتفاوتون في سعة ميادينهم بحسب تفاوتهم في اتساع الأنظار وسعة المعارف ، « ولا تكمل درجاتٌ مما عملوا » ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم ، ومن عرف هذه اللذة انمحت همومه وشهواته ، وصار قلبه مستغرقاً بنعيمها ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغله لذات الدنيا وعلاقتها . وكان في الدنيا والآخرة مشغولاً بربه ، فلو اتى في النار لم يحس به لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية ، ولعل سيد الرسل صلى الله عليه وآله صبر عن هذه اللذة أي لذة مطالعة جمال الربوبية حيث قال حاكياً عن الله سبحانه : « أعددت لعبادي الصالحين

(١) كرع . من باب نزع هو الشرب بفيه من موضعه

ملا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، وهذه اللذة هي المرادة من قوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » ، وربما تُعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ومع ذلك لا يخلو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصول الى كنهها ما لم يحصل التجرد الكلي وخلع البدن العنصري ، ولذلك قال بعضهم إني أقول : « يارب يا الله ، فاجد ذلك اثقل على قلبي من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادى جليسه » . ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة عرف أن اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة منطوية تحت هذه اللذة كما قيل :

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت منذ رأيتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى منذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا ديني ودنياي

فصل

تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقاءه

اعلم أن معرفة الله اذا حصلت في الدنيا لم تكن خالية عن كدرة ما ، كما اشير اليه إلا أنه اذا اكتسب أصلها في الدنيا فيزيدها في الآخرة انكشافا وجلاء بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية الى أن يصير أجلى وأظهر من المشاهدة بمراتب ، فلاختلاف بين ما يحصل في الدنيا من المعرفة وما يحصل في الآخرة من المشاهدة واللقاء إنما هو بزيادة الانكشاف والجلاء..

مثال ذلك أن من رأى إنساناً ثم غض بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها ، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بين حالتي غض العين وفتحها ، ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بين الصورتين لآحادهما ، بل الافتراق إنما هو بمزيد الكشف والوضوح ، فالصورة المتخيلة صارت بالرؤية أتم انكشافاً ، فإذا الخيال أول الإدراك ، والرؤية استكمال لإدراك الخيال وهي غاية الكشف لأنها في العين ، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المتجلي في الصدر أو الجهة أو أي عضو فرض استحق أن يسمى رؤية ، وإذا فهمت هذا في التخيلات أي المدركات التي تدخل في الخيال من الصور والأجسام فقس عليه الحال في المعلومات أي ما يدرك بالعقل ، ولا يدخل في الخيال كذات الباري وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة وغيرها فإن لمعرفتها وإدراكها أيضاً درجتين (أحدهما) أولى (والثانية) استكمال لها ، وبينهما من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي ، فتسمى الثانية بالاضافة الى الاولى لقاء ومشاهدة ورؤية ، وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف ، وكما أن سنة الله جارية بأن تطبق الاجفان يمنع من تمام الكشف الذي هو الرؤية في التخيلات ، فكذلك سنته أن النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته لم يحصل لها تمام الكشف الذي هي المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال ، فإذا ارتفع بالموت حجاب البدن ، وخلصت النفس ، لم يكن بعد في غاية التنزه عن كدورات الدنيا ، بل كانت ماوثة بها إلا أن النفوس مختلفة في ذلك (فمنها) ما تراكم عليه الخبث والصدى فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الاصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم ابد الآباد نعموذ بالله من ذلك (ومنها) ما لم

ينته الى حد الرين والطبع ؟ ولم يخرج عن قبول التذكية والتصقيل ؟ وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب ؟ اذ المتلوث بالكدورات عرض عريض في (الواقع) بين الرين والطبع ؟ وبين التذكية التامة والتجرد الكلي الذي لم يكن فيه شوب من السكدورات ؟ وهذه النفوس المتلوة على اختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج الى التطهير لتستعد للمشاهدة واللقاء بتجلي الحق فيها ، وتطهيرها إنما هو بنوع عقوبة من العقوبات الاخرية وهي كراتب التلوث غير متناهية الدرجات ، أولها سكرة الموت ، وآخرها الدخول في النار ، وما بينهما عقوبات البرزخ واهوال القيامة بأنواعها ، فكل نفس لا بد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتطهر من كدورتها (فمنها) ما يتطهر بمجرد سكرة الموت وشدة النزاع (ومنها) ما يتطهر بها وينقص عقوبات البرزخ (ومنها) ما لا يتطهر إلا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة (ومنها) ما لا يحصل تطهيره إلا بالعرض على النار عرضاً يجمع منها الخبث الذي تدنس به ، وربما كان ذلك لحظة حقيقة ، وربما كان سبعة آلاف سنة كما وردت به الأخبار ، وربما كان اقل أو أكثر ولا يعلم تفصيل ذلك إلا الله سبحانه ، والمحجوبون الذين بلغوا حد الرين والطبع يكونون مخلصين في النار .

ثم النفوس القابلة للتطهير اذا اكمل الله تطهيرها وتزكيتها ، وبلغ الكتاب اجله استعدت حينئذ لصفائها ونقاؤها عن السكدورات لأن تتجلي فيها جلالة الحق فتتجلي فيها تجلياً يكون انكشاف تجليه بالاضافة الى ما علمته وعرفته كانكشاف تجلي المرئيات بالاضافة الى المنشئلات ، وهذه المشاهدة والتجلي تسمى رؤية لأنه في الظهور والجلال والوضوح والانكشاف كالرؤية بالبصر ، بل هو فوقه بمراتب شتى ، إذ الرائي في الأول العقل ، وفي الثاني البصر ، وشتان

ما بينهما ، فإن الاختلاف في مراتب الإدراك والرؤية بحسب اختلاف نورية المدرك ، وأي نسبة لنورية البصر الى نورية العقل واشراقه ، وما للعقل من النفوذ في حقائق الأشياء وبواطنها أنى يكون للبصر . وقد ظهر مما ذكر أنه لا يفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة إلا العارفون في الدنيا لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة ، والبذر زرعاً ، ومن لا نواة له كيف يحصل له النخل ، ومن لم يُلقِ البذر كيف يحصد الزرع ، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ، ومن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في العقبى ، إذ لا يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ، فلا يحصد المرء إلا ما زرع ، ولا يحشر إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه .

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة يكون التجلي أيضاً على درجات متفاوتة . فاختلاف التجلي بالاضافة الى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالاضافة الى اختلاف البذور ، إذ يختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وجودتها ورداءتها وقوتها وضعفها . ثم كلما كان التجلي والمشاهدة أقوى كان ما يترتب عليه من حب الله والانس به أشد وأقوى ، وكلما كان الحب والانس أزيد كان ما يترتب عليه من البهجة واللذة أعلى وأقوى ، وتبلغ هذه اللذة مرتبة لا تؤثر عليها لذة أخرى من نعيم الجنة ، بل ربما بلغت حداً تنأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته ، فالنعمة والبهجة في الجنة بقدر حب الله ، وحب الله بقدر معرفته فاصل السعادات هي المعرفة التي عبّر الشرع عنه بالإيمان (فإن قيل) اللقاء والمشاهدة إن كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحقق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة لكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة ، وإن كانت أضعاف لذة

المعرفة إذ هي في الدنيا ضعيفة فتضاعفها الى أي حد فرض لا ينتهي في القوة إلا أن يستحق في جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها « قلنا » هذا الاستحقاق والتقليل للذة المعرفة باعثه عدم المعرفة أو ضعفها فإن من خلا عن المعرفة ، أو كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا لا يدرك لذتها ، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريره قويت بهجته ، واشتدت لذته بحيث لا توازنها لذه ، فإن للعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله عز وجل ابتهاجات ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوها بها . ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبته لها أصلاً الى لذة اللقاء والمشاهدة كما لا نسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته ، ولا اللذة استنشاق روائح الأطعمة الطيبة الى ذوقها واكلاها ، ولا اللذة اللبس باليد الى لذة الوقاع .

ومما يوضح ذلك أن لذة النظر الى وجه المعشوق تتفاوت بأمور « أحدها » كمال جمال المعشوق ونقصانه « وثانيها » كمال قوة الحب والشهوة وضعفه « وثالثها » كمال الإدراك وضعفه فإن الإنداز برؤية المعشوق في ظلمة أو من بعد أو من وراء ستر رقيق ليس كالإنداز برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء « ورابعها » عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها ، فإن التناذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر الى المعشوق ليس كالإنداز الخائف المذعور أو المريض المتألم ، أو المغمول قلبه بهم من المهمات فلو كان العاشق ضعيف الحب ناظراً الى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق ، مشغول القلب بمهمات ، مجتمعه عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلدعه لم يكن خالياً عن لذة ما في هذه الحالة من مشاهدة معشوقه إلا أنه إذا فرض ارتفاع الستر وإشراق الضوء واندفاع الحيات والعقارب المؤذية ، وفراغ قلبه من المهمات ، وحدوث عشق مفرط ، وشهوة قوية بحيث بلغت أقصى

الغايات تضاعفت لذته بحيث لم تكن لذته الأولى نسبة إليها بوجه ، فكذلك الحال في نسبة لذة المعرفة في الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال بهماته ، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها من الجوع والعطش والشبق والفضب والحزن والهم ، ومع ضعف النفس وقصورها ونقصانها في الدنيا عن التشوق الى الملائكة الأعلى لا لانتقامها الى أسفل السافلين الى لذة اللقاء والمشاهدة التي يندفع فيها جميع ذلك عن النفس ، فالعارف لعدم خلوه في الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وإن قويت معرفته لا يمكن أن تسكمل لذته وتصفو بهجته ، وإن ضعفت عوائقه ومشوشاته في بعض الأحوال وبقي سالماً للاح له من جمال المعرفة ما تعظم لذته وبهجته ويدهش عقله بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته إلا أن ذلك كالبرق الخاطف ولا يمكن أن يدوم إذ الخلو عن العوائق والمشوشات ليس يمكن أن يدوم بل هو آني ويعرض بعد الآن من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه وهذه ضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية ، فلا تزال هذه اللذة منقصة الى الموت ، وإنما الحياة الطيبة بعده ، وإنما العيش نعيش الآخرة فإن الدار الآخرة هي الحياتوان لو كانوا يعلمون ، ولذا كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله يحب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ارادة زيادة استكمال في المعرفة ، فإن المعرفة كما عرفت بمنزلة البذر ، وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته قويت المشاهدة واشتدت وكثر النعيم في الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن . ولا ريب في أن المعرفة لا تنتهي الى مرتبة لا تكون فوقها مرتبة ، إذ بحر المعرفة لا ساحل له ، والاحاطة بكسبه جلال الله محال ، فالعارف وإن قويت معرفته ربما أحب طول العمر ، وكره الموت لتزداد معرفته . ثم أهل السنة قالوا إن الرؤية في الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصوير

والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان تكون بالعين دون القلب (وهو عندنا باطل) إذ الرؤية بالعين محال في حق الله تعالى سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة ، فكما لا تجوز رؤية الله سبحانه في الدنيا بالعين والبصر فكذلك لا تجوز في الآخرة ، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لأهل البصائر اعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدي الى المشاهدة واللقاء فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى . والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد ، فإن العارفين وأولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع احوالهم ومنصرفاتهم وإن كان الحاصل في الآخرة أزيد انكشافاً وأشدّ انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية كما تقدم مفصلاً ، وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة ، روى شيخنا الأقدم (محمد بن يعقوب الكليني) وشيخنا الصدوق (محمد بن علي بن بابويه) برحمتهما الله بإسنادهما الصحيح عن الصادق عليه السلام أنه سئل عما يروون من الرؤية فقال : « الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي ، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش » والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب ، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر ، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من نور الشمس ليس دونها سحاب » ، وإسنادهما عن أحمد ابن اسحاق قال : كتبت الى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس فكتب : « لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الراي والمرئي هواء ينفذ البصر ، فإذا انقطع الهواء عن الراي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه لأن الراي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه وكان ذلك التشبيه لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمبهمات »

وعن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال : قلت له أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمنون يوم القيامة ؟ قال : « نعم وقد رأوه قبل يوم القيامة » فقلت متى ؟ قال : « حين قال : لهم ألسنت بربكم ، قالوا : بلى » ثم سكوت ساعة ثم قال : « وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة ألسنت تراه في وقتك هذا ! » قال أبو بصير : فقلت له جعلت فداك فحدث بهذا عنك فقال : « لا إفانك إذا حدثت به فانككره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ، ثم قدتر أن ذلك تشبيه ككفر ، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون » وسئل أمير المؤمنين عليه السلام هل رأيت ربك حين عبدته فقال : « ويلك ما كنت أعبد رباً لم أره » قيل وكيف رأيتَه قال : « ويلك لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان » (١) وقال سيد الشهداء عليه السلام : « كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفترق اليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يـكـون هو المظهر لك ، متى ضبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآنار هي التي توصل اليك ، نعتيت عين لا تراك عليها رقيباً ، وخسرت صفقة عبد لهم نجعل من حبك نصيباً » وقال عليه السلام ايضاً : « تعرفت لكل شيء فماجهلك شيء » وقال : « وأنت الذي تعرفت إلي في كل شيء فرأيتك ظاهراً في كل شيء وأنت الظاهر لكل شيء » (٢) وأمثال ذلك مما ورد عنهم عليهم السلام أكثر من أن تحصى .

(١) صحيحنا الأحاديث كلها على اصول الكافي الجزء الأول . باب ابطال

الرؤية . وعلى الوافي ج ١ . باب ابطال الرؤية ص ٦٩ .

(٢) صحيحنا فقرات دعاء عرفة على « مفاتيح الجنان ، طبعة السكراوري

فصل

الطريق الى الرؤية واللقاء

الطريق الى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء امران :

(احدهما) تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلاقتها ، والتبتل الى الله بالذكر والفكر ، ثم اخراج حب غير الله من القلب إذ القلب مثل الاناء الذي لا يسع الماء مثلاً ما لم يخرج منه الخلل ، وما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه ، وكلال الحب في أن يحب الله بكل قلبه ، وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، وبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله إلا أن يكون إلتفاتة الى الغير من حيث إنه صنع الله تعالى وفعله ، ومظهر من مظاهر اسماء الله تعالى ، والى هذا التجريد والتفريد الاشارة بقوله تعالى : « قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ » (وثانيها) تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب ، والاول اعني قطع العلائق بمنزلة تنقية الارض من الحشائش ، والثاني أي المعرفة بمنزلة البذر فيها ليتولد منه شجر المحبة .

ثم لتحصيل المعرفة طريقان (احدهما) الاعلى وهو الاستدلال بالحق على الخلق ، وذلك بأن يعرف الله بالله وبه يعرف غيره أي افعاله وآثاره ، والى هذا اشير في الكتاب الإلهي بقوله : « أَوَلَمْ يَكْفِرْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (١) ، وهذا الطريق غامض وفهمه صعب على الاكثرين وقد اشرنا الى كسيفيته في بعض كتبنا الإلهيات (وثانيها) وهو الادنى

الاستدلال بالخلق على الحق سبحانه ، وهذا الطريق في غاية الوضوح ، واكثر الافهام يتمكن من سلوكه ، وهو متسع الاطراف ، ومتكثر الشعوب والاكناف ، إذ ما من ذرة من أعلى السماوات الى تخوم الارضين إلا وفيها عجائب آيات ، وغرائب بينات تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفِيذَ كَلِمَاتُ رَبِّي » (١) وعدم وصول بعض الافهام من هذا الطريق الى معرفة الله مع وضوحه إنما هو للاعراض عن التفكير والتدبر والاشتغال بشهوات الدنيا وحفظ النفس . ثم سلوك هذا الطريق أي الاستدلال على الله تعالى وعلى كمال قدرته وعظمته بالتفكر في الآيات الآفاقية والانفسية خوض في بحار لا ساحل لها ، إذ عجائب ملكوت السماوات والارض مما لا يمكن أن تحيط به الافهام ، فإن القدر الذي تبلغه افهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضي الاعمار دون ايضاحه ، ولا نسبة لما احاط به علمنا الى ما احاط به علم العلماء ، ولا نسبة له الى ما احاط به علم الانبياء ، ولا نسبة له الى ما احاط به علم الخلائق كلهم ، ولا نسبة له الى ما استأثر الله بعلمه بل كلما عرفه الخلائق جميعاً لا يستحق أن يسمى علماً في جنب علم الله ، ونحن قد اشرنا الى لمعة يسيرة من عجائب حكمته المودعة في بعض مخلوقاته في مبحث التفكير .

فصل

تفاوت المؤمنين في محبة الله

اعلم أن المؤمنين جميعاً مشتركون في اصل محبة الله لاشتراكهم في أصل الإيمان ولكنهم متفاوتون في قدرها وسبب تفاوتهم امران (احدهما) اختلافهم في المعرفة وحب الدنيا فإن أكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلا ما قرع أسماعهم من كونه متصفاً بصفات كذا وكذا من دون وصول الى حقيقة معناها وإلا اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة صادرة عنه من غير تدبر في عجائب القدرة وغرائب الحكمة المودعة فيها .

وأما العارفون فلهم الخوض في بحر التفكير والتدبر في انواع المخلوقات ، واستخراج ما فيها من الحكم الخفية ، والمصالح العجيبة التي كل واحد منها كشمعة في إزالة ظلمة الجهل ، والهداية الى كمال عظمة الله ، ونهاية جلاله وكبريائه فتمثل الاكثرين كمثل عالمي أحب عالماً بمجرد استماعه أنه حسن التصنيف من دون علم ودراية بما في تصانيفه فتكون له معرفة مجملة ويكون له بحسنه ميل مجمل ، ومثل العارفين كمثل عالم فتش عن تصانيفه واطلع على ما فيها من دقائق المعاني وبلاغة العبارات . ولا ريب في أن العالم بجملته صنع الله وتصنيفه ، فمن عرف ذلك مجلات تكون له بحسبه محبة مجملة ، ومن وقف على ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تكون له غاية الحب ، وكلما ازدادت معرفته بوجود الحكم والمصالح المودعة في كل مخلوق ازداد حبه ، فمن اعتقد أن ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة إنما هو بالهام الله تعالى أياها من غير استعداد

لفهم الحكمة في اختيار الشكل المسدس على سائر الأشكال لا يكون في معرفة الله وادراك عظمتة وحكمته كمن يفهم ذلك ويتيقنه . ثم كما أن دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية ولا يمكن لأحد أن يحيط بها وإنما ينتهي كل الى ما يستعد له فينبغي أن تكون مراتب الحب أيضاً غير متناهية ، وكل عبد ينتهي الى مرتبة تقتضيها معرفته . (وثانيهما) اختلافهم في الأسباب المذكورة للحب فان من يحب الله لكونه منعماً عليه ومحسناً اليه ضعف محبته لتغيرها بتغير الانعام والاحسان ، ولا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرخاء والنعاء . وأما من يحبه لذاته ، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظمتة فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه .

فصل

الواجب اظهر الموجودات

عجباً لأقوام عميت قلوبهم عن معرفه الله سبحانه مع أن الله تعالى أظهر الموجودات وأجلاها لأن البديهة العقلية قاضية بأنه يجب أن يكون في الوجود موجود قائم بذاته أي ماهو صرف الوجود ولولاه لم يتحقق موجود أصلاً فتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر وأجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية ، قال الله سبحانه : « الله نور السموات والأرض » (١) والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره ، ومبدأ الادراك من المدرك إنما هو الوجود ، فكأما ادركته إنما تدرك أولاً وجوده وإن لم تشعر

بذلك ولا ريب في أن الظاهر انفسه أظهر من الظاهر بغيره وأيضاً كل موجود سوى الله سبحانه يعلم وجوده بقليل من الآثار فان وجود الحياة يزيد مثلاً لا يدل عليه إلا حركته وتكلمه وبعض آخر من اعراض نفسه ، ولا يدل عليه شيء آخر من سائر الموجودات ، وكذا وجود السماء - مثلاً - لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها ، ولا يدل عليه شيء آخر من الموجودات التي تحتها وفوقها .

وأما وجود الواجب تعالى فيدل عليه كل شيء إذ ليس في الوجود مدرك محسوس أو معقول ، وحاضر أو غائب إلا وهو شاهد ومعرف لوجوده ، فالسبب في خفاءه مع كونه اجلي وأظهر من كل شيء غاية وضوحه وظهوره فان شدة ظهور الشيء قد يكون سبباً لخفاءه لأنه يكل المدارك ويحسرهما ، فشدة ظهوره سبحانه بلغت حداً بهرت العقول وادهشتها فضعفت عن ادراكه . وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لانخفاء النهار واستتاره ، بل لشدة ظهوره وضعف بصير الخفاش ، فان بصره ضعيف ببهرة نور الشمس اذا أشرق فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره فلا يرى شيئاً إلا اذا امتزج بالضوء الظلام وضعف ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الاشراق والاستنارة ، وفي غاية الاستغراق والشمول حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض فصار ظهوره سبب خفاءه ، فسبحان من احتجب بأشراق نوره ، واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره ، ولا تعجب من اخفاء شيء بسبب شدة ظهوره ، فإن الأشياء إنما تستبان باضدادها ، وما عم وجوده حتى لا ضد له عسر ادراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها على الله تعالى دون بعض ادركت التفرقة على قرب ، ولما اشركت في الدلالة على نسق واحد اشكل الأمران ،

ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض فإننا نعلم أنه عَرَضَ من الأعراض يحدث في الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الاشراف لا غروب لها لكنا نظن أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما ، وأما الضوء فلا ندركه وحده لكن لما غابت الشمس واطلمت المواضع ادركنا تفرقة بين الحالتين ، فعلمنا أن الأجسام قد استضاءت بضوء فارقه عند الغروب فعرفنا وجود النور بعده ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في النور والظلام. هذا مع أن النور اظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه ، ظهر لغيره انظر كيف استبهم امره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ، فاذن واجب الوجود لذاته هو اظهر الأشياء وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السماوات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، وادركت التفرقة بين الحالتين ، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به ، وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشئيين في الدلالة ، ولكن دلالة عامة في الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائماً في الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورشئت شدة ظهوره خفاء كما قيل :

خفي لا فراط الظهور تعرضت لأدراكه أبصار قوم أخافش
وحظ عيون الزرق من نور وجهه لشدة حظ العيون العوامش
قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لم تحط به الأوهام بل تجلى لها بها ،
وبها امتنع منها » وقال عليه السلام : « ظاهر في غيب ، وغائب في ظهور »
وقال عليه السلام : « لا تجنه البطون عن الظهور ، ولا تقطعه الظهور عن
البطون ، قرب فناءى ، وعلا فئنا ، وظهر فبطن ، وبطن فعلان ، ودان

ولم يدن « أي ظهر وغلب ولم يغلب ، ومن هناك قيل : « عرفت الله بحجمه بين الأضداد »

فصل

علامت محبة الله

محبة العبد لله سبحانه له علامات (الأولى) أن يحب لقاء بطريق المشاهدة والعيان في دار السلام ، ولتوقفه على الموت يحب الموت ويتمنيه إذ كل من يحب شيئاً يحب لقاءه ووصله ، وإذا علم أنه يمتنع الوصول إليه إلا بالارتحال من الدنيا بالموت لأحب الموت لا محالة ، وكيف يشغل على المحب أن يسافر من وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته ، ولذا قال حذيفة عند موته : « حبيب جاء على فاقة لا أفلح اليوم من ندم » وقال بعض الأكابر : « لا يكره الموت إلا مريب لأن الحبيب لا يكره لقاء الحبيب على كل حال . »

ثم من يكره الموت فإن كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والأولاد والأموال ، وكان حبه للدنيا وتأسفه على مفارقتها في غاية الكمال بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه أصلاً بما يترتب عليه من لقاء الله تعالى ولم يجد في قلبه شوقاً إليه مطلقاً ، فلا ريب في كون مثل هذه الكراهة منافياً لأصل الحب ، ولو لم يكن حبه للدنيا في غاية الكمال بحيث لم يجد في قلبه ميلاً إلى ما يترتب على الموت من لقاء الله ، بل كان محباً للدنيا إلا أنه كان له شوق إلى لقاء الله تعالى أيضاً أو كان لذلك كراهته للموت ضعيفة ، فمثل هذا الحب للدنيا ينافي كمال حب الله لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولا يبعد أن تكون معه شائبة ضعيفة من حب الله فإن الناس متفاوتون في حب الله ،

فمنهم من يحب به بكل قلبه ، ومنهم من لا يحبه بكل قلبه بل يحب معه غيره أيضاً من الأهل والولد والمال ، فلا جرم يكون فرحه ببقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكرامته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها ، وإن كانت كرامته الموت لأجل إرادته الاستعداد والتهيؤ لبقاء الله ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم والعمل ، لا لحب الأهل والمال ، ولا للتأسف على فراق الدنيا ، فهو لا يدل ضعف الحب ولا ينافي أصله وهو كالحب الذي وصل إليه خبر قدوم حبيبته فاحب أن يتأخر قدومه ساعة ليعمر داره ويفرشها ويهيئ أسبابها ليلقاء فارغ القلب عن الشواغل ، وعلامة ذلك الجِد في العمل ، واستغراق الهم في تحصيل المعرفة ، والاستعداد للآخرة (الثانية) أن يؤثر مراد الله سبحانه على مراده إذا المحب لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجري فترك ما أريد لما يريد

فمن كان محباً لله يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه ، ويحترز عن اتباع الشهوات ، ويدع الكسالة والبطالة ، ولا يزال مواظباً على طاعته وانقياده ، ويكون متبهاً متنعاً بالطاعة ولا يشغلها ، ويسقط عنه تعبها ، وقد روي أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى ، وكان يوسف يدعوها إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل ، وإذا دعاها ليلاً سوفت إلى النهار فعاتبها في ذلك فقالت : « يا رسول الله إنما كنت أحببك قبل أن أعرف ربك فأما إذ عرفته فلا أؤثر على محبته محبة من سواه وما أريد به بدلاً » . ثم الحق أن العصيان يضاد كمال المحبة لا أصلها ، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره ويزيد في مرضه مع أنه يحب نفسه ، ويجب صحته ، والسبب ضعف المعرفة ، وغلبة الشهوة فيعجز عن القيام

بحق المحبة (الثالثة) ألا يغفل عن ذكر الله سبحانه بل يكون دائماً مستهتراً
 بذكره إذ من أحب شيئاً أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به فمحب الله
 لا يخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته لأنه كلامه ويكون محباً
 للخلوة ليتفرد بذكره وبمناجاته ، ويكون له كمال الأنس والالتئاذ بمناجاته ،
 وفي اخبار داود : « كذب من ادعى محبتي وإذا جنه الليل نام عني ، أليس كل
 محب يحب لقاء حبيبته فيها أناذا موجود لمن طلبني » (الرابعة) ألا يحزن
 ولا يتألم عن فقد شيء ، ولا يفرح بوجود شيء سوى ما يقر به إلى الله أو يبعده
 عنه ، فلا ينبغي أن يحزن ويجزع في المصائب ، ولا يسرّ بنيل المقاصد
 الدنيوية ، ولا يتأسف على ما يفوته إلا على ما فات منه من طاعة مقربة إلى
 محبوبه ، أو على صدور معصية مبعّدة ، أو على ساعة خلت عن ذكر الله
 والانس به ، (الخامسة) أن يكون مشفقاً رؤفاً على عباد الله ، رحماً على أوليائه
 وشديداً على اعداء الله ، كارهاً لمن يخالفه ويعصيه إذ مقتضى الحب الشفقة والمحبة
 لأحباء المحبوب والمنسويين إليه ، والبغض لأعدائه ومخالفيه (السادسة) أن
 يكون في حبه خائفاً متذللاً تحت سلطان العظمة والجلال ، وليس الخوف مضاداً
 للحب كما ظن ، إذ ادراك العظمة يوجب الهيبة ، وادراك الجلال يوجب الحب
 وخصوص المحبين خوف الاعراض وخوف الحجاب ، وخوف الأبعاد ، وخوف
 الوقوف ، وسلب المزيد ، وقال بعض العرفاء : « من عبد الله بمحض المحبة
 من غير خوف هلك بالبسط والادلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير
 محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريقهما أحبه الله فقربه
 ومكنه وعاه » (السابعة) كتمان الحب والشوق من اظهاره ومن اظهار الوجد
 واجتناب الدعوى تعظيماً للمحسوب واجلالاً له وهيبة منه وغيرة على سره فإن

الحب سرٌّ من اسرار المحبوب فلا ينبغي افشاؤه ولأنه ربما يدخل في الدعوى ما يجاوز حدّ الواقع فيكون من الافتراء ، وتمّظّم به العقوبة في العقبي ، والبلية في الدنيا ، نعم ربما غشيته سكرة في حبه حتى يدهش فيها ، وتضطرب احواله فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتمحل ، فمثله معذور لأنه تحت سلطان المحبة مهوور ، ومن عرف أن حصول حقيقة المعرفة والمحبة التي تنبغي ان تكون في حق الله يستحل أن يحصل لأحد ، وأن يطلع على ما اعترف عظماء الانسان اعني الانبياء ، والأولياء من العجز والقصور ، وأن صنفاً واحداً من الأصناف الغير المنتهية من ملائكته ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء هم أهل المحبة لله ما خطر على قلوبهم منذ خلقهم الله وهو ثلاث مائة الف سنة قبل خلق العالم سوى الله سبحانه ، وما ذكروا غيره لاستحجي منه حق الحياء أن يعد ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة ، وخرس لسانه عن التظاهر بالدعوى ، وروي في بعض الأخبار أن بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله تعالى أن يعطيه ذرة من معرفته ففعل ذلك ، فحار عقله ، وذهل لبه ، وواه قلبه وهام في الجبال وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء ، فسأل له الصديق ربه ان ينقص بعض الذرة من المعرفة التي اعطاه فأوحى الله تعالى اليه : « إنا اعطيناه جزء من مائة الف جزء من ذرة من المعرفة ، وذلك ان مائة الف عبد سألوني شيئاً من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا : فأخرت اجابتهم الى ان شفعت انت لهذا ، فلما اجبتك فيما سألت اعطيتهم كما اعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة الف عبد ، فهذا ما اصابه من ذلك » فقال : سبحانك سبحانك انقصه مما اعطيته ، فاذهب الله عنه جملة ما اعطاه ، وابقى فيه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة الف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه

ورجاؤه ، وسكن وصار كسائر السكّال من العارفين (١) .

والحق أن حقائق الصفات الإلهية أجل وأعظم من ادراك العقول البشرية ، ولا يطبق أحد من السكّال أن يتحمل لفهم جزء من الأجزاء الغير المتناهية منها ، فالوصول الى ما عليه الحضرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال في حيز المحال « وما قيل أو يقال فيه » وهم أو خيال ، فأين يحصل لأحد ما يليق به من المعرفة والمحبة ، فلو أمكن أن تدخل أمثال هذه العوالم المخلوقة من السموات والأرضين وما فوقهما وأضعافها بقدر غير متناه في جوف خردلة لأمكن أن تدخل في اعظم العقول ذرة من عظمته وجلاله ، وغاية المعرفة أن يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته وسائر أوصافه الكمالية بأمثال هذه العنوانات والتمثيلات ، وهي ايضاً لو وضعت الى غير النهاية في أزمنة غير متناهية لكانت نباتات قاصرة بل وهمية خيالية ، فسميحان من لا سبيل الى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، ومن علامات المحبة الانس والرضا كما يأتي ، وقد جمع بعض العارفين علامات الحب في ابيات فقال :

لا تخضعن فللمحب دلائل	ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمرّ بلائه	وسروره في كل ما هو فاعل
فانزع منه عطية مقبولة	والققر الكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه	طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسماً	والقلب فيه من الحبيب بلايل
ومن الدلائل أن يرى متفهماً	لكلام من يحظى لديه سائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفاً	متحفظاً عن كل ما هو قائل

(١) صحيحنا الرواية على احياء العلوم الجزء الرابع ص ٢٨٨ .

ومن الدلائل أن تراه مشمراً
ومن الدلائل حزنه وصحبه
ومن الدلائل أن تراه باكياً
ومن الدلائل أن تراه راضياً
ومن الدلائل زهده فيما ترى
ومن الدلائل أن تراه مسلماً
ومن الدلائل ضحكته بين الورى
ومن الدلائل أن تراه مسافراً
في خرقتهن على شطوط الساحل
خوف الظلام فما له من عاذل
أن قد رآه على قبيح فاعل
بعلبك في كل حكم نازل
من دار ذل والنعم الزائل
كل الامور الى المليك العادل
والقلب محزون كقلب الشاكل
نحو الجهاد وكل فعل فاضل

فصل

معنى حب الله لعبده

اعلم أن شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله سبحانه يحب العبد كقوله تعالى « يحبهم ويحبونه » وقوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله » وقوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وقوله تعالى « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الايمان إلا من يحب » وقال صلى الله عليه وآله : « إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب » وقال صلى الله عليه وآله : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتبه ، وإن رضي اصطفاه » وقال صلى الله عليه وآله : « من أكثر ذكر الله أحبه الله » وقال صلى الله عليه وآله : « لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى

أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به » وقال صلى الله عليه وآله : « إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه ، وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه » وأمثال ذلك أكثر من أن تحصى .

ثم حقيقة الحب وهو الميل الى موافق ملائم غير متصور في حق الله تعالى بل هذا إنما يتصور في حق نفوس ناقصة والله سبحانه صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال ، وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلاً وأبداً إذ لا يتصور تجده وزواله فلا يكون له الى غيره نظر من حيث إنه غير ، بل ابتهاج بذاته وصفاته وأفعاله ، وليس في الوجود إلا ذاته وصفاته وأفعاله ، ولذلك قال بعض العرفاء لما قرئ عنده قوله تعالى يحبهم ويحبونه ، نحن نحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه على معنى أنه الكل ، وأنه في الوجود ليس غيره ، فمن لا يحب إلا ذاته وصفاته ذاته وأفعال ذاته وتصانيف ذاته فلا يجاوز حبه وذاته ، وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو اذن لا يحب إلا ذاته ، وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له تعالى بأفعاله له إذ المستفاد من الآيات والأخبار أن له تعالى خصوصية محبة لبعض عباده ليست لساير العباد والمخلوقات ، فمعنى هذه المحبة يرجع الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، والى تمكينه إياه من القرب اليه ، والى ارادته ذلك به في الأزل ، والى تطهير باطنه عن حلول الغير به وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه حتى لا يسمع إلا بالحق ومن الحق ، ولا يبصر إلا به ، ولا ينطق إلا به كما في الحديث القدسي فيكون تقر به بالنوازل سبباً لصفاء باطنه ، وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه ، وكل ذلك من فضل الله تعالى ولطفه به .

ثم قرب العبد من الله لا يوجب تغيراً وتجديداً في صفات الله تعالى إذ التغير عليه سبحانه محال لأنه لا يزال في نعوت السكالات والجلال والجمال على ما كان

عليه في ازل الازال ، بل يوجب مجرد تغيير العبد بترقيته في مدارج الكمال والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية ، فكما صار أكل صفة وأتم علماً واحاطة بحقائق الامور ، واثبت قوة في قهر الشياطين وقمع الشهوات وظهر نزاهة عن الرذائل ، وأقوى تصرفاً في ملكوت الاشياء صار أقرب الى الله ، ودرجات القرب غير متناهية لعدم تناهي درجات الكمال ، فمثل تقرب العبد الى الله ليس كتقرب احد المتقاربين الى الآخر اذا تحركا معاً بل كتقرب أحد هما مع تحركه الى الآخر الذي كان ساكناً أو كتقرب التلميذ في درجات الكمال الى استاده فإن التلميذ متحرك متحرك مترق من حضيض الجهل الى بقاع العلم ، ويطلب القرب من استاده في درجات العلم والكمال ، والاستناد ثابت واقف ، وإن كانت التلميذ يمكن أن يصل الى مرتبة المساواة لاستاده لتناهي كماله ، وأما العبد كائناً من كان لا يمكن أن يصل الى كمال يمكن ان تكون له نسبة الى كماله سبحانه لعدم تناهي كماله شدة وقوة وعدة ، وعلامة كون العبد محبوباً عند الله ان يكون هو محبوباً له تعالى موثقاً اليه على غيره من المحاب ، وان يرى من بواطن اموره وظواهره انه تعالى يهيء له اسباب السعادة فيها ويرشده الى ما فيه خيره ، ويصدّه عن المعاصي بأسباب يعلم حصولها منه سبحانه ، وانه تعالى يتولى امره ظاهره وباطنه وسره وجهه ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبر لأمره ، والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه ، والمسدد لظواهره وباطنه ، والجاعل لهومهمهما واحداً ، والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره ، والمونس له بلدة المناجاة في خلواته والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته .

تمت تيسير

الحب في الله والبغض في الله

اعلم أن الأخبار متظاهرة في مدح الحب في الله والبغض في الله وعظم فضيلته وثوابه ومعناه لا يخلو عن إبهام فلا بد أن نشير إلى بعض هذه الأخبار ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه .

أما الأخبار كقول النبي صلى الله عليه وآله : « ودَّ المؤمن للمؤمن في الله أعظم شَعَبِ الإيمان ، ألا ومن أحب في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنع في الله فهو من اصفياء الله » وقال صلى الله عليه وآله لأصحابه : « أي عرى الإيمان أوثق ؟ » فقالوا الله ورسوله اعلم فقال بعضهم : الصلاة وقال بعضهم الزكاة ، وقال بعضهم الصيام ، وقال بعضهم الحج والعمرة ، وقال بعضهم الجهاد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لكل ما قلتم فضل وليس به واسكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ، وتوالي أولياء الله ، والتبري من أعداء الله » وقال صلى الله عليه وآله : « المتحابون في الله يوم القيامة على أرض زبرجدة خضراء في ظل عرشه عن يمينه وكلنا يديه يمين ، وجوههم أشدَّ بياضاً وأضوء من الشمس الطالعة ، يغبطهم بمنزلاتهم كل ملك مقرب ، وكل نبي مرسل ، يقول الناس من هؤلاء فيقال هؤلاء المتحابون في الله » وقال سيد الساجدين عليه السلام : « إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين قام مناد فنادى يسمع الناس فيقول أين المتحابون في الله قال : فيقوم عنق من الناس فيقال لهم اذهبوا إلى الجنة بغير حساب قال : فملاقاهم الملائكة فيقولون إلى أين فيقولون إلى الجنة

بغير حساب فيقولون اي حزب اشم من الناس فيقولون نحن المتحابون في الله قال فيقولون واي شيء كانت اعمالكم قالوا كنا نحب في الله ونبغض في الله قال فيقولون نعم اجر العاملين « وقال الباقر عليه السلام : « إذا اردت تعلم ان فيك خيراً فانظر الى قلبك ، فإن كان يحب اهل طاعة الله ويبغض اهل معصيته ففك خير والله يحبك ، وإذا كان يبغض اهل طاعة الله ويحب اهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك والمرء مع من احبه » وقال عليه السلام : « لو ان رجلاً احب رجلاً لله لأثابه الله على حبه اياه وإن كان المحبوب في علم الله من اهل النار ، ولو ان رجلاً ابغض رجلاً لله لأثابه الله على بغضه اياه وإن كان المبغض في علم الله من اهل الجنة » وقال الصادق عليه السلام : « من احب لله وابغض لله واعطى لله فهو ممن كمل ايمانه » وقال عليه السلام : « إن المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور قد اضاء نور وجوههم ونور اجسادهم ونور منابرهم كل شيء حتى يعرفوا به فيقال هؤلاء المتحابون في الله » وقال عليه السلام : « وهل الايمان الا الحب في الله والبغض في الله ، ثم تلا هذه الآية « حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَرَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ » (١) وقال عليه السلام : « ما التقى المؤمنان قط الا كان افضلها اشدهما حباً لأخيه » وقال عليه السلام : « من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له » (٢) والاختبار بهذه المضامين كثيرة . واذا عرفت ذلك فلنشر الى معنى الحب في الله والبغض في الله

(١) الحجرات الآية ٧ . (٢) صحيحنا الاحاديث كلها على اصول السكافي

الجزء الثاني . باب الحب في الله والبغض في الله . وعلى النوافي الجزء الثالث .

باب الحب في الله والبغض في الله ص ٣٤٤ .

ف نقول الحب الذي بين انسانين إما يحصل بمجرد الصحبة الاتفاقية كالصحبة بحسب الجوار ، أو بحسب الاجتماع في سوق ، أو مدرسة ، أو سفر ، أو باب سلطان ، أو امثال ذلك ، ومعلوم أن مثل هذا الحب ليس من الحب في الله بل هو الحب بحسب الاتفاق ، أو لا يحصل بمجرد ذلك بل له سبب وباعث آخر ، وهذا على اربعة اقسام (الأول) أن يحب انسان انسانا لذاته لا ليتوصل به الى محبوب ومقصود وراءه بأن يكون هو في ذاته محبوبا عنده بمعنى أنه يلتذ برؤيته ومعصيته ومشاهدته أخلاقه لاستحسانه له ، فان كل جميل لذيد في حق من أدرك جماله ، وكل لذيد محبوب ، واللذة تتبع الاستحسان ، والاستحسان يتبع المناسبة والموافقة والملاءمة بين الطباع ، ثم ذلك المستحسن إما أن يكون جمال الصورة وكمال العقل وغزارة العلم وحسن الأخلاق والأفعال ، وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة ، وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب ، ومن هذا القسم أن يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير حسن في خلق وخلق ، ومن دون ملاحظة في صورة ، ولا غيرها من الأعضاء بل لمناسبة باطنة توجب الالفة والموافقة والمحبة فإن شبه الشيء ينجذب اليه بالطبع ، والأشياء الباطنة خفية ، ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر أن يطلع عليها ، وإلى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله : « الأرواح جنود مجنونة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، فالحب نتيجة التناسب الذي هو التعارف ، والبغض نتيجة التناكر ، ومعلوم أن هذا القسم من الحب لما يدخل في الحب لله بل هو حب بالطبع وشهوة النفس لذا يتصور من لا يؤمن بالله إلا أنه إن اتصل به غرض منموم صار منموما ، وإلا فهو مباح لا يوصف بمذموم وذم (الثاني) أن يحبه

لألذاته بل لينال منه محبوباً وراء ذاته وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية . ولا ريب في أن كلما هو وسيلة إلى المحبوب محبوب ، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب في الله ظاهر (الثالث) أن يحبه لألذاته بل لغيره ، وذلك الغير راجع إلى حظوظه في الآخرة دون الدنيا ، وذلك كحب التلميذ الأستاذ لأن يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ، ومقصود من العلم والعمل سعادة الآخرة ، وهذا الحب من جملة الحب في الله وصاحبه من محبي الله ، وكذلك حب الأستاذ للتلميذ لأنه يتلقف منه العلم ، وينال بواسطته مرتبة التعليم ، ويترقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء . قال عيسى عليه السلام : « من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء ، ولا يتم التعليم إلا بمتعلم فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال ، فإن أحبه لأنه آلة اذ جهل صدره منزعجة لحرته فهو محب لله »

بل التحقق أن كل من يحب أحداً لصنعته ، أو فعله الذي يوجب تقربه إلى الله فهو من جملة المحبين في الله كحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين ، وحب طبّاخ يحسن صنعته في الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقرباً إلى الله ، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التي يقصد في الدنيا ، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة ، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكفّس بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل ، وقس على ما ذكر أمثاله ، والمعيار أن كل من أحب غيره من حيث توصله لأجله إلى فائدة أخروية فهو محب لله وفي الله (الرابع) أن يحبه الله وفي الله لا لينال منه علماً أو عملاً ، أو يتوصل به إلى امر وراء ذاته ، وذلك بأن يحبه من حيث أنه متعلق بالله ومنسوب إليه إما بالنسبة

العامّة التي ينسب بها كل مخلوق الى الله أو لأجل خصوصية النسبة أيضاً من تقربه الى الله ، وشدة حبه وخدمته له تعالى . ولا ريب في أن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب الى كل من يتعلق به ويناسبه ولو من بعد ، فمن أحب انساناً حباً شديداً أحب محب ذلك الانسان وأحب محبوبه ، ومن يخدمه ومن يمدحه وينبي عليه أو يشفي عليه محبوبه وأحب أن يسارع الى رضا محبوبه كما قيل :

أسرُّ على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شفقت قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وأما البغض في الله فهو أن يبغض انسان انساناً لأجل عصيانه لله ومخالفته له تعالى فإن من يحب في الله لا بد وأن يبغض في الله فانك إن أحببت انساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عنده ، فإن عصاه لا بد أن تبغضه لأنه عاص فيه وممقوت عند الله ، قال عيسى عليه السلام : « تحببوا الى الله ببغض أهل المعاصي ، وتقربوا الى الله بالتباعد عنهم ، واتمسوا رضاء الله بسخطهم » ، وروى أنه تعالى أوحى الى بعض أنبيائه : « أما زهدك في الدنيا فقد تمجلت الراحة ، وأما انقطاعك إلي فقد تعزرت بي ، ولكن هل عادت في عدوّاً ، أو واليت ولياً ؟ » .

ثم المصيبة درجات مختلفة فإنها قد تكون بالاعتقاد كالكفر والشرك والبدعة ، وقد تكون بالقول والفعل ، وهذا إما أن يكون مما يتأذى به غيره كالقتل والغصب والضرب وشهادة الزور وسائر انواع الظلم ، أو لا يكون مما يتأذى به غيره وهذا إما يوجب فساد الغير كالجمع بين الرجال والنساء ، وتبيسة أسباب الشر والفساد على ما هو دأب صاحب الماخور ، أو لا يوجب فساد الغير كالزنا وشرب الخمر وهذا أيضاً إما كبيرة أو صغيرة ، واطهار البغض

أيضاً له درجات مختلفة كالتباعد والهجران ، وقطع اللسان عن المكالمة والمحادثة ، والتغليظ في القول ، والاستخفاف والاهانة ، وعدم السعي في إطاعته ، والسعي في إساءته وفساد مآربه ، وبعض هذا أشد من بعض ، كما أن درجات الفسق والمعصية أيضاً كذلك ، فينبغي أن يكون الأشد من درجات البغض بازاء الأشد من درجات المعصية والفسق ، والوسط بازاء الوسط ، والأضعف بازاء الأضعف . وينبغي ألا يترك أولاً النصيحة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتغليظ القول في الوعظ والارشاد لا سيما إذا كان العاصي ممن يئنه ويئنه صحبة متأكدة ، ثم العاصي إن كان ممن له صفات محمودة كالإيمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة أو أمثال ذلك ينبغي أن يكون مبعوضاً لأجل معصيته ومحجوباً لأجل صفته المحمودة ، وهذا كما أن من وافقك في غرض وخالفك في آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد اليه والتوحش عنه ، فلا تبالغ في إكرامه مبالغتك في إكرام من يوافقك في جميع أغراضك ، ولا تبالغ في إهانته مبالغتك في إهانته من خالفك في جميع أغراضك .

تتميم

الوفاء في الحب

اعلم أن من تمام الحب الاخوان في الله الوفاء وهو الثبات على الحب ولو أزمه وادامته الى الموت وبعده مع اولاده واصدقائه ، وضده الجفاء هو قطع الحب أو بعض لوازمه في أيام الحياة أو بعد الموت بالنسبة الى أولاده وأحبته ، ولولا الوفاء في الحب لما كانت فيه فائدة ، اذ الحب إنما يراد للآخرة ، فإن انقطع

قبل الموت لضاع السعي وحبط العمل ، ولذلك قال رسول الله في السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة : « واخوان تمحبا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه » وروي أنه صلى الله عليه وآله كان يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه فقيل له في ذلك فقال : « إنها كانت تأتيننا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين » ، فمن الوفاء مراعاة جميع الأصدقاء والأقارب والمتعلقين ، ومراعاتهم أوقع في القلب من مراعاة الأخ المحبوب في نفسه فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر من فرحه بتفقد نفسه ، إذ لا تعرف قوة المحبة والشفقة إلا بتعديها من المحبوب الى كل من يتعلق به حتى أن من قوي حبه لأخيه تميز في قلبه كلبه الذي على باب داره من سائر الكلاب ، ولا ريب في أن المحبة التي تنقطع ولو بعد المات لا تكون محبة في الله إذ المحبة في الله دأمة لا انقطاع لها ، فما قيل من أن قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره حال الحياة إنما هو لدلالته على كون الحب في الله . وبالجملة الوفاء بالمحبة تمامها ، ومن آثار الوفاء أن يكون شديد الجزع من مفارقتها ، وألا يسمع بلاغات الناس عليه ، وأن يحب صديقه ويبغض عدوه ، وأيس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين ، بل من الوفاء المخالفة له وإرشاده الى الحق .

هذا وأما البعد والانس فقد عرفت أن الانس عبارة عن استبشار القلب بما يلاحظه من المحبوب بعد الوصول والبعد خلافه ، والانس والخوف والشوق كلها من آثار المحبة ، وكل واحد منها يرد على الحب بحسب نظره ، ومما يغلب عليه في وقته ، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال ، واستشعر قصوره من الاطلاع على كنهه الجلال انبعثت النفس وانزعجت له ، وهاجت اليه فسميت هذه الحالة في الانزعاج شوقا ،

وهو بالاضافة الى امر غائب ، واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره مقصوداً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ، غير ملتفت الى ما لم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيه فيسمى استبشاره أنساً ، وإن كان نظره الى صفات العز والجلال والاستقناء وعدم المبالاة واستشعر امكان الزوال والبعد تألم قلبه بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفاً ، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات ، فإن غلب الانس ونجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ، وغلب عليه الانس بالله ، ولم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة ، وذلك لأن الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله ، بل كلما يعوق من الخلوة يكون أثقل الأشياء على القلب ، كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرًا لا يسمع كلامه أحد من الخلق إلا أخذه الفشيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج عن القلب عذوبة ما سواه ، فان خالط الناس كان كمنفرد في جماعة ، ومجتمع في خلوة ، وغريب في حضر ، وحاضر في سفر ، وشاهد في غيبة ، وغائب في حضور ، ومخالط بالبدن ، منفرد بالقلب المستغرق في عذوبة الذكر ، قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفهم : « هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فباشروا روح اليقين ، واستلنوا ما استوعره المترفون ، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالمحل الأعلى أو تلك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة الى دينه » .

فصل

الانس بالله

من أنكر وجود الحب والشوق انكر وجود الانس أيضاً ظناً أنه يدل على التشبيه وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية والذات الحقيقية ، وعن القصور في طريق المعرفة ، والجمود على احكام الحس ، والغفلة عن عالم العقل والبصيرة ، وقد ظهر ثبوت الانس من بعض الاخبار السابقة ، ويدل عليه ما ورد في اخبار داود أن الله عز وجل أوحى اليه : « يا داود ابلغ اهل ارضي أني حبيب لمن احبني ، وجليس لمن جالسي ، ومؤنس لمن أنس بذكري ، وصاحب لمن صاحبني ، ومختار لمن اختارني ، ومطيع لمن اطاعني ، ما احبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي ، واحبيته حباً لا يتقدمه احد من خلقي ، من طلبني بالحق وجدني ، ومن طلب غيري لم يجدني ، فارفضوا يا اهل الارض ما انتم عليه من غرورها ، واهلوا الى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ، وآنسوا بي اوانسكم ، واسارع الى محبتكم »

فصل

الانس قد يشمر الادلال

قال ابو حامد الغزالي الانس اذا دام وغاب واستحکم ولم يشوشه قلق الشوق ، ولم ينقصه خوف البعد والحجاب فإنه يشمر نوعاً من الانبساط في

الأقوال والافعال والمناجاة مع الله سبحانه ، وقد يكون منكراً بحسب الصورة لما فيه من الجرأة ، وقلة الهيبة ولكنّه محتمل ممن اقيم في مقام الانس ، ومن لم يقم في ذلك المقام وتشبه بهم في الفعل والكلام هلك واشرف على الكفر ، ومثاله مناجاة برخ الأسود (١) الذي امر الله تعالى كليمة موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني اسرائيل بسد أن قحطوا سبع سنين ، وخرج موسى في سبعين ألفاً فلوحي الله عز وجل اليه : كيف استجيب لهم وقد اظلت عليهم ذنوبهم ، سرائرهم خبيثة ، يدعونني على غير يقين ، ويأمنون مكري ، ارجع الى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتى استجيب له فسأل عنه موسى فلم يعرف ، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق اذا بعبد اسود قد استقبله ، بين عينيه تراب من اثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه فصرفه موسى بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له : ما اسمك فقال اسمي برخ قال فانت طليبتنا منذ حين ، اخرج فاستسق لنا فخرج فقال في كلامه : ما هذا من فعلك ، ولا هذا من حالك ، وما الذي بدا لك ، اتعصمت عليك غيومك ، أم عاندت الرياح عن طاعتك ، أم نفذ ما عندك ، أم اشتد غضبك على المذنبين ، ألسنت كنت غفاراً قبل خلق الخطاطين ، خلقت الرحمة وأمرت بالعفو ، أم ترينا انك متمنع ، أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ، قال فما برح حتى اخضل بنو اسرائيل بالمطر ، وانبت الله عز وجل العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب ، ثم رجع برخ فاستقبله موسى ، فقال : « كيف رأيت حين خاصمت ربي ، كيف

(١) هذا من عجائب المنقولات الخرافية والغريب من ابي حامد الغزالي

ان يركن الى مثله وقد اشار المصنف قدس سره الى بطلان ما نقله بقوله : ولا ريب .

انصفني . فهم به موسى فلوحي الله اليه : « إِنْ بِرَحْمَةٍ بَصَحَكُنِي كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » . ولا ريب في أن أمثال هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون البعض ، فمن انبساط الانس قول موسى إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ، وقوله في التعلل والاعتذار لما قيل له : « إِذْ هَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » (١) « وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَآخَافٌ أَنْ يَقْتُلُوْنَ » (٢) وقوله : « وَيَضِيقُ صَدْرِي » (٣) وقوله : « إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى » (٤) ، وهذا من غير موسى 'سوء الأدب لأن الذي اقيم مقام الانس بلاطف ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره ، كيف ولم يحتمل من يونس النبي عليه السلام ما دون هذا الحال اقيم مقام القبض والهيبه ، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث فنودي عليه الى يوم الحشر لولا أن تداركته نعمة من ربه لتبذ بالعراء وهو مذموم ، ونهي نبينا أن يقتدي به فتيل له : « وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ » (٥) ، وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف المقامات والاحوال ، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد ، قال الله سبحانه : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ » (٦) فالانبياء والأولياء مختلفون في الصفات والاحوال ، ألا ترى أن عيسى بن مريم عليه السلام كان في مقام الانبساط والادلال ، ولا دلالة له سلم على نفسه فقال : « وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ »

(١) طه الآية ٥٥ (٢) الشعراء الآية ١٣

(٣) الشعراء الآية ١٢ (٤) طه الآية ٤٧

(٥) القلم الآية ٤٨ (٦) البقرة الآية ٢٥٤

وَيَوْمَ أَمُوتَ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » (١) وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الانس ، وأما يحيى عليه السلام فإنه اقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه فقال : « وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » (٢) ، وانظر كيف احتمل لاختوة يوسف ما فعلوا به وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى : « إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا » (٣) الى رأس العشرين آية من اخباره تعالى عنهم فوجدت به نيفاً واربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والاربع فففر لهم وعفى عنهم ولم يحتمل لعزير في مسألة واحدة سأل عنها في القدر حتى قيل لئن عاد يحيى اسمه عن ديوان النبوة ، ومن فوائد هذه القصص في القرآن أن تعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل فما في القرآن شيء إلا وفيه اسرار وانوار يعرفها الراسخون في العلم .

تتم نيب

العزلة

اعلم أن من بلغ مقام الانس غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن الناس لأن المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام الى الله ، فلا بد لنا من بيان أن الأفضل من العزلة والمخالطة أيهما ، فإن العلماء في ذلك مختلفون ، والاخبار أيضاً في ذلك مختلفة ، ولكل واحد منهما أيضاً فوائد ومفاسد فنقول :
الظاهر من جماعة تفضيل العزلة على المخالطة مطلقاً ، والظاهر من الاخرى عكس ذلك ، نظر الاولين الى اطلاق ما ورد في مدح العزلة ، والى فوائد

(١) مريم الآية ٣٤ (٢) مريم الآية ١٥ (٣) يوسف الآية ٨

وما ورد في منحها كقول النبي صلى الله عليه وآله : « إن الله يحب العبد
التقي الخفي » ، وقوله صلى الله عليه وآله : « أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه
وماله في سبيل الله » ، ثم رجل مهتزل في شعب من الشعب » ، وقوله صلى الله
عليه وآله لمن سأله عن طريق النجاة : « ليسعك بينك ، وامسك عليك دينك ،
وابك على خطيئتك » ، وقول الصادق عليه السلام : « فسد الزمان ، وتغير
الأخوان ، وصار الانفراد أسكن للفؤاد » ، وقوله عليه السلام : « أقل
معارفك ، وانكر من تعرف منهم » ، وقوله عليه السلام : « صاحب العزلة
منحصن بحصن الله تعالى ، ومنعحر من بحر استه ، فيأطوئ لمن تفرد به سرّاً
وعلانية ، وهو يحتاج الى عشر خصال : علم الحق والباطل ، وتجنب الفقر ،
واختيار الشدة والزهد ، واعتناء الخلوة ، والنظر في العواقب ، ورؤية
التقصير في العبادة مع بذل المجهود ، وترك العجب ، وكثرة الذكر بلا غفلة
فان الغفلة مصطاد الشيطان ، ورأس كل بليّة ، وسبب كل حجاب ، وخالوة
البيت عمالاً يحتاج اليه في الوقت ، قال عيسى بن مريم عليهما السلام : « اخزن
لسانك لعمارة قلبك ، ولسعك يديك ، واحذر من الرياء وقضول معاشك ،
واستح من ربك ، وابك على خطيئتك ، وفرّ من الناس فرارك من الأسد
والافى فانهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء » ، ثم القى الله متى شئت « (١) ،
قال ربيع بن خثيم : « إن استطعت أن تكون اليوم في موضع لا تعرف
ولا تعرف فافعل ، ففي العزلة صيانة الجوارح ، وفراغ القلب ، وسلامة العيش ،
وكسر سلاح الشيطان ، والمجانبة من كل سوء وراحة القلب ، وما من نبي

(١) صحيحنا الحديث وكذا ما قاله ربيع بن خثيم ، على مصباح الشريعة باب ٢٤

وعلى البحار ج ٢ مجلد ١٥ باب العزلة عن شرار الخلق ص ٥١ .

ولا وصي إلا واختار العزلة في زمانه إماماً في ابتدائه ، وإماماً في انتهائه .
وأما فوائد العزلة فكما افراغ للعبادة ، ولذكر والفكر والاستيناس
بمناجاة الله والاشتغال باستكشاف أسرار الله في ملكوت السماوات والأرض ،
والتخلص عن الماصي التي يتعرض للانسان لها غالباً بالمخالطة كالعقبة والرياء
وسائر آفات اللسان ، ومسارقة الطبع الأعمال الخفية ، والأخلاق الرديئة من
الناس ، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والاستخلاص من
الفتن والخصومات وخطارها ، أو من شر الناس وإيذائهم قولاً وفعلًا ،
وقطع طمعه عن الناس ، وقطع طمعهم عنه ، وانخلاص من مشاهدة الظلمة
والفسقة والجهال والفقلاء والحقى ومقاساة أخلاقهم ، ونظر الآخرين أعني القائلين
بتفضيل المخالطة على العزلة الى إطلاق الظواهر الواردة في مدح المخالطة والمؤالفة
والمؤانسة والى فوائدها ، أما ما ورد في مدحها كقول النبي صلى الله عليه وآله :
« المؤمن ألف مؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » وقوله صلى الله عليه
وآله : « من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية » ، وكلاخبار الواردة في ذم
الهجرة عن الإخوان وقوله صلى الله عليه وآله : « إياكم والشعاب ، وعليكم
بالعامة والجماعة والمساجد » .

وأما فوائد المخالطة كالتعليم والتعلم ، وكسب الأخلاق الفاضلة من
بجالة المنصفين بها ، واستماع المواعظ والنصائح ، ونيل الثواب بحضور الجمعة
والجماعة والجنائز ، وعبادة المرضى ، وزيارة الإخوان ، وقضاء حوائج المحتاجين
ورفع الظلم عن المظلومين ، وادخال السرور على المؤمنين ، والاستيناس بالإخوان
وبأهل الورع والعبادة والتقوى ، وهوي روح القلب ، وبهيج داعية النشاط في العبادة
وايصال النفع الى المسلمين بالمال والجاء واللسان ، واستفادة مزيد الأجر والثواب

بتحصيل المعاش والسكد على العيال ، وارتياض النفس بمقاساة الناس في تحمل أذاهم ، وكسر النفس وشهواتها ، وإدراك صفة التواضع لتوقفه على معاشره الناس ومخالطتهم ، وعدم حصوله في الوحدة ، واستفادة التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين فانها لا تحصل إلا من مخالطة الخلق ومشاهدة مجاري أحوالهم . هذه هي فوائد كل من العزلة والمخالطة ، وفوائد كل منهما مفسدة وغوائل للآخر ، وأنت بعدما عرفت فوائد كل منهما وغوائله تعلم أن الحكم بترجيح أحدهما على الآخر على الإطلاق خطأ ، كيف يجوز أن يقال إن العزلة أفضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئاً من أصوله وفروعه ، ولم يقرع سمعه علم الاخلاق ، ولم يميز بين فضائل الصفات ورذائلها فضلاً عن أن تحصل له التخلية والتحلية ومع ذلك يمكن أن يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء وأولي الاخلاق الفاضلة ، وكيف يجوز أن يقال إن المخالطة أفضل لمن حصل ما في وسعه وقدرته من العلم والعمل ، ووصل الى مرتبة الابتهاج والإلتذاذ بالطاعات والمناجات ، ولم يترقب على مخالطته مع الناس شيء من الفوائد الدينية والدينية بل تترتب عليه المفسدات الكثيرة .

فالصحيح أن يقال إن الأفضلية فيها تختلف بالنظر الى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة . فينبغي أن ينظر الى كل شخص وحاله ، وإلى خلطه وإلى باعث مخالطته ، وإلى ما يحصل بمخالطته من فوائد المخالطة ، وما يهوت لأجلها من فوائد العزلة ، ويوازن بين ذلك حتى يظهر الأفضل والأرجح ولا اختلاف ذلك في حق الأشخاص بملاحظة الأحوال والفوائد والآفات ربما يظهر بعد التأمل أن الأفضل لبعض الخلق العزلة التامة ، ولبعضهم المخالطة ، ولبعضهم الاعتدال في العزلة والمخالطة ، وبما ذكر يظهر أن الأفضل لمن بلغ مقام الانس والاستغراق الخلوة والعزلة ، اذ لا ريب في أن المخالطة توجب

السقوط عن مرتبة الشهود والانس ، ولا يتصور من فوائدها شيء ، يقاوم ذلك ،
ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يهزلون عن الخلق ، ويؤثرون الخلوة ، قال
أويس القرني : « ما كنت أرى أحداً يعرف ربه فيأنس بنفسه » ، وقال
بعضهم : « اذا رأيت الصبح ادركني استرجعت كراهية لقاء الناس » ، وقال
بعضهم : « سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه » ، وقال بعض الصالحين :
« رأيت في بعض انبلاذ عابداً خرج من بعض قلال الجبال فلما رأيته تنحى عني
وتستتر بشجرة فقلت له : سبحان الله أتبخل علي بالنظر اليك فقال : « يا هذا
اني قت في هذا الجبل دهرًا طويلا اعالج قلبي في الصبر عن الدنيا واهلها ، فطال
في ذلك تعبي ، وفنى فيه عمري ، فسألت الله تعالى ان يعطيني ذلك ، فسكن
قلبي عن الاضطراب ، والفت الوحدة والانفراد ، فلما نظرت اليك خفت ان
اوقع في الأول فأنني اعوذ من شرك رب العالمين ، وحييب القانتين » ، ثم صاح
وقال : « واغماء من طول المكث في الدنيا » ، ثم حول وجهه عني وقال :
« سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخلوة ، وحرارة الانقطاع اليه ، ما ألهى
قلوبهم عن ذكر الجنان ، وعن الخور الحسان » ، وقال بعض الأكابر :
« إنما يستوحش الانسان من نفسه خلوة ذاته عن الفضيلة . فبملاقاة الناس ومخالطتهم
يفرح ويطرد الوحشة من نفسه ، فاذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين
بها على الفكرة ، ويستخرج العلم والحكمة » ومن هنا قيل : « الاستيناس
بالناس من علامات الافلاس » فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والانس بالله ،
وبدوام الفكر والتحقيق في معرفة الله ، فالتجرد والخلوة أفضل له من كل
ما يتعلق بالمخالطة فإن غاية العبادات وثمرتها المجاهدات أن يموت الانسان محباً لله ،
عارفاً بالله ، ولا محبة إلا بالانس الحاصل بدوام الذكر ، ولا معرفة إلا بدوام

الفكر ، وفراغ القلب شرط لكل منها ، ولا فراغ مع المخالطة « فإن قلت »
 لا منافاة بين المخالطة مع الناس والانس بالله ، ولذا كان الأنبياء مخالطين للناس
 مع غاية استغراقهم في الشهود والانس « قلنا » لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق
 ظاهراً ، والاقبال التام على الله سراً إلا قوة النبوة ، فلا ينبغي أن يفتر كل
 ضعيف بنفسه فيطعم في ذلك ، ثم بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الأخبار الواردة
 من الطرفين ، فان ما ورد في فضيلة العزلة إنما هو بالنظر الى بعض الناس ،
 وما ورد في فضيلة المخالطة إنما هو بالنظر الى بعض آخر .
 (ومنها) :

المسخط

المسخط فيما يخالف هو انه من الواردات الإلهية ، والتقدير الربانية ، ويرادفه
 الإنكار والاعتراض وهو من شعب الكراهة لأفعال الله وهو ينافي الايمان
 والتوحيد ، وما للعبد العاجز الذليل الميّن الجاهل بموانع القضاء والقدر ،
 والغافل عن مراد الحكم والمصالح ، والاعتراض والإنكار ، والمسخط لأفعال
 الخالق الحكيم العليم الخبير ، وأنى للعبد ألا يرضى بما يرضى به ربه ، ولعمري
 أن من يعترض على فعل الله فهو أشد الجهلاء ، ومن لم يرض بالقضاء فليس لحقه
 دواء ، وقد ورد في الخبر القدسي « خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن خلقت
 للخير وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقت الشر وأجريت الشر على
 يديه » وويل ثم وويل لمن قال لم وكيف ، وفي خبر قدسي آخر « أنا الله
 لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر على نعمائي ، ولم يرض بقضائي ،
 فليخذ رباً سواي » وفي مناجاة موسى « أي رب أي خلقتك أحب إليك ؟ »

قال : « من إذا أخذت منه المحبوب سالماني » قال : فأني خلقتك أنت عليه
ساخط ؟ قال « من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له سخط قضائي » وفي الخبر
القدسسي : « قدرت المقادير ، ودبرت التدبير ، وأحكمت الصنع ، فمن
رضي فله الرضا مني حين يلقاني ، ومن سخط فله السخط مني حين يلقاني » (١)
وقال الباقر عليه السلام : « ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء ، وأحبط
الله أجره » وقال الصادق عليه السلام : « كيف يكون المؤمن مؤمناً وهو
يسخط قسمته ، ويحقّر منزلته ، والحاكم عليه الله ، وأنا الضامن لمن لم يهجمس
في قلبه إلا الرضا أن يدعو الله فيستجاب له » وفي بعض الأخبار أن نبياً من
الأنبياء شكى إلى الله عز وجل الجوع والفقر والعري عشر سنين فما أجيب إليه
ثم أوحى الله تعالى إليه « كم تشكروا وهكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب
قبل أن أخلق السموات والأرض ، وهكذا سبق لك مني ، وهكذا قضيت عليك
قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ، أم تريد أن
أبدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق
ما أريد ، وعزتي وجلالي أئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونتك من
ديوان النبوة » وروي أنه أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : « تريد وأريد
وإنما يكون ما أريد ، فإن أسألت لما أريد كفيبتك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد
انعبتكم فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد » (٢) .

(١) صحيحنا هذه الأخبار القدسية . وكذا حديث شكايته نبي من
الأنبياء إلى الله . وحديث صمود بعض ولد آدم عليه السلام ، على أحياء العلوم
الجزء الرابع . ص ٢٩٥ - ٢٩٦ . (٢) صحيحنا هذا الحديث . وكذا
ما روي قبله عن أهل البيت عليهم السلام على أصول الكافي الجزء الثاني . باب
الرضا بالقضاء . وعلى سفينة البحار الجزء الأول ص ٢٢٤ .

وبالجملة من عرف أن العالم بجميع اجزائه من الجواهر والاعراض صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية ، وأنها النظام الأصلح الذي لا يتصور فوقه نظام ولو تغير جزء منه على ما هو اختلفت الأصلحية والخيرية ، وعرف الله بالربوبية ، وعرف نفسه بالعبودية يعلم أن السخط والإعراض وعدم الرضا بشيء مما يرد ويكون غاية الجهل والخطر ، ولذلك لم يكن احد من الأنبياء أن يقول قط في أمر يسر كان كذا حتى قال بعض اصحاب النبي صلى الله عليه وآله : « خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله عشر سنين فما قال لي شيء فعلته : لم فعلت ، ولا شيء لم افعله : لم لم تفعله ، ولا قال في شيء كان : ليته لم يكن ، ولا في شيء لم يكن : ليته كان ، وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله يقول : دعوه لوقضي شيء ، اسكن » وروي أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، ويجعل أحدهم رجله على اضلاعه كهيئة الدرج فيصعد الى رأسه ثم ينزل على اضلاعه كذلك ، وهو مطرق الى الارض لا ينطق ، ولا يرفع رأسه فقال له بعض ولده : يا أبت أماترى ما يصنع هذا بك ، لو نهيته عن هذا . فقال : « يا بني إني رأيت ما لم تروا ، وعلمت ما لم تعلموا إني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ، ومن دار النعيم الى دار الشقاء ، فأخاف ان اتحرك حركة اخرى فيصيبني ما لا اعلم » .

فصل

الرضا = فضيلة الرضا = رضا الله = رد أنكار تحقق الرضا = هل
يناقض الدعاء ونحوه الرضا = طريق تحصيل الرضا = التسليم .

ضد السخط الرضا وهو ترك الاعتراض والسخط باطناً وظاهراً قولاً وفعلاً ،
وهو من ثمرات المحبة ولوازمها ، إذ الحب يستحسن كلما يصدر عن محبوبه ،
وصاحب الرضا يستوي عنده الفقر والغنى ، والراحة والعناء ، والبقاء والفناء ،
والعز والذل ، والصحة والمرض ، والموت والحياة ، ولا يرجح بعضها على
بعض ، ولا ينقل شيء منها على طبعه ، إذ يرى صدور الكل من الله سبحانه ،
وقد رسخ حبه في قلبه والعناء بحيث يحب أفعاله ، ويرجح على مراده مراده تعالى ،
فبرضى لكل ما يكون ويرد ، وروى أن واحداً من أرباب الرضا عمر سبعين
سنة ، ولم يقل في هذه المدة لشيء كان : « ليت له لم يكن . ولا شيء لم يكن
ليت كان » ، وقيل لبعضهم ما وجدت من آثار الرضا في نفسك فقال : « ما في
رائحة من الرضا ، ومع ذلك لو جعلني الله جسراً على جهنم ، وعبر عليه
الأولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة ، ثم يلتقوني في النار وملا بني جهنم
لاحبت ذلك من حكمه ، ورضيت به من قسمه ، ولم يختلج ببالي أنه لم كان
كذا ، ولت لم يكن كذا ، ولم هذا حظي وذاك حظهم » ، وصاحب الرضا
ابداً في روح وراحة ، وسرور وبهجة ، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضا ،
وينظر في كل شيء إلى نور الرحمة الإلهية ، وسر الحكمة الأزلية ، فكان كل
شيء حصل على وفق مراده وهواه ، ففائدة الرضا عاجلاً فراغ القلب للعبادة

والراحة من المعلوم ، وآجلاً رضوان الله والنجاة من غضبه تعالى .

فصل

فضيلة الرضا

الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين ، وأشرف منازل المقربين ، وهو باب الله الأعظم ، ومن دخله دخل الجنة . قال الله سبحانه : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » ، وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه سأل طائفة من أصحابه (ما أنتم ؟) فقالوا : مؤمنون فقال : (ما علامة إيمانكم ؟) فقالوا نصبر على البلاء ، ونشكر عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء فقال : « مؤمنون ورب الكعبة » وفي خبر آخر قال : « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » ، وقال صلى الله عليه وآله : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتبه ، وإذا رضي اصطفاه » ، وقال صلى الله عليه وآله : « أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بشواب فقركم » ، وقال صلى الله عليه وآله : « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من امتي الجنة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان ، يسرحون فيها ، ويتنعمون فيها كيف شاؤوا ، فتقول لهم الملائكة هل رأيتم الحساب ، فيقولون : ما رأينا حساباً ، فتقول لهم : هل جزتم الصراط فيقولون ما رأينا صراطاً ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيئاً ، فتقول الملائكة من أمة من أنتم فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وآله ، فتقول : ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون حصلنا ككائناتنا فيما قبلنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته ، فيقولون : وما هم ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحي أن نعصي ، ونرضى باليسير

مما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا . وقال الصادق عليه السلام : « إن الله بعده وحكمته وعلمه جعل الروح ، والفرح في اليقين والرضا عن الله تعالى ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » وروي أن موسى عليه السلام قال : « يا رب دلني على امر فيه رضاك » فقال تعالى : « إن رضائي في رضاك بهائي » وروي أن بني اسرائيل قالوا له عليه السلام سل لنا ربك امراً إذا نحن فعلناه يرضى عنا ، فقال موسى عليه السلام : « إلهي قد سمعت ما قالوا » فقال : « يا موسى قل لهم رضون عني حتى ارضى عنهم » (١) وقال سيد الساجدين عليه السلام : « الصبر والرضا رأس طاعة الله ، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه فيما احب او كره لم يقض الله عز وجل له فيما احب او كره إلا ما هو خير له » وقال صلوات الله عليه : « الزهد عشرة اجزاء ، اعلى درجة الزهد ادنى درجة الورع ، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين ، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا » وقال الباقر عليه السلام : « أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله عز وجل ، من عرف الله عز وجل ، ومن رضي بالقضاء أتى عليه القضاء ، وعظم الله أجره » وقال الصادق عليه السلام : « أعلم الناس بالله ارضاعهم بقضاء الله » وقال عليه السلام : « قال الله عز وجل : عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلا جعلته خيراً له ، فليرض بقضائي ، وليصبر على بلائي ، وليشكر نعمائي ، اكتبه يا محمد من الصديقين عندي » وقال عليه السلام : « عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء إلا كان خيراً له ، إن قرض بالمقاريض كان خيراً له ، وإن ملك مشارق الأرض ومقاربها كان خيراً له » وقال عليه السلام : « إن فيما أوحى الله عز وجل الى موسى بن عمران عليه السلام يا موسى بن عمران ما خلقت

خلقاً أحب إلي من عبدي المؤمن ، وإني إنما ابتليته لما هو خير له ، وأعافيه لما هو خير له ، وأزوي عنه لما هو خير له ، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي ، فليصبر على بلائي . وليشكر نعمائي ، واپرض بقضائي . اكتبه في الصديقين عندي ، إذا عمل برضائي ، واطاع أمري » وقيل له عليه السلام بأي شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن قال : « بالتسليم لله ، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط » وقال الكاظم عليه السلام : « ينبغي لمن غفل عن الله ألا يستبطئه في رزقه ، ولا ينهمه في قضائه » (١) .

وصل

رضا الله

قد ظهر من بعض الأخبار المذكورة أن رضا الله سبحانه من العبد يشوقه على رضا العبد عنه تعالى ، فمن فوائد رضا العبد بقضاء الله ونعماته رضا الله سبحانه عنه ، وهو اعظم السعادات في الدارين ، وليس في الجنة نعيم فوقه كما قال سبحانه : « وَهَسَارُكُنَّ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » (٢) وفي الحديث : إن الله يتجلى للمؤمنين في الجنة فيقول لهم : (سلوني) فيقولون : « رضاك يا ربنا » فيؤا لهم الرضا بعد التجلي يدل على أنه أفضل كل شيء . وورد في تفسير قوله تعالى : ولدينا مزيد . أنه يؤتى لأهل الجنة في وقت المزيد

(١) صححنا الأحاديث على أصول الكافي الجزء الثاني باب الرضا

بالقضاء وعلى سفينة البحار الجزء الأول ص ٥٢٤ .

(٢) التوبة الآية ٧٣

ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها (احداها) هدية الله ليس عندهم في الجنان مثلها ، وذلك قوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » (والثانية) السلام عليهم من ربهم فنزيد ذلك على الهدية ، وهو قوله تعالى : « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ » (١) (والثالثة) يقول الله تعالى : « إِنِّي عَنْكُمْ رَاضٍ » وهو أفضل من الهدية والتسليم ، وذلك قوله تعالى : « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » أي من النعيم الذي هم فيه ، ومعنى رضى الله عن العبد قريب من معنى حبه له إلا أنه في الآخرة مسبب لدوام النظر والتجلي في غاية ما يتصور من اللقاء والمشاهدة ، ولهذا ليست رتبة في الجنة فوقه ، ويزود أهل الجنة أقصى الأمانى ، وغاية الغايات .

فصل

رد انكار تحقق الرضا

من الناس من انكر امكان تحقق الرضا في انواع البلاء وفيما يخالف الهوى ، وقال المتمكن فيهما هو الصبر دون الرضا ، وهو إنما أتى من ناحية انكار المحبة ، إذ بعد ثبوت امكان الحب لله واستغراق الهم به لا يخفى ايجابه للرضا بافعال المحبوب ، وذلك يكون من وجهين : (أحدهما) أن يوجب الاستغراق في الحب ابطال الاحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس به ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ، ولا تستبعدن ذلك فإن المحارب عند خوضه في الحرب ، وعند شدة غضبه أو خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها ،

فاذا رأى الدم استبدل به على الجراحة ، بل الذي يعدو في شغل مهم قد تصيبه شوكة في قدمه ، ولا يحس بألمها لشغل قلبه .

والسر أن القلب اذا صار مستغرقا باصر من الامور لم يدرك ما عداه ، فالعاشق المستغرق الهم بمشاهدة المعشوق أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به ، أو يفتم لولا عشقه ، ولا يدرك ألمه وغمه لاستيلاء الحب على قلبه ، وهذا اذا اصابه من غير حبيبه ، فكيف اذا اصابه من حبيبه . ولا ريب في أن حب الله تعالى أشد من كل حب ، وشغل القلب به أعظم الشواغل ، إذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ، فمن ينكشف له شيء منها فقد يهره بحيث يدهش ويفشى عليه ولا يحس بما يجري عليه (وثانيهما) ألا يبلغ الاستغراق في الحب بحيث لا يحس بالألم ولا يدركه ، ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مریدا له بعقله وإن كان كارهاً له بطبعه كالذي يلتبس من الفصد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألمه إلا أنه راض به وراغب فيه ، فالحب الخالص لله اذا اصابته بلية من الله وكان على يقين بأن ثوابها الذي ادخر له فوق ما فات ، رضي بها ورغب فيها وأحبها وشكر الله عليها ، هذا إن كان نظره الى الثواب والأجر الذي يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا ، وربما غلب الحب بحيث يكون حظ الحب ولذته وابتهاجه في مراد حبيبه ورضاه لا معنى آخر فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطوباً ، وكل ذلك شاهد محسوس في حب الخلق فضلا عن حب الخالق والجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهى لكلمه المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغايط والخطأ فإن القلوب اذا وقفت بين جماله وجلاله ، فاذا لاحظوا جلالة هابوا ، واذا لاحظوا جماله تاهوا .

ويشهد بذلك حكايات المحبين على ما هو في الكتب مسطور ، وفي

الأسنة والأفواه المذكور ، فان للحب عجائب من لم يذق طعمها لا يعرفها ، وقد روي أن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام ، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع ، بل في القرآن ما هو أباح من ذلك وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك ، وروي أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعشى وبرص مقعد مفلوج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من الناس ، فقال عيسى : « يا هذا أي شيء من البلاء تراه مصر ونا عنك » فقال : يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته فقال : « صدقت هات يدك » فساوله يده ، فاذا هو أحسن الناس وجهاً ، وأفضلهم هيئة ، قد اذهب الله عنه ما كان به ، وصحب عيسى واتباعه به .

فصل

هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا

اعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا ، وكذلك كراهية المعاصي ، ومقت أهلها وحسم أسبابها ، والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي ، وقد زعمت طائفة من أهل البطالة والغرور أن جميع ذلك يخالف الرضا ، اذ كل ما يقصد رده بالدعاء وأنواع المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره ، فيجب للدؤن أن يرضى به ، وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاماً من مقامات الرضا ، وسمّوه حسن الخلق ، وهذا جهل بالتأويل ، وغفلة عن أسرار الشريعة ودقائقها .

أما الدعاء فلا ريب في أننا قد تلمسنا به ، وقد كثرت ادعية الأنبياء والأئمة ، وكانوا على أعلى مقامات الرضا ، وتظاهرت الآيات ، وتواترت الأخبار في الأمر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه ، وإثنى الله سبحانه على عباده الداعين حيث قال : « يَدْعُو نَارًا رَغَبًا وَرَهَبًا » ، وقال : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » (١) وقال : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » (٢) وهو يوجب صفاء الباطن ، وخشوع القلب ، ورقة النظر ، وتنور النفس وتجليها ، وقد جعله الله تعالى مفتاحاً للكشف ، وسبباً لتواتر مزايا اللطف والاحسان وهو أقوى الأسباب لإفاضة الخيرات والبركات من المبادي العالية (فإن قيل) ما يرد على العبد من المكروه والبلايا يكون بقضاء الله وقدره والآيات والأخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقاً ، فالتشتمير لردّه بالدعاء يناقض الرضا (قلنا) إن الله سبحانه بعظم حكمته أوجد الأشياء على التسبيب والترتيب بينهما ، فربط المسببات بالأسباب ، ورتب بعضها على بعض ، وجعل بعضها سبباً وواسطة لبعض آخر وهو مسبب الأسباب ، والقدر عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من أسبابها المعينة بحسب أوقاتها مطابقة لما في القضاء ، والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العالم العقلي على الوجه الكلي مطابقة لما في العناية الإلهية المسماة بالعناية الأولى ، والعناية عبارة عن إحاطة علم الله تعالى بالكل على ما هو عليه إحاطة تامة : فنسبة القضاء إلى العناية كنسبة القدر إلى القضاء .

ثم من جملة الأسباب لبعض الأمور والدعاء والتصدق وأمثالهما ، فكما أن شرب الماء سبب رتبه مسبب الأسباب لازالة العطش ، ولولم يشربه لكان

عطشه باقياً الى أن يؤدي الى هلاكه ، وشرب المسهل سبب لدفع الاخطا الردية ، ولولم يشر به لبقيت على حالها ، وهكذا في سائر الاسباب ، فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى لدفع البلايا ورفعها ، ولولم يدع لنزل البلاء ولم يندفع (فلو قيل) لو كان في علم الله تعالى وفي قضائه السابق أن زيدا مثلاً يدعو الله ، أو يتصدق عند ابتلائه ببليّة كذا وتندفع به بليته لدعاء أو يتصدق ودفع بليته ، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا يتصدق ويبتلى بتلك البليّة لم يدع الله ، ولم يتصدق ، ولم تندفع عنه البليّة ، والحاصل أن كل ما تعلقت به العناية الكلية والقضاء الأزلي يحصل مقتضاه في الخارج وعالم التقدير إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فاي فائدة في سعي العبد واجتهاده ، (قلنا) هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبوراً في فعله ونفي الاختيار عنه ، ولا مدخلة لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا وكونه من جملة الاسباب المرتبة منه تعالى لحصول مسبباتها كالنزوح لتحصيل الولد ، والأكل والشرب لدفع الجوع والعطش ، ولبس الثياب لدفع الحر والبرد وغير ذلك ، ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها المذكور في موضعها .

وأما انكار المعاصي وكراهتها والفرار من أهلها ومن البلد الذي شاعت فيه فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها فقال : « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنَنُوا بِهَا » وقال : « رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ » وفي بعض الأخبار : من شهد منكراً ورضي به فكأنه قد فعله ، وفي آخر : « لو أن عبداً قتل بالمشرك ورضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكاً في قتله » ، وفي آخر : « إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وذر صاحبه » ، قيل وكيف ذلك ، قال : « فيبلغه فيرضى به »

وأما بعض الكفار والفجار والفساق ومقتهم والانكار عليهم فما ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى ، قال الله سبحانه : « لَا تَسْخِذُوا الْمُؤْمِنِينَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ » وقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ » ، وفي الخبر « إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله . وقد تقسمت جملة من شواهد هذا في باب الحب في الله والبغض في الله (فإن قيل) المعاصي إن لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله مطلقاً فكراهتها ومقها كراهة قضاء الله ، والآيات والأخبار مصرحة بوجوب الرضا بقضاء الله مطلقاً ، وذلك تناقض فكيف السبيل إلى الجمع وأنى يتأتى الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد (قلنا) المقرر عند بعض الحكماء أن الشرور الواقعة في العالم من المعاصي وغيرها راجعة إلى الأعدام دون الموجودات ، فلا تكون صراحة له تعالى ، ولا داخلية في قضائه ، وعند بعضهم أنها داخلية في قضائه بالعرض لا بالذات ، ولا خير في كراهة ما ليس في قضاء الله تعالى بالذات ، وعند بعضهم أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة ، وعلى هذا فينبغي أن تكون مكروهة من حيث ذاتها ، وبهذه الحيثية لا تكون من قضاء الله والرضا به وفرضه من حيث كونها باعثة لخيرات كثيرة .

والتحقيق أن الأوصاف الثلاثة ثابتة للشرور الواقعة في العالم أعني أنها راجعة إلى الأعدام وداخلية في قضائه تعالى بالعرض ، وشرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة ، وعلى هذا فوجه الجمع أظهر ، ثم لا يبي حامد الغزالي هنا وجه جمع آخر لا يروي الغليل ولا يشفي الغليل (فإن قيل) بغض أهل المعاصي ومقتهم

موقوف على ثبوت الاختيار لهم وتمسكهم من تركها واثبات ذلك مشكك
(قلنا) لا اشكال فيه اذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد في افعالهم
لا سيما فيما يتعلق به التكليف والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغي ، فالاولى فيها
السكوت والتأدب بأداب الشرع والرجوع الى ما ورد من العترة الطاهرة
وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه في كتابنا المسمى بجامع الافكار .

فصل

طريق تحصيل الرضا

الطريق الى تحصيل الرضا أن يعلم أن ما قضى الله سبحانه له هو الأصلح
بحاله وإن لم يبلغ فهمه الى سيره فيه ، مع أن السخط والكراهة لا يفيد شيئاً
ولا يتبدل به القضاء ، فإن ما يُقدَّر يكون ، وما لم يُقدَّر لم يكن ، وحسرة
الماضي وتدير الآتي يذهبان بتركه الوقت بلا فائدة ، وتبقى تبعه السخط عليه ،
فينبغي أن يدهشه الحب بخالقه عن الاحساس بالالم كما للعاشق ، وأن يهون عليه
العلم بعظم الثواب التعب والعناء كما للمريض والتاجر المتحمِّلين شدة الحجامة
والسفر فيفوض امره الى الله إن الله بصير بالعباد .

تتميم

التسليم

اعلم أن التسليم ويسمى تفويضاً أيضاً قريب من الرضا بل هو فوق الرضا
لأنه عبارة عن ترك الاعراض في الامور الواردة عليه ، وحوالها بأسرها

الى الله مع قطع تعلقه علمها بالسكينة بمعنى ألا يكون طبعه متعلقاً بشي منها ، فهو فوق
الرضا ، إذ في مرتبة الرضا كلما يفعل الله به يوافق طبعه ، فالطبع ما حووظ
ومنظوره ، وفي مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكولة الى الله
سبحانه وفوق مرتبة التوكل أيضاً ، إذ التوكل كما يأتي عبارة عن الاعتماد في اموره
على الله فهو بمنزلة توكل الله في اموره وكأنه يجعل الله تعالى بمثابة وكيله فيكون
تعلقه باموره باقياً ، وفي مرتبة التسليم بقطع العلاقة من الامور المتعلقة به بالسكينة .
(ومنها) :

الحزن

وهو التحسر والتألم لفقد محبوب ، أو فوت مطلوب ، وهو أيضاً
كلا اعتراض والانكار مترتب على الكراهة للمقدرات الإلهية .
والفرق أن الكراهة في الاعتراض أشد من الكراهة في الحزن كما أن
ضد الكراهة أعني الحب في ضدهما بعكس ذلك أي ظهوره في السرور الذي ضد
الحزن أشد من ظهوره في الرضا الذي هو ضد الاعتراض فإن الرضا هو منع النفس
في الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح ، والسرور هو منعها فيها عن
الجزع مع الابتهاج والابسط ، فالسرور فوق الرضا في الشرافة كما أن الحزن
تحت الاعتراض في الخسة والردالة ، وسبب الحزن شدة الرغبة في المشتبهات
الطبيعية ، والميل الى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة ، وتوقع البقاء للامور
الجسمانية ، وعلاجه أن يعلم أن ما في عالم الكون والفساد من الحيوان والنبات
والجماد والعروض والاموال في معرض الفناء والزوال ، وليس فيها ما يقبل
البقاء ، وما يبقى ويدوم هو الامور العقلية ، والكلمات النفسية المتعالية عن

حيلة الزمان وحوزة المكافآت وتصرف الاضداد وتطرق الفساد ، واذا تيقن
 بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة ، والاماني الباطلة ، فلا يتعلق قلبه
 بالأسباب الدنيوية ، ويتوجه بشرائه الى تحصيل الكمالات العقلية ، والسعادات
 الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية ، والمجاورة للأنوار القادسة
 النابتة ، فيصل الى مقام البهجة والسرور ، ولا تلهقه احزان عالم الزور كما
 اشير اليه في الكتاب الإلهي بقوله : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » وفي أخبار داود عليه السلام : « يا داود ما لاوليائي
 والهمم بالدنيا ، إن الهم يذهب حلالة مناجاتي من قلوبهم ، إن محبي من
 أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يفتنون » والحاصل أن حب الفانيات والتعلق
 بما من شأنه الفوات خلاف مقتضى العقل ، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود
 الأمور الفانية ، أو يحزن بزوالها ، ولقد قال سيد الأوصياء عليه آلاف التحية
 والثناء : « ما لملي وزينة الدنيا ، وكيف افرح بلذة تفنى ، ونعيم لا يبقى »
 بل ينبغي أن يرضي نفسه بالموجود ، ولا يفتن بالمفقود ، ويكون راضياً بما يرد
 عليه من خير وشر ، وقد ورد في الآثار أن الله تعالى بحكمته وجلاله جعل
 الروح والفرح في الرضا واليقين ، ومن رضي بالموجود ولا يحزن بالمفقود فقد
 فاز بأمن بلا فزع ، وسرور بلا جزع ، وفرح بلا حسرة ، ويقين بلا حيرة ،
 وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالا من سائر طبقات الناس فإن كل حزب
 بما لديهم فرحون كالتاجر بالنجارة ، والزارع بالزراعة ، بل الشاطر بالشطارة ،
 والقواد بالقيادة ، مع أن ما هو السبب والموجب المفرح في الواقع ونفس
 الامر ليس إلا لأهل السعادة والكمال ، وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال .
 فينبغي لطالب السعادة أن يكون فرحانا بما عنده من الكمالات الحقيقية ،

والسمادات الأبدية ولا يحزن على فقد الزخارف الدنيوية ، والحطام الطبيعية ،
ويتذكروا ما خاطب الله به نبيه صلى الله عليه وآله : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا
مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » ، ومن تصفح فرق الناس يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشيء
من الأشياء وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام أمرهم ، فالصبيان فرحهم باللعب وتهيئة
اسبابه وهو في غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم ، والبالغون حد
الرجولية بعضهم فرحان بالدرهم والدينار ، وبعضهم بالضيق والعقار ، وآخر
بالاتباع والانصار ، وفرقة بالنسوان والأولاد ، وطائفة بالحرف والصنایع ،
وبعضهم بالحسب والنسب ، والآخر بالجاه والمنصب ، وبعضهم بالقوة الجسمانية ،
وآخر بالجمال الصوري ، وطائفة بالكلمات الدنيوية كالخط والشعر وحسن
الصوت والطب والعلوم الغريبة وغير ذلك حتى ينتهي الى من لا يفرح
إلا بالكلمات النفسية ، والرياسات المعنوية ، وهم أيضاً مختلفون ، فبعضهم
غاية فرحه بالعبادة والمجاهدة ، وآخر بمعرفة حقائق الأشياء حتى يصل الى من ليس
فرحه إلا بالانس بحضرة الربوبية ، والاستغراق في لجة أنواره ، وسائر المراتب
عنده فهي زائل وخیال باطل . ولا ريب في أن العاقل يعلم أن ما ينبغي أن يفرح
ويبتهج به حصول هذه المرتبة وسائر الامور كسراب بقیعة يحسبه الظآن ماء ،
فلا ينبغي للعقل أن يحزن بفقدها ويفرح بوجودها . ثم من تأمل يجد أن الحزن
ليس أمراً وجودياً لازماً بل هو امر اختياري يحدثه الشخص في نفسه بسوء
اختياده ، إذ كلما يفقد من شخص ويحزن لأجله ليس موجوداً لكثير من الناس
بل ربما لم يملكوه في مدة عمرهم أصلاً ومع ذلك لا تجدهم محزونين على عدمه بل
فرحون راضون ، ولو كان الحزن لازماً لفقد هذا الأمر لكان كل من فقده

محزوناً وليس كذلك وايضاً كل حزن يعرض لأجل مصيبتة يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور ، ولو كان الحزن لأجلها اصراً ضرورياً لازماً لما زال أصلاً .
ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الأمور الدنيوية مع أنه يعلم أن الدنيا دار الفناء ، وزخارفها ممتلئة بين الناس ولا يمكن بقاؤها لأحد ، وجميع الأسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل الى الناس على سبيل التبادل والتناوب ، ومثلها مثل شئمة تدار في مجلس بين أهل على التناوب يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم ثم يعطيها غيره فطامع البقاء للعظام الدنيوية كمن طمع في ملكية الشئمة واختصاصها به إذا وصلت اليه نوبة الاستمتاع ، وإذا استردت منه عرض له الحزن والحيلة ، وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع فلا ينبغي للعاقل أن يغم ويحزن لأجل ردّ الوديعة كيف والحزن بردها كفران للنعمة ، إذ أقل مراتب الشكر أن تردّ الوديعة الى صاحبها على طيب النفس لا سيما إذا استرد الأخص اعني الخبائث الدنيوية وبقي الأشرف اعني النفس وكالاتها العلية والعملية فينبغي لكل عاقل ألا يعلق قلبه بالأمور الفانية حتى لا يحزن بفقدائها ، قال سقراط : « إني لم أحزن قط ، إذ ما أحببت قط شيئاً حتى أحزن بفوته ، ومن سرّه ألا يرى ما يسهوّه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقداً » .
(ومنها) :

عدم الاعتماد

أو ضعفه في أموره على الله ، والوثوق بالوسائط ، والنظر اليها فيها ، وسببه إما ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، أو كلاهما فهو من رذائل قوتي العاقلة والغضب . ولا ريب في أنه من المهلكات العظيمة وينافي الايمان ، بل هو من

شعب الشرك ، ولذا ورد في ذمه من الآيات والأخبار ما ورد ، قال الله سبحانه :
 « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ » (١) وقال :
 « إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا
 عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ » (٢) وقال : « وَلِلَّهِ تَخَزَّيْنُ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَالسَّكِينِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ » (٣) وفي أخبار داود عليه
 السلام : « ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خاقي عرفت ذلك من نيتيه إلا
 قطعت أسباب السماوات من يديه واسخطت الأرض من تحته ولم ابال بأي واد
 هلك » قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من اغتر بالعبيد أذله الله » وقيل
 مكتوب في التوراة : « ملعون من ثقته بانسان مثله » . فينبغي للمؤمن أن يتخلى عنه
 باكتساب ضده اعني التوكل كما يأتي .

وصل

التوكل - فضيلة التوكل - درجات التوكل - السعي لا ينافي التوكل -
 الأسباب التي لا ينافي السعي اليها التوكل - اعقل وتوكل - درجات الناس
 في التوكل - تنفيذ زعم - طريق تحصيل التوكل .

التوكل اعتماد القلب في جميع الامور على الله ، وبعبارة اخرى حوالة
 العبد جميع اموره على الله ، وبعبارة اخرى هو التبري من كل حول وقوة والاعتماد
 على حول الله وقوته وهو موقف على أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا فاعل إلا

(١) الأعراف الآية ١٩٣ . (٢) العنكبوت الآية ١٦ .

(٣) المنافقون الآية ٧ .

الله ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد
 ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى
 قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته عناية ، فمن
 اعتقد ذلك أتكل قلبه لا محالة على الله وحده ولم يلتفت الى غيره ولا الى
 نفسه أصلاً ، ومن لم يجد ذلك من نفسه فسببه إما ضعف اليقين ، أو ضعف
 القلب ، ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ،
 فإن القلب الضعيف ينزعج تبعاً للوهم ، وطاعة له من غير نقصان في اليقين
 كأنزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش ، مع يقينه بأنه جهاد في الحال
 لا يتصور منه إضرار ، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفرّ عنه كما لا يفر من سائر
 الجمادات ، وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل - مثلاً - فشبه العسل بين
 يديه بالعذرة فر بما نفر طبعه لضعف قلبه ، وتعدّر عليه أن يتناوله مع يقينه بأنه عسل
 ولا مدخلية للعذرة فيه ، فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب جميعاً ،
 إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته ، فالسكون في القلب شيء آخر ، واليقين
 شيء آخر ، فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى : « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ
 بَلَىٰ وَاسْكُنْ لِيَظْمَمِينَ قَلْبِي » (١) فلتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه
 ليثبت اليقين في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ، ولا تطمئن باليقين
 في ابتداء أمره الى أن تبلغ درجة النفس المطمئنة ، وذلك لا يكون في البداية ، وكم
 من مطمئن لا يقين له كأرباب الملل والمذاهب الباطلة فإن اليهودي مطمئن القلب
 الى تهوّدّه ، وكذا النصراني ولا يقين لهما أصلاً ، وإنما يتبعون الظن وما
 تهوى الأنفس ، وإذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب ، وارتفع بضعف

أحدهما يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة والعنصرية معاً ، وضده
 أعني عدم التوكل من رذائل أحدهما أو كليهما . ثم إنك قد عرفت في باب
 التوحيد أن عماد التوكل وما يقتضي عليه هو المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهي أن
 ينكشف للعبد بإشراق نور الحق بآته لأفعل إلهه وأن ما عمده من الأسباب
 والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الأزلية فطالب التوكل يلزم عليه أن
 يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل ، وقد عرفت أيضاً أن المرتبة
 الثانية منه أعني التوحيد الاعتقادي إذا قويت ربما أدرت حال التوكل إلا أن
 التوكل كما ينبغي موقوف على المرتبة الثالثة منه .

فصل

فضيلة التوكل

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين ،
 بل هو أفضل درجات الموقنين ولذا ورد في مدحه وفضله وفي الترغيب فيه ما ورد
 من الكتاب والسنة ، قال الله تعالى : « وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (١) وقال : « وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (٢)
 وقال : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » (٣) وقال : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ
 عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » (٤) وقال : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ
 اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٥) أي عزيز لا يذل من استجار به ، فلا يضع من لاذ

(١) المائدة الآية ٢٦ . (٢) المائدة الآية ١٤ . (٣) آل عمران

الآية ١٥٣ . (٤) الطلاق الآية ٣ . (٥) الانفال الآية ٥١ .

بجناحه ، وحكيم لا يصرعن تدبير من توكل على تدبيره ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقة من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها » وقال صلى الله عليه وآله : « من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله اوثق منه بما في يده » وقال صلى الله عليه وآله : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما رزق الطيور تغدو خماساً وتروح بطناناً » وعن علي بن الحسين عليهما السلام قال : ﴿ خرجت حتى انتهيت الى هذا الحائط فاتكأت عليه فإذا رجل عليه ثوبان ابيضان ينظر في تجاه وجهي ، ثم قال يا علي بن الحسين مالي أراك كئيباً حزيناً أعلى الدنيا فرزق الله حاضر للبر والفاجر قلت : « ما على هذا أحزن وإنه لكما تقول » قال : « فعلى الآخرة فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر قادر أو قال قادر » قلت : « ما على هذا أحزن وإنه لكما تقول » فقال : « ممّ حزئك قلت : « مما نذخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه الناس » قال : فضحك ثم قال : يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبهه قلت : لا قال : فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه قلت لا قال : فهل رأيت أحداً سأل الله فلم بمطه قلت لا ثم غاب عني ﴿ ولعل الرجل كان هو الخضر على نبينا وعليه السلام ، وقال الصادق عليه السلام اوحى الله الى داود : « ما اعتصم بي عبيد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له الخرج من بينهن » وقال عليه السلام : « إن الغنى والعز يجولان فإذا ظفرا بموضع التوكل اوطننا » وقال عليه السلام : « من أعطي ثلاثاً لم ينسح ثلاثاً ، من أعطي الدعاء أعطي الاجابة ، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة ، ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية ، ثم قال أتلت كتاب الله عز وجل : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » وقال :

« واثن شكرتم لازيدنكم » وقال : « ادعوني استجب لكم » وقال عليه السلام :
« أيما عبد أقبل قبل ما يحب الله تعالى أقبل الله قبل ما يحب ، ومن اعتمد
بالله عصمه الله ، ومن أقبل الله قبلة وعصمه ، لم يسأل لو سقطت السماء على
الأرض ، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فتشملهم بليّة كان في حزب
الله بالتقوى من كل بليّة ، أليس الله تعالى يقول : إن المتقين في مقام أمين »
وقال عليه السلام : « إن الله تعالى يقول : وعزتي وجلالي ومجدي وارتعائي
على عرشي لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس في غيري باليأس ، ولأكسونه ثوب
المدة عند الناس ، ولأتحينه من قربي ، ولأبعدنه من وصلي ، أيؤمل غيري
في الشدائد والشدائد بيدي ، ويرجو غيري ، ويقرع بالفسكر باب غيري ويدي
مفاتيح الأبواب وهي مغلقة ، وبابي مفتوح لمن دعاني ، فمن ذا الذي أملني
لنوائبه فقطسته دونها ، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني ، جعلت
آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي ، وملاّت سماواتي ممن لا يمل من
تسبيحي ، وأمرتهم ألا يفلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي ألم
يعلم من طرقته نائبة من نوائي أنه لا يملك كشفها احد غيري إلا من بعد اذني ،
فما لي اراء لاهياً عني اعطيته بجودي ما لم يسألني ثم اتزعتة عنه فلم يسألني رده
وسأل غيري أفتراني ابدأ بالعطاء قبل المسألة ، ثم أسأل فلا اجيب سألني ،
أبخيل أنا فيبخلني عبدي ، أليس الجود والكرم لي ، أليس العفو والرحمة
بيدي ، أو است أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني أفلا يخشى المؤمن أن يؤملوا
غيري ، فلو أن أهل سماواتي وأهل ارضي أملوا جميعاً ثم اعطيت كل واحد منهم
مثل ما أمل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة ، وكيف ينقص ملك أنا

قيّمه فيا يؤساً المقانطين من رحمتي ، ويا يؤساً لمن عصاني ولم يراقبني « (١) .

فصل

درجات التوكل

للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات : (الأولى) أن يكون حاله في حق الله والثقة بعشائره وكفالاته كحالته في الثقة بالوكيل ، وهذه اضعف الدرجات ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة ، ولا ينافي اصل التدبير والاختيار . بل ربما زال كثيراً من التدبيرات بسعيه واختياره ، نعم ينافي بعض التدبيرات كالتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل ، ولكن لا يترك التدبير الذي اشار اليه وكيله ، ولا التدبير الذي عرفه من عاداته وسنته دون تصريح اشارته (الثانية) أن تكون حاله مع الله كحال الطفل مع امه فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يتزع إلا اليها ، ولا يعتمد إلا عليها فإن رآها تعلق في كل حال بذيلها ، وإن ورد عليه امر في غيبتها كان اول سابق لسانه يا امه والفرق بين هذا وسابقه أن هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله أي ليس يلتفت قلبه الى المتوكل ، بل التفاته إنما هو الى المتوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه وأما الاول فتوكل بالكسب والتكلف وليس فانياً عن توكله أي به التفات الى توكله وذلك

(١) صحيحنا الاحاديث على اصول الـ كافي الجزء الثاني باب التفويض الى الله والتوكل عليه وعلى البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر باب التوكل والتفويض والرضى ص ١٥٣ وللعلامة [المجامعي] قدس سره في الموضع المذكور في الحديث الخامس تحقيق دقيق وبيان لطيف لا يسع المقام ذكره هنا فمن اراد الوقوف عليه فعليه بمراجعة الموضع المذكور .

شغل صارف عن ملاسطة المتوكل عليه وحده ، وهذا أقل وقوعاً ودواماً من
الاول إذ حصوله إنما هو للخواص وغاية دوامه أن يدوم يوماً أو يومين ، وينافي
التدبيرات إلا تدبير الفزع الى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل في التعلق
بأمه فقط (الثالثة) وهي أعلى الدرجات أن يكون بين يدي الله في حركاته
وسكناته ، مثل الميت بين يدي الفاسل بأن يرى نفسه ميتاً ، وتحركه القدرة
الازلية كما يحرك الفاسل الميت ، وهو الذي قويت نفسه ، ونال الدرجة الثالثة
من التوحيد . والفرق بينه وبين الثاني أن الثاني لا يترك الدعاء والتضرع كما
أن الصبي يفزع الى امه ، ويصيح ويتعلق بذيلها ، ويمسوخلفها ، وهذا ربما
يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته ، فهذا مثال صبي علم أنه إن لم يرُصَّ بامه
فالأم تطلبه ، وإن لم يتعلق بذيلها فهي تحمله ، وإن لم يسأل اللبن فهي تسقيه ،
ومن هذا القسم توكل ابراهيم الخليل عليه السلام لما وضع في المنجنيق ليرمى به الى النار
واشار اليه روح الأمين بسؤال النجاة والاستخلاص من الله سبحانه فقال :
« حسي من سؤالي علمه بحالي ، وهذا نادر الوقوع ، عزيز الوجود ، فهو مرتبة
الصديقين واذا وجد فدوامه لا يزيد على صفرة الوجه ، أو حمرة الخجل ، وهو
ينافي التدبيرات ما دام باقياً إذ يكون صاحبه كالمبهوت . ثم توكل العبد على الله
قد يكون في جميع اموره . وقد يكون في بعضها . وتختلف درجات ذلك بحسب
كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها ، وقال الكاظم عليه السلام في قوله عز وجل :
« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » التوكل على الله درجات ، منها أن تتوكل
على الله في امورك كلها ، فما فعل بك كنت عنه راضياً تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً
وتعلم أن الحكم في ذلك له فتوكل على الله بتفويض ذلك اليه ، وثق به فيها
وفي غيرها » ولعل سائر درجات التوكل أن يتوكل على الله في بعض اموره

دون بعض ، وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها .

فصل

السعي لا ينافي التوكل

اعلم أن الامور الواردة على العباد إما أن تكون خارجة عن قدرة العباد ووسعهم بمعنى أنه لا تكون لها اسباب ظاهرة قطعية أو ظنية لجليها ، أو دفعها ، أو تكون لها اسباب جالبة لها ، أو دافعة اياها إلا أن العبد لا يتمكن منها .

فقتضى التوكل فيها ترك السعي بالمتمحلات والتدبيرات الخفية ، وحوالاتها على رب الأرباب ، ولو دبر في تغييرها بالمتمحلات والتكلفات لكان خارجا عن التوكل رأساً أو لا تكون خارجة عن قدرتهم بمعنى أن لها أسباباً قطعية أو ظنية يمكن للعبد أن يحصلها ويتوصل بها الى جليها أو دفعها ، فالسعي في مثلها لا ينافي التوكل بعد أن يكون وثوقه واعتماده بالله دون الاسباب ، فمن ظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالعقل رأساً ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة فقد أبعد عن الحق لأن ذلك محرم في الشرع الأقدس ، فإن الشارع كلف الانسان بطلب الرزق بالاسباب التي هداه الله اليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك مما أحله الله ، وبإبقاء النسل بالتزويج وكلفه بأن يدفع عن نفسه الأشياء المؤذية بالتوصل الى الاسباب المعينة لدفعها ، وكما أن العبادات امور أمر الله تعالى عباده بالسعي فيها ليحصل لهم بها التقرب اليه والسعادة في دار الآخرة ، فكذلك طلب الحلال ودفع الضرر والألم عن النفس والأهل والعيال امور أمرهم الله تعالى ليحصل لهم بها التوصل الى العبادات

وما يؤدي الى التقرب والسعادة ، ولكنه سبحانه كفهم ايضاً بالآ يتقوا
إلا به ، ولا يعتمدوا على الأسباب ، كما أنه سبحانه كفهم بالآ يتسكّلوا على
أعمالهم الحسنة ، بل على فضله ورحمته ، فمعنى التوكل المأمور به في الشريعة
اعتماد القلب على الله في الامور كلها وانقطاعه عما سواه ، ولا ينافيه تحصيل
الاسباب اذا لم يسكن اليها ، وكان سكونه الى الله سبحانه دونها مجوّزاً في نفسه
أن يؤثيه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب دون هذه الاسباب التي حصلها وأن
يقطع الله هذه الاسباب عن مسبباتها .

فصل

الاسباب التي لا ينافي السعي اليها التوكل

الاسباب التي لا ينافي تحصيلها ومنزواتها للتوكل هي الاسباب القطعية
أو الظنية ، وهي التي يقطع أو يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيته
ارتباطاً مطرداً لا يتخلف عنها سواء كانت جلب نفع أو لدفع ضرر منتظر
أولاً إزالة آفة واقعة ، وذلك كمدّ اليد الى الطعام للوصول الى فيه ، وحمل الزاد
للسفر ، واتخاذ البضاعة للتجارة ، والوقاع لحصول الأولاد ، وأخذ السلاح
للعُدو ، والادّخار لتجدد الاضرار ، والتداوي لازالة المرض ، والنحرز عن
النوم في ممر السيل ، ومسكن السباع ، وتخط الحائط المائل ، وغلق الباب ،
وعقل البعير ، وترك الطريق الذي يقطع أو يظن وجود السارقين أو السباع
الضارة فيه وقس عليها غيرها .

وأما الاسباب الموهومة كالرؤية والطميرة والاستقصاء في دقائق التدبير

وابداء التمحلات لأجل التبديل والتغيير فيبطل بها التوكل لأن امثال ذلك ليست باسباب عند العقلاء ، وليست مما أمر الله تعالى بها ، بل ورد النهي عنها على أن المأمور به الاجمال في الطلب وعدم الاستقصاء ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله تعالى واجملوا في الطلب » ، وقال صلى الله عليه وآله : « ما أجمل في الطلب من ركب البحر » ، وقال الصادق عليه السلام : « ليسكن طلب المعيشة فوق كسب المضييع ، ودون طلب الحريص ، الراضي بدنياه ، المطمئن اليها ، ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف ، ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف ، وتكتسب ما لا بد منه ، إن الذين اعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم » ، وقال عليه السلام : « اذا فتحت بابك ، وبسطت بساطك فقد قضيت ما عليك . »

فصل

إعقل وتوكل

اعلم أن التوكل لا يبطل بالاسباب المقطوعة والمظنونة مع أن الله قادر على اعطاء المطاوب بدون ذلك لأن الله سبحانه ربط المسببات بالاسباب وأبى أن يجري الأشياء إلا بالاسباب ، ولذا لما اهل الأعرابي بعيره وقال توكلت على الله قال له النبي صلى الله عليه وآله : « إعقلها وتوكل » وقال الصادق عليه السلام : « اوجب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالاسباب التي سببها لذلك وأمرهم بذلك ، وقال الله تعالى : خذوا حذرَكُمْ ، وقال في كيفية صلاة الخوف :

فَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحْهُمْ» وقال: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» وقال موسى: «فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً» والتحصن بالليل اخفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر. وفي الاسرائيليات أن موسى بن عمران عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو اسرائيل فعرفوا علمه فقالوا له لا تداويت بكذا لبرئت فقال: «لا اتداوى حتى يعافيني الله من غير دواء» فطالت علمته، فأوحى الله اليه: «وعزني وجلالي لا أبرؤك حتى تتداوى بما ذكروه لك» فقال لهم: «داووني بما ذكرتم» فداووه فبرى، فأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى اليه: «أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك علي، فمن اودع العقاقير منافع الاشياء غيري؟» وروي أن زاهداً من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل فقال لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي فقام سبعة فساد يموت، ولم يأت به رزق فقال: يا رب إن أحييتني فأنتي برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني اليك، فأوحى الله تعالى اليه: «وعزني وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار، وتقمع بين الناس»، فدخل المصر فأقام، فجاء هذا بطعام، وهذا بشراب فأكل وشرب فأوجس في نفسه ذلك فأوحى الله اليه: «أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب الي من أن أرزقه بيد قدرتي».

فصل

درجات الناس في التوكل

اعلم أن درجات الناس كما عرفت في التوكل مختلفة بحسب تفاوت

صراحتهم في قوة اليقين وضعفه وفي قوة التوحيد وضعفه (فمنهم) من كل إيمانه و يقينه بحيث سقط وثوقه عن الأسباب الكلية ، وتوجه بشرائره الى الواحد الحق ، ولا يرى مؤثراً إلا هو ، وليس نظره الى غيره اصلاً ، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته بحيث لا يختلج بباله احتمال أن يكله ربه الى غيره ولا يعترى نفسه اضطراب اصلاً ، فلا بأس لمثله أن يعرض عن الأسباب المقطوعة أو المظنونة بالكلية لأن الله سبحانه يحفظه ويحرسه ويصلح اموره ، ويرزقه من حيث لا يحتسب سواء حصل الأسباب أم لا ، وسواء كسب أم لم يكتسب إلا أنه ربما لم يترك السبب والكسب ويتبع امر الله فيه ، إلا أنه ليس وثوقه إلا بالله دون السبب والكسب ، وما ورد من حكايات بعض الكامل من الاولياء من أنهم يسافرون في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد ثقة بالله ، ويصل اليهم الرزق ، أو لا يتحرزون من السباع الضارة ، أو يغلظون القول بالنسبة الى أهل الاقتدار من الملوك والسلطين من دون خوف ومبالاة اعتماداً على الله ، والله سبحانه ينجيهم منهم كانوا منهم أي من الكاملين في التوكل قال الصادق عليه السلام : « أبى الله عز وجل أن يجعل أرزاق المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون » ، وإنما خصه بالمؤمنين لأن كمال الايمان يقتضي ألا يثق صاحبه بالأسباب وأن يتوكل على الله عز وجل وحده ، وكمال الايمان إنما يكون اصحاب العلم المكنون من الانبياء والاولياء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (ومنهم) من لم يبلغ قوة إيمانه و يقينه حداً تغيب عن نظره الأسباب والوسائط ، ويكون مقصور الالتفات الى جناب الحق فهذا هو الذي لا ينبغي له أن يعرض عن الأسباب ويتركها لأن مثله ليس له المظنة التي توصله الى المقصد بدون الوسائط اعني قوة التوكل على الله واليقين به سبحانه .

فصل

تفنيد زعم

بعض الناس زعم أن حق التوكل أن يكتفى بالأسباب الخفية عن الأسباب الجلية كأن يسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد بعد أن راض نفسه على جوع الأسبوع وما يقاربه بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب ، واضطراب نفس ، وتشويش خاطر ، وفتور في ذكر الله ، وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفوق له وأن يوطن نفسه على أنه إن مات جوعاً كان خيراً له في الآخرة .

وكان يجلس في مسجد أو بيته ويترك الكسب ، ويتفرغ للعبادة ، والفكر والذكر ، واستغرق وقته بها بحيث لا يستشرف نفسه الى الناس في انتظاره ، ومن يدخل فيحمل عليه شيئاً ، بل يكون قوياً القلب في الصبر والاتكال على الله ، وهذا محض الخطأ إذ من جاهد نفسه وراضها بحيث يصبر على جوع الأسبوع ويمكنه التقوت بالحشيش صارت الأسباب له جلية فإن عدم الحاجة احد الغدائين . ثم إن كان اعتماده حينئذ على صبره وتمكنه من التقوت بالحشيش فإن التوكل ، وإن كان وثوقه بالله وحده فليقم في بلده مع الأسباب كما أمر الله به في الشرع وأما توطئ نفسه باختياره على الموت فممنوع عقلاً ومحرّم شرعاً قال الله سبحانه : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » وأما الجالس في بيته التارك لكسبه يعبد الله من دون طلب فهو أيضاً قد ترك متابعة أمر الله قال الصادق عليه السلام : « إن من يقوته أشد عبادة منه » وربما يكون مثله كلاً على الناس فإن حاله ينادي بالبؤس واليأس ، بل هو ضرب على توطن الناس

وتعرض للذل . وبالجملة لا مدخل لحفاء الأسباب وجلاتها في التوكل بعدما تقرر أن معناد الثقة بالله وحده لا بالأسباب فسواء وجود الأسباب وفقدانها وجلاتها وخفاؤها .

فصل

طريق تحصيل التوكل

الطريق الى تحصيل التوكل بعد تقوية التوحيد والاعتقاد بأن الأمور بأسرها مستندة اليه سبحانه وليس لغيره مدخلة فيها أن يتذكر الآيات والاخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه وكونه باعث النجاة والكفاية ، ثم يتذكر أن الله سبحانه خلقه بعد أن لم يكن موجوداً ، واوجده من كتم العدم ، وهياً له ما يحتاج اليه ، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها ، وقد ضمن بكفاية من توكل عليه فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ، ولا يكفيه مؤنته ، ولا يوصل اليه ما يحتاج اليه ، ولا يدفع عنه ما يؤذيه لتقدمه من العجز والنقص والخلف والسهو . وينبغي أن يتذكر الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الأرزاق الى صاحبها ، وفي دفع البلايا والاسواء عن بعض عباده ، والحكايات التي فيها عجائب قهر الله في اهلاك اموال الأغنياء واذلال الأقوياء ، وكم من عبد ليس له مال وبضاعة وبرزقه الله بسهولة ، وكم من ذي مال وثروة هلكت بضاعته أو سرقت وصار محتاجاً ، وكم من قوي صاحب كثرة وعدة وسطة صار عاجزاً ذليلاً بلا سبب ظاهر ، وكم من ذليل عاجز صار قويا واستولى على الكل . ومن تأمل في ذلك يعلم أن الأمور بيد الله فيلزم الاعتماد عليه والثقة به ، والمناط أن يعلم أن الأمور لو كانت بقدرته الله سبحانه من غير مدخلة الأسباب والوسائط فيها فعدم التوكل عليه سبحانه والثقة بغيره غاية الجهل ،

وإن كانت لغيره سبحانه من الوسائط والأسباب مدخلية ، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وإنجاح الأمور إذ السمع والتجربة شاهدان بأن من توكل عليه وانقطع إليه كفاه الله كل مؤنة ، فكما أن شرب الماء سبب لازالة العطش ، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع ، فكذا التوكل سبب رتبته مسبب الأسباب لإنجاح المقاصد وكفاية الأمور . وعلامة حصول التوكل ألا يضطرب قلبه ، ولا يبطل سكونه بفقد أسباب نعمه وحدث أسباب ضرره ، فلو سرقت بضاعته ، أو خسرت تجارته ، أو تعوق امر من أموره كان راضياً به ، ولم تبطل طمأنينته ، ولم تضطرب نفسه ، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً فإن من لم يسكن الى شيء لم يضطرب بفقده ، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن اليه واطمأن به .

(ومنها) :

الكفران

وضده الشكر

الشكر - فضيلة الشكر - الشكر نعمة يجب شكرها - المدارك لتمييز محاب الله عن مكارها - اقسام النعم واللذات - الاكل - لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل - عجائب المأكولات - حاجة تحضير الطعام الى آلاف الاسباب - تسخير الله للتجار لجلب الطعام - نعم الله في خلق الملائكة للانسان - الاسباب الصارفة للشكر - طريق تحصيل الشكر - الصمحة خير من السقم .

وبعد ما تعرف حقيقة الشكر ، وكونه متعلقاً بآي القوى تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران وكونه من رذائل القوى .

فنعول الشكر هو عرفان النعمة من المنعم والفرح به ، والعمل بموجب
الفرح باضمار الخير ، والتحميد للمنعم ، واستعمال النعمة في طاعته أما المعرفة
فبأن تعرف أن النعم كلها من الله ، وأنه هو المنعم ، والوسائط مسخرات من
جهته ، ولو انعم عليك أحد فهو الذي سخره لك ، وألقى في قلبه من الاعتقادات
والارادات ما صار به مضطراً الى الايصال اليك ، فمن عرف ذلك حصل أحد
اركان الشكر لله ، وربما كان مجرد ذلك شكراً وهو الشكر بالقلب كما روي
أن موسى قال في مناجاته : « إلهي خلقت آدم بيدك ، وأسكنته جنتك ،
وزوجته حواء أمتك ، فكيف شكرك » فقال : « علم أن ذلك مني فكانت
معرفة شكرى » .

ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد وهما داخلان
فيها ، إذ التقديس تنزيهه سبحانه عن صفات النقص ، والتوحيد قصر المقدس
عليه ، والاعتراف بعدم مقدس سواه ، وهذه المعرفة هي اليقين بأن كل ما في
العالم موجود منه ، والكل نعمة منه فينطوي فيها مع التقديس ، والتوحيد
كمال القدرة والانفراد بالفعل ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من
قال سبحان الله فله عشر حسنات ، ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ،
ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة » ، فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ،
ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد ، والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعم من
الواحد الحق ، ولا تظن أن هذه الحسنات بأزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من
غير عقد القلب بمعانيها ، بل هي بأزاء الاعتقاد بمعانيها التي هي المعارف الممدودة
من ابواب الايمان واليقين ، وأما الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع
فهو أيضاً من اركان الشكر ، بل كما أن المعرفة شكر قلبي برأسه فهو أيضاً في نفسه

شكر بالقلب ، وإنما يكون شكراً إذا كان فرحه بالمنعم أو بالنعمة لا من حيث إنه نعمة ومال ينتفع به ويلتذ منه في الدنيا ، بل من حيث إنه يقدر بها على التوصل الى القرب من المنعم ، والنزول في جواره ، والنظر الى وجهه على الدوام ، وأمارته ألا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ، ومعينه عليها ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله ، وتصدّه عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لذاتها ، بل من حيث إنها توصله الى مجاورة المنعم وقربه ولقائه ، وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم فهو القيام بما هو مقصود بالمنعم ومحبو به ، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح ، أما المتعلق بالقلب فقصده الخير وإضماره لكافة الخلق ، وأما المتعلق باللسان فأظهار الشكر لله بالتحميدات المدالة عليه ، وأما المتعلق بالجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقّي من الاستعانة بها على معصيته حتى أن من جملة شكر العيين أن يستر كل عيب يراه من مسلم ، ومن جملة شكر الأذنين أن يستر كل عيب يسمعه من مسلم ، فيدخل هذا وامثاله في جملة شكر نعمة هذه الأعضاء ، بل قيل من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت لأجله كفر نعمة الشمس ايضاً إذ لا بصر إنما يتم بها ، وإنما خلقتنا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويقي بهما ما يضره فيهما ، بل المراد من خلق السماء والأرض وخلق الدنيا واسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول الى الله ولا وصول اليه إلا بمحبته ، والانس به في الدنيا ، والتجافي عن الدنيا وغرورها ولذاتها وعلائقها ، ولا انس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الذكر والفكر إلا ببقاء البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء والنار ، ولا يتم ذلك إلا بخلق الأرض والسماء وخلق سائر الأشياء ، وكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والنفس الراجعة

الى الله هي المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية ، وإذا عرفت حقيقة الشكر تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران فإنه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله ، أو عدم الفرح بالمنعم ، والنعمة من حيث ايصالها الى القرب منه ، أو ترك استعمال النعمة فيما يحبه المنعم ، أو استعمالها فيما يكرهه .

ثم بما ذكرناه وإن ظهر أن حقيقة الشكر ملتزمة من الأمور الثلاثة إلا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد ايضاً كما قال الصادق عليه السلام : « شكر كل نعمة وإن عظمت أن تحمد الله » وقال عليه السلام : « شكر النعم اجتناب المحارم » وتام الشكر قول الرجل الحمد لله رب العالمين ، وسئل عليه السلام عنه هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكرًا ؟ قال : « نعم » قيل ما هو قال : « يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال ، وإن كان فيما انعم عليه في ماله حق أداه ومنه قوله جل وعز : « سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » (١) ومنه قوله تعالى : « رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزِلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » (٢) وقوله : « رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا » (٣) ، وقال عليه السلام : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ورد عليه أمر يسره قال : الحمد لله على هذه النعمة ، وإذا ورد عليه أمر يغم به قال : الحمد لله على كل حال » ، وقال عليه السلام : « إذا أصبحت وأمسيت فقل عشر مرات اللهم ما أصبحت بي من نعمة أو غافية في دين أو دنيا فنك وحدك لا شريك لك

(١) الزخرف الآية ١٢ . (٢) المؤمنون الآية ٣٠ .

(٣) بني اسرائيل الآية ٨٧ .

لك الحمد ولك الشكر بها علي يا رب حتى ترضى وبعد الرضا ، فإنك إذا قلت ذلك كنت قد أدّيت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة » وفي رواية كان نوح عليه السلام يقول ذلك إذا أصبح فسمي بذلك عبداً شكوراً ، وقال عليه السلام : « إذا ذكر أحدكم نعمة الله فليضع خده على التراب شكراً لله ، فإن كان راكباً فلينزل وليضع خده على التراب ، وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه ، وإن لم يقدر فليضع خده على صكفه ثم ليحمد الله على ما أنعم عليه » ، وروي أن الصادق عليه السلام قد ضاعت دابته فقال : « لئن ردها الله عليّ لأشكرن الله حق شكره » . قال الراوي فما لبث أن أتى بها . (فقال الحمد لله) . فقال قائل له : جعلت فداك أليس قلت لأشكرن الله حق شكره . فقال أبو عبد الله عليه السلام : « ألم تسمعي قلت الحمد لله » (١) . ثم الشكر باللسان لاظهار الرضا من الله ولذا أمر به وقد كان السلف يتساءلون بينهم ، ويتهم استخراج الشكر لله ليوجر كل واحد من الشاكر والسائل ، وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لرجل : « كيف أصبحت ؟ » فقال بخير فأعاد عليه السؤال فأعاد عليه الجواب فأعاد السؤال فالثالثة فقال بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وآله : « هذا الذي أردت منك » .

﴿ تنبيه ﴾ لا ريب في أن الجزء الأول من الشكر اعني معرفة النعم من الله من متعلقات العاقلة وفضائلها ، والثاني اعني الفرح للنفس إن كان من

(١) هذه الرواية مذكورة في اصول الكافي الجزء الثاني . باب الشكر وفي الوافي الجزء الثالث . باب الشكر ص ٣٢٤ . إلا أن المتنقول في نسخ [جامع السعادات] فيه اختلاف كثير عما في الموضعين فصحيحناها عليها .

النعم العقلية الروحانية يكون متعلقاً بالعاقلة ايضاً وإن كان لأجل وصول نعمة القلب والاستيلاء مثلاً على عدو ظالم يكون متعلقاً بالقوة الغضبية ، وإن كان من نعمة المال والأولاد يكون متعلقاً بالقوة الشهوية ، والجزء الثالث اعني العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته . وبهذا يظهر أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث ، والأول من فضائلها اذا امتزجت وتسلمت ، والثاني من رذائلها .

فصل

فضيلة الشكر

الشكر أفضل منازل الأبرار وعمدة زاد المسافرين الى عالم الأنوار وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء ، وقد ورد به الترغيب الشديد وجعله الله سبباً للمزيد ، قال الله سبحانه : « مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ » وقال : « وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » وقال : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ » وقال : « وَسَنَجْزِي السَّائِرِينَ » والكونه غاية الفضائل والمقامات ليس لكل سالك أن يصل اليه بل ليس الوصول اليه إلا لأوحدي من كمل السالكين ، ولذا قال الله رب العالمين : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » ، وكفى به شرفاً وفضلاً أنه خلق من اخلاق الربوبية كما قال الله سبحانه : « وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » وهو فاتحة كلام أهل الجنة وخاتمة كما قال الله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ » وقال : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب ، والمعافي الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر ، والمعطي الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع » ، وقال صلى الله عليه وآله : « إن للنعم أو ابد كأو ابد الوحش ففئدوها بالشكر » ، وقال صلى الله عليه وآله : « ينادي مناد يوم القيامة ليقوم الحمدادون فيقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة » نقييل من الحمدادون فقال : « الذين يشكرون الله على كل حال » ، وقال السجاد عليه السلام : « إن الله سبحانه يحب كل عبد حزين ، ويحب كل عبد شكور » ، وقال الباقر عليه السلام : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها فقالت يا رسول الله لم تعجب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً ؟ قال : وكان يقوم على أطراف أصابع رجله فأنزل الله تعالى : طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » وقال الصادق عليه السلام : « ما انعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمده الله ظاهراً بلسانه قتم كلامه حتى يؤمر له بالمزيد » ، وقال عليه السلام : « ثلاث لا يضرن معهن شيء ، الدعاء عند الكرب ، والاستغفار عند الذنب ، والشكر عند النعمة » (١) ، وقال عليه السلام : « في كل نفس من انفسك شكر لازم لك ، بل الف أو أكثر وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله تعالى من غير علة يعلق القلب بها دون الله عز وجل ، أو الرضا بما أعطى ، وألا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته ، فكان لله عبداً شاكراً ، على كل حال نجد الله رباً كريماً على كل حال ، ولو كان عند الله تعالى عبادة تعبد بها عباده

(١) صحيحنا الأحاديث على أصول الكافي الجزء الثاني . باب الشكر

وعلى البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر باب الشكر ص ١٣٢ - ١٣٥ .

المخلصون أفضل من الشكر على كل حال لا تطلق لفظة منهم عن جميع الخلق بها ، فلما لم يكن أفضل منها خصها من بين العبادات وخص أربابها فقال : وقليل من عبادي الشكور ، وتمام الشكر الاعتراف بلسان السر ، خاضعاً لله بالعجز عن بلوغ أدنى شكره لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة بحجب الشكر عليها ، وهي اعظم قدراً ، وأعز وجوداً من النعمة التي من أجلها وفقت له ، فيلزك على كل شكر شكر اعظم منه الى ما لا نهاية له ، مستغرقاً في نعمه ، قاصراً عاجزاً عن درك غاية شكره ، وأتى يلحق العبد شكر نعمة الله ، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه والعبد ضعيف لا قوة له أبداً إلا بالله عز وجل ، والله غني عن طاعة العبد قوي على مزيد النعم على الأبد ، فكان لله عبداً شاكراً على هذا الأصل تر العجب « (١) . ثم كما أن الشكر من المنجيات الموصلة الى سعادة الأبد وزيادة النعمة في الدنيا فضده اعني الكفران من المهلكات المؤدية الى شقاوة السرمد وعقوبة الدنيا وسلب النعم ، قال الله سبحانه : « فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ » (٢) وقال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (٣) وقال الصادق عليه السلام : « اشكر من أنعم عليك ، وانعم على من شكرك فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت ، ولا بقاء لها إذا كفرت ، الشكر زيادة في النعم ، وامان من الغيّر أي من التغيير » .

(١) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة الباب السادس . وعلى سفيينة

البحار الجزء الأول ص ٢١٠ .

(٣) الرعد الآية ١٢ .

(٢) النحل الآية ١١٣ .

فصل

الشكر نعمة يحجب شكرها

لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله ، فالشكر على كل نعمة أن تعرف كونها من الله وتصرفها في جهة محبته ، ولا ريب في أن هذه المعرفة والصرف أيضاً نعمة من الله إذ جميع ما يُعطاه باختيارنا نعمة من الله لأن جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا ودواعينا وإفاضة المعارف علينا وسائر الأمور التي هي أسباب حركاتنا بل نفس حركاتنا من الله وعلى هذا فالشكر على كل نعمة نعمة أخرى من الله يحتاج إلى شكر آخر وهو أن نعرف أن هذا الشكر أيضاً نعمة من الله سبحانه فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه ، وهذه المعرفة والفرح تحتاج إلى شكر آخر ، وهكذا فلا بد من الشكر في كل حال ، وليس يمكن أن تنتهي سلسلة الشكر إلى ما لا يحتاج إلى شكر ، فغاية شكر العبد أن يعرف عجزه عن أداء حق شكره تعالى إذ عرفان عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم حتى يشكره من الله ، وهذا غاية ما يمكن للعبد ، ويشهد بذلك ما روي أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام : « يا موسى اشكرني حق شكري » فقال يارب كيف اشكرك حق شكرك وليس من شكرٍ أشكرُك به إلا وأنت انعمت به علي قال : « يا موسى الآن شكرتني حيث علمت أن ذلك مني » ، وكذلك أوحى ذلك إلى داود فقال : « يارب كيف اشكرُك وأنا لا أستطيع أن اشكرُك إلا بنعمة ثانية من نعمك » ، وفي لفظ آخر : « وشكري لك نعمة أخرى منك يوجب علي الشكر لك » ، فقال : « إذا

عرفت هذا فقد شكرتني « ، وفي خبر آخر : « اذا عرفت أن النعم مني رضيت عنك بذلك شكراً » ، وروي أن السجادة عليه السلام كان اذا قرأ هذه الآية : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » يقول : « سبحان من لم يجعل في احد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها ، كما لم يجعل في احد من معرفة ادراكه اكثر من العلم بأنه لا يدركه فشكره تعالى معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً كما علم علم العارفين بأنهم لا يدركونه فجعله ايماناً علماً منه أنه قد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك فإن شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته فكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » وقال ابو الحسن عليه السلام : « من حمد الله على النعمة فقد شكره ، وكان الحمد لله افضل من تلك النعمة » (١) يعني أنه نعمة فوق تلك النعمة يستدعي شكراً آخر .

فصل

المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه

لما عرفت أن الشكر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه ، والكفران عبارة عن نقيض ذلك اعني ترك استعمالها فيه أو استعمالها فيما يكرهه فلا بد من معرفة ما يحبه وما يكرهه ، وتمييز محابه عن مكارهه حتى يتمكن من اداء الشكر وترك الكفران لتوقفهما على معرفتهما وتمييزهما ، وهذا التميز والتعريف له

(١) صحيحنا الروايات الثلاث على اصول الكافي الجزء الثاني . باب

الشكر . وعلى الوافي الجزء الثالث . باب الشكر ص ٣٢٤ .

مدركان (احدهما) الشرع فإنه كشف عن جميع ما يحبه وما يكرهه ، وعبر
عن الاول بالواجبات والمندوبات ، وعن الثاني بالمحرمات والمكروهات ، فعرفة
ذلك موقوفة على معرفة جميع احكام الشرع في افعال العباد ، فمن لم يطلع على
حكم الشرع في جميع افعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر (وثانيهما) العقل والنظر
بعين الاعتبار فإن العقل متمكن في الجملة من أن يدرك بعض وجوه الحكم في
بعض الموجودات ، فإن الله سبحانه ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكم كثيرة ،
وتحت كل حكمة مقصود ومصلحة ، وهذا المقصود والمصلحة هو محبوب الله
تعالى ، فمن استعمل كل شيء على النحو الذي يؤدي الى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة
التي خلق لها فقد شكر نعم الله تعالى ، وإن استعمل شيئاً على النحو الذي لم
يؤد الى المقصود منه أو في جهة غير الجهة التي خلق لها فقد كفر نعمة الله .

ثم العقل لا يتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شيء إذا لحكم
المقصودة من الأشياء إما جلية أو خفية : أما الجلية كحكمة حصول الليل والنهار
في وجود الشمس ، وحكمة انتشار الناس وسكونهم في وجود الليل والنهار ،
وحكمة انشقاق الأرض بأنواع النبات في وجود القيم ونزول الأمطار ، وحكمة
الإبصار في العين ، والبطش في اليد ، والمشي في الرجل ، وحصول الأولاد ،
وبقاء النسل في آلات التناسل ، وخلق الشهوة ، وحكمة المضغ والطحن في
خلق الأسنان وأمثال ذلك .

وأما الحكم الخفية كالحكم التي في خلق الكواكب السيارة والثابتة ،
واختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص ، والحكم التي في بعض
الأعضاء الباطنة للحيوان من الأمعاء والمرارة والكلية واحاد العروق والاعصاب
والعضلات وما فيها من التجايف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة

والغلظة وغير ذلك ، فهذه الحكم وأمثالها لا يعرفها كل أحد ، ومن يعرف منها شيئاً فلا يعرف إلا قليلاً يسيراً فإن جميع اجزاء العالم سماء وكواكبه ، وما فيها من الأوضاع والحركة والاختصاصات ، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والأرض ، وما فيها من البحار والجبال والرياح ، والمعادن والنبات والحيوان لا تحلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة الى الف أو أكثر ، وقليل منها جليلة ، وأكثرها دقيقة خفية ، وبعضها متوسط في الجلاء والخفاء يعرفها المتفكرون في خلق السماوات والأرض ، وأكثر الحكم الدقيقة مما لا يعرفها غير خالقها وموجدتها . ثم ما عدا الانسان من الاشياء المجردة والمادية الروحانية والجسمانية جارية على وفق الحكمة ، ومستعملة ذواتها واجزائها وما يتعلق بها على الوجه الذي هو مقتضى المصلحة المقصودة منها وأما الانسان فلكونه محل الاختيار ومجرأه فقد يجري ويستعمل الاشياء التي يتمكن من استعمالها على خلاف ذلك فيكون كافراً بنعمة الله سبحانه ، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله في اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه ، ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك به غيره ، ومن نظر الى وجهه غير المحرم فقد كفر نعمة العين لأنها خلقت ليبصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتقي بها ما يضره فيهما ، ومن ادّخر الدراهم والدنانير وحبسها فقد كفر نعمة الله فيهما لأنها حبران لا منفعة ولا عوض في أعيانها وإنما خلقها الله تعالى ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساوات ، والتقدير بين سائر الاموال من الأعيان المتنافرة المتباعدة فيهما عزيزان في أنفسهما ، ولا غرض في أعيانها ، ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة ، فمن ملكها فكأنه ملك كل شيء . لا كمن ملك ثوباً فإنه لا يملك إلا الثوب ، فان احتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب إذ لا غرض

له في ذاته بخلاف النقيدين فانهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشيء ، ومن حيث المعنى كأنهما كل الشيء ، والأشياء إنما تستوي نسبتها الى المختلفات اذا لم يكن لها صورة خاصة تقيدها بخصوصها كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون ، وكل حرف لا معنى لها في نفسها ، بل تظهر لها المعاني في غيرها ، وكذلك النقدان لا غرض فيهما مع كونهما وسيلة الى كل غرض ، فالحكمة في خلقهما أن يحكما بين الأموال بالعدل وتعرف بهما المقادير المختلفة ، وتقوم بهما الأشياء المتباينة ، ويحصل التوصل بهما الى سائر الأموال فيلزم اطلاقهما لتداولهما الأيدي وتحصل بهما التسوية في تبادل الأعيان والمنافع المتخالفة ، فمن أذخرهما وحبسهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما ، وكفر نعمة الله فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن ، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل الى ما يحتاج ، وانفق الزائد في سبيل الله فهو الذي استعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما ولما عجز أكثر الناس عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحاتهما في فائدتها وحكمتها بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت أخبرهم الله عن ذلك بقوله : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (١)

وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما يظهر أن من اتخذ الأواني منها فقد كفر نعمة الله فيهما ايضاً ، وكذا من عامل معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم لأنهما إنما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما ، إذ لا غرض في عينهما فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً لأنفسهما على خلاف وضع الحكمة ، وكذلك الحكمة في خلق الأطعمة أن يغتذى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها وتقيده في الأيدي ، بل

اللازم أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ، ولذا ورد في الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا في الأُطعمة لأن ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها ، وإذا عرفت ذلك فقس عليه جميع أفعالك وأعمالك وحركاتك وسكناتك فإن كل فعل يصدر منك إما شكر أو كفران لا يتصور أن ينفك عنهما ، مثلاً لو استنجيت باليمن فقد كفرت نعمة اليدين إذ خلق الله اليدين وجعل إحداها أقوى ، واستحق الأقوى لرحمته التفضيل ، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل ، وهذا التفضيل إنما يتصور بأن تصرف الأقوى في الأفعال الشريفة كأخذ المصحف وأكل الطعام ، وتصرف الأضعف في الأعمال الخسيسة كالزلة النجاسة ، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وأبطل الحكمة وكفر النعمة ، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لأن الخلف وقاية للرجل فللرجل فيه حظ ، والبدء في الخطوط ينبغي أن تكون بالأشرف ، وهو العدل والعمل على وفق الحكمة فخلافه ظلم وكفران ، وكذلك إن استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم لانه خلق الجهات متعددة متسعة ، وشرف بعضها بأن وضع فيه بيته ، فينبغي استقباله بالأفعال الشريفة كالصلاة والجلوس المذكور ، والاغتسال والوضوء دون الأفعال الخسيسة كقضاء الحاجة ورمي البزاق ، فمن قضى حاجته أرمى بزاقه إلى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله ، وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة مهمة ، ومن غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله في خلق الأشجار وفي خلق اليد أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث بل للطاعة المعينة عليها وأما الشجر فلأن الله تعالى خلقه ، وخلق له العروق وساق إليه الماء ، وخلق فيه قوة الاعتناء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوه لا على

وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدالة ، نعم إن كان له غرض صحيح في كسره فله ذلك إذ الشجر والحيوان سجلاً فداءً من لأغراض الانسان فأنهما جميعاً فانيان هالكان ، فافناء الأخص في بقاء الأشراف مدة ما أقرب الى العدل من تضييعهما جميعاً واليه الإشارة بقوله تعالى : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً » .

ثم هذه الأفعال المتصفة بالكفران بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكفاية عن حدود القرب الى عالم البعد الذي هو افق الشياطين ، ولذلك يوصف بعضها في لسان الفقه بالكراهة وبعضها بالحظر ، وقد سوح في الفقه حيث جعل فيه بعض هذه المكاهة مكروهة غير محظورة مع أن جميعها عدول عن العدل ، وكفران للنعمة ، ونقصان عن الدرجة المبلغه الى القرب لأن الخطاب به إنما هو الى العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام ، وقد انغمسوا في ظلمات اعظم من أن تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة اليها فإن المعاصي كلها ظلمات إلا أن بعضها فوق بعض فيتمحق بعضها في جنب البعض ، ولذا ترى أن السيد يعاتب عبده إذا استعمل سكينه بغير اذنه ، ولكن لو قتل بهذا السكين أعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاهة في نفسه ، ولذا جميع هذه المكاهة موصوفة عند ارباب القلوب بالحظر ولا يتسامحون في شيء مما راعاه الأنبياء والاولياء من الآداب حتى نقل أن بعضهم جمع أكراراً من الخنطة ليتصدق بها فسئل عن سببه فقال لبست المداس : مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً فأريد أن اكفره بالصدقة .

فصل

أقسام النعم واللذات

اعلم أن النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر ، وهي تنقسم الى مؤثر لذاته لا لغيره أي تكون غاية مطلوبة لذاتها ليس فوقها غاية أخرى وهي مخصوصة بسعادة الآخرة التي لا انقضاء لها أعني لذة النظر الى وجه الله ، وسعادة لقائه وسائر لذات الجنة من البقاء الذي لا فناء له ، والسرور الذي لا غم فيه ، والعلم الذي لا جهل معه ، والغنى الذي لا فقر بعده ، وغير ذلك فإنها لا تطلب ليتوصل بها الى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها ، وهذه هي النعمة الحقيقية واللذة الواقعية ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا عيش إلا عيش الآخرة » ، وغالب هذه النعمة والسعادة واقواها وأشرفها هي اللذة والبهجة المرضية العقلية دون الجسمية كما لا يخفى فيختص بادرأ كها العقل ، ولاحظ للسمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها . والى ما يقصد لغيره أي تكون مطلوبة لأجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة اليها سواء أكانت مقصودة لذاتها ايضاً أم لا وهي تنقسم الى اربعة اقسام : (القسم الاول) وهو الأقرب الأخص الفضائل النفسية المذكورة في هذا الكتاب ويجمعها العلم والعفة والشجاعة والعدالة ، وهذه مع كونها لذيدة في نفسها تكون وسيلة الى النعمة التي هي غاية الغايات بلا توسط وسيلة أخرى ، ولذلك قلنا هي اقرب الوسائل وأخصها ، وأشرفها العلم ، وأشرف أفراد العلم بالعلم وصفاته وملائكته ورسله وأحوال النشأة الآخرة وسائر أفعاله وعلم المعاملة الراجع الى علم الاخلاق ،

إذ هو الذي يؤدي إلى السعادة الحقيقية بلا توسط شيء آخر ، وسائر الموم إنما هي مقصودة من حيث كونها وسائل إلى هذا العلم ، وهذه الفضائل لذينة في الدنيا والآخرة نافعة فيها أي تؤدي إلى الراحة فيها وجميلة على الإطلاق أي تستحسن في جميع الأحوال ، وضدها أعني الجهل والأخلاق السيئة ضارة مؤلمة في الدارين قبيحة على الإطلاق ، وسائر الصفات ليست جامعة لهذه الأوصاف ، فإن أكل لذائد الأطعمة وطيباتها يوجب اللذة والمنفع أي حصول الراحة في الحال ولكنه ضار في المال وترك الشهوات بعكس ذلك .

ثم لذة المعرفة وفضائل الأخلاق دائمة لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وعقلية يختص بآدم كمال العقل دون سائر الحواس ، وأما غيرها من الذات فبعضها مما يشترك فيه الإنسان وبعض الحيوانات كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء ، وهذه اللذة موجودة في الأسد والنمر وبعض الأنواع من الحيوانات ، وبعضها مما يشترك فيه الإنسان وسائر الحيوانات كلذة البطن والفرج وهي أخس الذات ، ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج حتى الديدان والحشرات ، فمن جاوز هذه اللذة تشبثت به لذة الغلبة والاستيلاء ، فإن جاوزها أيضاً ارتقى إلى اللذة العقلية فصار أقرب الذات عليه لذة المعرفة لاسيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله ، وهذه مرتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بخروج حب الرئاسة من القلب ، وآخر ما يخرج من رأس الصديقين حب الرئاسة والجاء ، ولذلك قعها بالكلية بحيث لا يقع بها الاحساس قط يشبه أن يكون خارجاً عن مقدرة البشر ، نعم ربما غلبت لذة المعرفة في أحوال بحيث لا يقع معها الاحساس بلذة الجاه والرئاسة ، إلا أن ذلك لا يدوم بل تعثره الفترات فتعود إلى الحالة البشرية ، وعلى هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام

(قلب) لا يحب إلا الله ولا يستريح إلا اليه ، وليس فرحه إلا بزيادة المعرفة والفكر فيه ، ولا يسكن إلا بحبه وأنسه ، (وقلب) أغلب احواله الأناش بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن في بعض الأوقات والاحوال يعتريه الرجوع الى أوصاف البشرية ، (وقلب) أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية ، وفي بعض الأوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله والأناش به ، (وقلب) لا يدري مالذة المعرفة وما معنى الأناش بالله وإنما لذته بالرياسات والشهوات (والأول) إن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية الندور (والثاني) أيضاً نادر والسرف في ندور هذين القسمين أن من انحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وأنسه ، أو غلب عليه ذلك فهو من ملوك الآخرة والملوك هم الأقلون ولا يكثرون ، فكما لا يكون الفائق في الملك والاستيلاء في الدنيا إلا نادراً واكثر الناس دونهم ، فسكنوا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرء آة الآخرة إذ الدنيا عالم الشهادة ، وفي الآخرة عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة وهي وإن كانت الثانية في رتبة الوجود إلا أنها في أمر الرؤية أولى لأنك ترى صورتك في المرآة أولاً ثم ترى نفسك فتعرف بالصورة القائمة بالمرء آة صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق الرؤية والمعرفة ، وانقلب المتأخر متقدماً ، وهذا النوع من الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم ، وكذا عالم الملك والشهادة يحاكي عالم الغيب والملوكوت ، فمن الناس من لا ينظر في مرآة عالم الشهادة إلا بنظر الاعتبار ، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويُعبرَ به الى عالم الملوكوت فيسمى عبوره عبرة ، وقد

أمر الخلق به فقيل : « فاعتبروا يا أولي الأبصار » (١) ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح الى حبسه له أبواب جهنم ، (وأما الثالث) فأكثر وجوداً منه ، (وأما الرابع) فدار الدنيا طائفة به لقصور أكثر الناس عن ادراك لذة العلم إما لعدم الذوق ، إذ من لم يذوق لم يعرف ولم يشق إذ الشوق فرع الذوق ، وذلك إما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل ، ولا يستلذ إلا باللبن فهو لاء ممن لم يحجى باطنهم بعد كالطفل ، وإما ارض قلوبهم أو موتها بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك لذة الشكر أو الميت الذي سقط عنه الادراك وهو لاء كالمريض أو الاموات بسبب اتباع الشهوات ، (القسم الثاني) الفضائل البدنية وهي أربعة الصحة والقوة وطول العمر والجمال ، (الثالث) النعم الخارجة المضيئة بالبدن وهي المال والجاه والأهل وكرم العشيرة (الرابع) الأسباب التي تناسب من وجه الفضائل النفسية ويعبر عنها بالنعم التوفيقية وهي هداية الله ورشده وتسديده وتأريده . وهذه الجملة مما يتوقف بعضها على بعض الى أن ينتهي الى السعادة التي هي مطلوبة لذاتها ، والتوقف إما على سبيل اللزوم والضرورة كتوقف سعادة الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية وتوقف الفضائل النفسية على صحة البدن أو على سبيل النفع والاعانة كتوقف الفضائل النفسية والبدنية على النعم الخارجة ووجه كونها معينة نافعة في تحصيل العلم وتهذيب الأخلاق وصحة البدن ظاهر ، واعانة الجمال في كسب الفضائل النفسية والبدنية مبني على أن القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة ، فحاجات الجميل الى الاجابة أقرب ، وجاهه في الصدور أوسع ، وأيضاً

الغالب دلالة الجمال على فضيلة النفس لأن نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن ، ولذلك هول اصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن . ثم إنا لا نعني بالجمال ما يجرّك الشهوة فإن ذلك انوثة ، بل نعني به البراءة عن العيوب والنقص والزيادة ، وارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم ، وتناسب الأعضاء وتناسب خاتمة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه وأما احتياج الفضائل الخلقية والجسمية والخارجية الى النعم التوقيفية فلأن المراد بالتوقيفية هو التألف بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره بشرط كون المراد والمقضى سعادة ، وبعبارة اخرى هو توجيه الأسباب نحو المطلوب .

وأما الهداية فلها مراتب : (أولاها) الهداية العامة وهي إراءة طريق الخير وتعريفه (وثانيها) الخاصة وهي الافاضات المتناحية الواردة من الله على بعض عباده نظراً الى مجاهدتهم (وثالثها) الهداية المطلقة وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية فيُهدي بهما الى مالا يهتدى اليه بالعقل ، وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة كائناً ما كان على مساعدة القضاء والقدر ، وعلى العلم بطريق الخير ظاهر .

وأما الرشد فالمراد به العناية الإلهية التي تعين الانسان عند توجيهه الى مقاصده فيقويه على ما فيه صلاحه ويفترّده عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن ، وبعبارة اخرى هو هداية باعثة الى جهة السعادة محرّكة اليها ، وقد ظهر احتياج تحصيل الخير والسعادة اليه من مفهومه .

وأما التسديد فهو توجيهه حركاته الى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليصل اليه في أسرع وقت ، فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الأعضاء الى صوب

الصواب والسداد ، وقد ظهر وجهه كون التسديد مُعيناً في طلب الخير أيضاً من حاق معناه .

وأما التأييد فإنه جامع للكل إذ هو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة فكأنه من داخل ، وبه قوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج ، وتقرب منه العصمة وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كأنه باطني غير محسوس يمنع عن الشر ، وهو المراد من برهان الرب في قوله تعالى : « وَلَقَدْ تَمَتَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ » (١)

تنبيه

اعلم أن النعم الاخرية التي هي الغايات المطلوبة لذواتها وتفصيلاتها وأسبابها وما يتوقف وجودها عليه أن ينتهي إلى مسبب الأسباب مما لا يمكن دركها ، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلاً عن كثيرها .
وأما الوسائل الأربعة من النعم التي انقسم كل منها أيضاً إلى أربعة أقسام ، وصار مجموعها ستة عشر قسمًا فيستدعي كل قسم من الستة عشر أسباباً وتلك الأسباب أسباباً حتى تنتهي بالآخرة إلى مسبب الأسباب وموجد الكل ، والمتفكر يعلم أن كلا منها يتوقف على نعم وأسباب أخرى متسلسلة خارجة عن حد الإحصاء فإن نعمة الصحة التي من النعم الواقعة في المرتبة المتأخرة تتوقف على أسباب ونعم من جملتها نعمة الأكل فإن إحصاءها وإن لم يكن ممكناً إلا أننا نشير إلى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء لتقاس عليها البواقي فنقول :

نعمة الأكل تتوقف على ادراك الغذاء وأسبابه ، وعلى شهوة الطعام وميله
وارادته وأسبابه ، وعلى القدرة الى تحصيله واسبابه ، وعلى وجود أصل الغذاء
المأكول وتكوّنه ، وعلى اصلاحه بعد وجوده وتكوّنه ، وعلى الأسباب
الموصلة له الى كل انسان لو كان بعيداً عنه ، وعلى أسباب الطحن والجذب
والهضم والدفع وسائر الأفعال الباطنة الى أن يصير جزءاً للبدن ، وعلى الملائكة
الموكلين على كل فعل من الأفعال المذكورة فها هي نذكرها اجمالاً وتلويحاً
في فصول .

فصل

الأكـل

الأكل يتوقف أولاً على ادراك الغذاء المأكول رؤية ولمساً واستشهماً
وذوقاً إذ ما لم يبصره لم يمكنه تمييزه وطلبه ، وما لم يلامسه لم يتمكن من درك
بعض أوصافه اللازمة في الأكل ، وما لم يشمه لم يتشخص ما يكره رائحته عما
تطيب رائحته ، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد لاسيما لبعض
الحيوانات ، وما لم يذقه لم يدرك أنه موافق أو مخالف له ، وبذلك ظهر توقفه
على خلق الحواس المدركة الظاهرة فخلقها الله سبحانه ، ثم الأسباب التي يتوقف
عليها خلق هذه الحواس مما لا تقتضى فلا تعرض لبيانها وبعد ادراك الغذاء
على ما ذكر لا بد له من قوة أخرى يعرف بها كون الغذاء الذي ذاقه سابقاً ورآه
مرة أخرى موافقاً أو مخالفاً ، وهذه القوة هي الحس المشترك الذي يتأدى اليه
جميع المحسوسات ويجتمع فيه ، فإنك اذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً فوجدته مرّاً
مخالفاً لك فتركته فاذا رأيت مرة أخرى فلا تعرف أنه مرّاً ما لم تذقه لولا الحس

المشترك ، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مرّ فيمتنع عن تناوله ثانياً ، وهذه القوة أعني الحس المشترك يتوقف خلقه على أسباب ، ونعم لا يمكن احصاؤها فلتنذرنا على سنايلها .

ثم الإدراك بالحواس الظاهرة ، والحس المشترك مما اشترك فيه سائر الحيوانات ، ولو انحصر ادراك الانسان أيضاً به لكان ناقصاً ، إذ البهيمة تأكل ما تستلذ به في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر ، وأما ادراك العواقب فليس لها إليه سبيل فيتوقف تمييز صلاح العواقب وفسادها على قوة أخرى ، فخلق الله للانسان العقل به يدرك مضرة الأطعمة ومنفعتيها في المآل ، وبه يدرك كيفية طبخ الأطعمة وتركيبها واعداد أسبابها فينتفع بعقله في الأكل الذي هو سبب صحته ، وهو أخس فوائد العقل ، وأقل الحكم فيه ، إذ الحكم والفوائد المترتبة عليه أكثر من أن تحصى ، وأعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله ، والعقل بمنزلة السلطان في مملكة البدن ، والحواس الحس كالجواسيس واصحاب الأخبار والموكلين بنواحي المملكة ، وقد وكل كل واحدة منها بأمر خاص ، فواحدة بأخبار الألوان ، وأخرى بأخبار الأصوات ، وأخرى بأخبار الروائح ، وأخرى بأخبار الطعوم ، وأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة ، فهذه الجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ، ويسلمونها إلى الحس المشترك ، وهو قاعد في مقدمة الدماغ مثل صاحب الكنب والقصاص على باب الملك يجمع القصص والكنب الواردة

من نواحي العالم ويأخذها ويسلمها الى العقل الذي هو السلطان مختومة إذ ليس له إلا أخذها وحفظها وأما معرفة حقائق ما فيها فليس اليه ، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم لأنها آتية اليه مختومة فيفتشها الملك ويطلع على اسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها ، وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود اعني الأعضاء في الطلب أو الحرب أو اتمام التدبيرات التي تعن له ، ثم عجائب حكم العقل والاسباب التي يتوقف خلقه عليها ليس دركها في مقدرة البشر ، وهذه ما يتوقف عليه الأكل من الإدراكات وأسبابها .

فصل

لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل

إذا أدرك الغذاء لم يفد فائدة ما لم تكن شهوة له وميل وشوق اليه ، إذ لو لا الميل اليه لكان ادراكه بأيّ حسّ وقوة فرضاً معطلاً ألا ترى أن المريض يرى الطعام ويدرك أنه أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والإدراك معطلاً في حقه فيتوقف الأكل على ميل الى الموافق ويسمى شهوة ونفرة عن المخالف ويسمى كراهة فخلق الله شهوة الطعام وسلطها على الانسان كالمقتاضي الذي يضطره الى التناول ، وهذه الشهوة لو لم تسكن بعد أخذ قدر الحاجة لأسرفت وأهلكت نفسك فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها ، ولم يجعلها كالزرع الذي لا يزال يجذب الماء إذا انصب في اسافله حتى يفسد ، ولذلك يحتاج الى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء اخرى ، ثم مجرد الميل والشهوة لا يكفي ما لم تنبعث

الداعية الى تناول الغذاء فخلق الله تعالى له الارادة اعني انبعث النفس الى تناوله وربما حصل الاحتياج الى قوة الغضب ايضاً ليندفع عن نفسه المؤذي وما يضره ويخالفه ، ومن أراد أن يأخذ منه ما حصله من الغذاء ، ثم لكل واحد من الشهوة والسكرامة والارادة والغضب اسباب لا يمكن احصاؤها ، ثم بعد ادراك الغذاء وميله وشهوته وارادته لا يفيد شيئاً من ذلك ما لم يتحقق الطلب والأخذ بالفعل بالآلاتهما ، فكم من زَمَنٍ شائق الى شيء بعيد منه مدرك له مائل اليه مريد له لا يمكنه أن يمشي اليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده ، أو لفالج أو عذر فيها ، فلا بد من آلات للحركة ، وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً ، فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر الى ظاهرها ولا تعرف اسرارها ، فمنها ما هو آلة للطلب كالرجل للانسان والجنح للطير والقوائم للدواب ، ومنها ما هو آلة لدفع المؤذي والمانع من طلب الغذاء كالقرن لبعض الحيوانات ، والأنياب لبعض آخر منها والمخالب لبعض آخر منها والأسلحة للانسان القائمة مقام هذه الآلة ، ومنها ما هو آلة للأخذ والتناول كاليدين للانسان ، ثم لهذه الأعضاء أسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر وقد تقدم قليل من حكمها وعجائبها في باب التفكير .

فصل

عجائب المأكولات

عمدة ما يتوقف عليه الأكل وأصله ومناطه هي الأغذية والأطعمة المأكولة ، والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى ، واسباب متوالية

لا تتناهي ، والأغذية والأدوية من الأطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حداً
يمكن احصاؤها وحصرها فضلاً عن بيان عجائبها وأسبابها ، فنحن نترك الجميع
ونأخذ من جهتها حبة من الخنطة ونبين بعض أسبابها وحكمها وعجائبها فنقول .
قد خلق الله في حبة الخنطة من القوى ما يفتدي به كما خلق فيك ،
فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة دون الاغذاء لأنه يفتدي بالماء ،
ولا نتعرض لذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء الى نفسه ، بل نشير الى لمة
من كيفية اغتذاء الحبة فنقول .

إن الحبة لا تفتدي بكل شيء بل يتوقف اغتذاؤها على أرض
فيها ماء ولا بد أن تكون أرضها رخوة متخلخلة بتغلغل الهواء اليها فلو تركتها
في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء ، ثم الهواء لا يتحرك اليها بنفسه
فلا بد من حصول أسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف
واليه الإشارة بقوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ » (١) ، وإلقاها إنما
هو ايقاعها الازدواج بين الهواء والماء والأرض ، ثم لا يكفي ذلك في إنباته في برد
مفرط فيحتاج الى حرارة الصيف والربيع ، فهذه أربعة أسباب فإن الماء لا بد أن
ينساق الى أرض الزراعة من البحار والشطوط والأنهار والعيون والسواقي فانظر كيف
خلق الله جميع ذلك ، ثم الأرض ربما تكون مرتفعة لا ترتفع اليها مياه العيون
والقنوات ، فخلق الله الغيوم وهي سحب ثقال حاملات الماء ، وسلط عليها
الرياح لتسوقها باذنه الى أقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات ، وترسلها
مدراراً على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة ، ثم خلق
الجبال حافظاً للمياه تنفجر منها العيون تدريجاً على قدر الحاجة ، ولو خرجت

دفعه اغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشي ، ونعم الله تعالى وعجائب صنعته وحكمته في السحاب والبحار والجبال والأمطار لا يمكن احصاؤها وأما الحرارة فإنها لا يمكن أن تحصل في الماء والأرض لكونهما باردين فخلق الله الشمس وسخرها وجعلها مع بعدها عن الأرض مسخنة لها في وقت دون وقت ليحصل الحر عند الحاجة اليه ، والبرد عند الافتقار اليه ، وهذه أخس حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ، ثم النباتات إن ارتفع على الأرض كانت في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر الى رطوبة تنضجها فخلق الله القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما يظهر لك ذلك إذا كشفت رأسك له في الليل فإنه تغلب على رأسك الرطوبة المعبر عنها بالزكام ، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها ويصبغها بتقدير الخالق الحكيم ، وهذا أيضاً أخس فوائده القمر وحكمه ، وما فيه من الحكم والفوائد لا مطلق في استقصائه ، بل كل كوكب في السماء فقد سخر لفوائده كثيرة لا تفي القوى البشرية باحصائها ، وكما أنه ليس في اعضاء البدن عضو لا فائدة فيه ، فكذلك ليس عضو من اعضاء بدن العالم لا تكون فيه فائدة أو فوائد كثيرة ، والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له ، وهي متفاوتة تفاوت اعضاء البدن ، وشرح ذلك ليس في مقدرة البشر ، وكلها مسخرات لله سبحانه ، وآثار من قدرته الكاملة ، ورشحات من أبحر عظمته الباهرة ، وليست في انفسها إلا أعدام صرفة ، فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له إذا نظروا الى ملكوت السماوات والأرض والآفاق والأنفس والحيوانات والنباتات لا ينظرون اليها إلا من حيث إنها آثار قدرة ربهم ، ورشحات صفاته ، ويكون تفكرهم وسعيهم في العثور على عجائبها وحكمها ، وابتهاجهم وشغفهم لأجل ذلك ، كما أن من أحب عالماً لم يزل مشغولاً بطلب

تصانيفه فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له ، فكذلك الأمر في عجائب صنع الله فإن العالم كله من تصنيفه تعالى بل جميع المصنفين ايضاً من تصنيفه الذي صنّفه بواسطة قلوب عباده ، فإن تعجبت من تصنيف فلا تعجب من المصنّف ، بل من الذي سخر المصنّف لتأليفه بما النعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه ، كما إذا رأيت لعب المشعوذ (١) يترقص ويتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من الشعب فإنها خرقى محركاً لا متحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المتحرك لها بروابط دقيقة عن الابصار . وقد ظهر أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالافلاك التي هي مركزوزة فيها ولا تتم الافلاك إلا بحركاتها ، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها ، وكذلك تتسلسل الاسباب الى أن تنتهي الى مسبب الاسباب وغاية الكل ، وليس لنا سبيل الى ادراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها .

فصل

حاجة تحضير الطعام الى آلاف الاسباب

ثم ما ينبغي من الارض من النبات وما يحصل من الحيوانات لا يمكن أن تقضم وتؤكل كذلك بل لابد في كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتغليظ بالقاء البعض وابقاء البعض ، الى غير ذلك من الاعمال التي لا تحصى ، وكل من الاطعمة يتوقف اصلاحها على امور خاصة كثيرة ، واستقصاء ذلك في كل طعام طويل فلنأخذ رغيماً واحداً وننظر الى بعض ما يحتاج اليه حتى يستدير

(١) المشعوذ الرجل الخيال الذي يصنع الشعبة .

ويصلح للأكل ، إذ بيان جميع ما يحتاج اليه حتى يستدير الرغيف الواحد ليس ممكناً ، فنقول :

أول ما يتوقف عليه هذا الرغيف الأرض ، ثم إلقاء البسدر فيها ، ثم النور الذي يثير الأرض مع آلاته كالفدان وغير ذلك ، ثم تنقية الأرض من الحشائش ، والتمهيد بسقي الماء الى أن يعقد الحب ، ويبدو صلاحه ، ثم الحصاد ثم الفرك ، ثم التنقية والتصفية ، ثم الطحن ، ثم العجن ، ثم الخبز . فتأمل عدد هذه الأفعال ، واستحضر سائر الأفعال التي لم نذكرها ، ثم تذكر عدد الأشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التي يحتاج اليها من الحديد والخشب والحجر وغيرها وانظر الى أعمال الصنّاع في اصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من نجارة وحدادة وغيرها ، واحتياج كل منها الى آلات كثيرة . ثم انظر كيف ألفت الله سبحانه بين قلوب هؤلاء الصنّاع المصلحين ، وسلط عليهم الأنس والمحبة حتى ائتملوا واجتمعوا وبنوا المدن والبلاد ، ورتبوا المساكن والدور متجاورة متقاربة ، وبنوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع ولو تفرقت آراؤهم ، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش اتبددوا وتباعدوا ولم يفتتح بعضهم ببعض . ثم لما كانت في جيلة الانسان الفيظ والعداوة ، والحسد والمنافسة والانحراف عن الحق ربما زالت المحبة بين البعض لاعتراض ، فيزدحمون عليها ، ويتنافسون فيها ، وربما أدى الى التنافر والتقابل ، فبعث الله الانبياء بالشرائع والقوانين ليرجموا اليها عند التنازع فيرتفع نزاعهم ، ثم بعث العلماء الذين هم ورثة الانبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها ، وبعث الله السلاطين حتى يقيموا الناس قهراً عليها لو أرادوا التخلف عنها ، فسلط الله السلاطين اولى القوة والسدة على الناس ، وألقى رعبهم في قلوبهم ، والههم اصلاح العباد بأن رتبوا

الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والأسواق ، واضطروا الخلق الى قانون الشرع والعدل ، وألزموهم التألف والتعاون ، ومنعوهم عن التفرق والتباغض ، فأصلح الرعايا والصناع بالسلطين ، وإصلح السلاطين بالعلماء ، وإصلح العلماء بالانبياء ، وإصلح الانبياء بالملائكة وإصلح الملائكة بعضهم ببعض الى ان ينتهي الى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ، ومطامع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليف . وقد ظهر مما ذكر أن من فتش يعلم أن رغبةً واحداً لا يستدير بحيث يصلح الاكل ما لم يعمل عليه آلاف ألوف من الملائكة وصناع الإنس .

فصل

تسخير الله التجار لجلب الطعام

ثم جميع الأطعمة لما لم يمكن أن يوجد في كل مكان وبلد إذ لكل واحد شروط مخصوصة لأجلها لا يمكن إلا أن يوجد في بعض الأماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الأرض وقد يبعد عنهم بعض ما يحتاجون اليه من الأطعمة بحيث تحول بينهم وبينها البراري والبحار فسخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم حرص المال ، وشره الربح حتى يقاسوا الشدائد ، ويركبوا الأخطار في قطع المفاوز وركوب البحار ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق ، فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن ، وكيفية الركوب فيها ، وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البوادي والجبال من الجمال وكيفية قطعها البراري والمراحل تحت الأعباء الثقيلة ، وصبرها على الجوع والعطش ومن الخيل وكيفية سرعة سيرها

وحركاتها ، ومن الطمار وصبره على التعب ، وانظر كيف خلق الله ما يحتاج اليه السفن وهذه الحيوانات من الاسباب والغذاء ، وينتهي الى حمله لا يمكن تجديده .

فصل

نعم الله في خلق الملائكة للانسان

ثم مجرد وجود الغذاء وحضوره واصلاحه لا يفيد فائدة مالم يؤكل ويصير جزء للبدن ، وهذا موقوف على اعمال كثيرة محتاجة الى اسباب كثيرة من الطحن والجذب والهضم المعدي والكبدى وغير ذلك من الأفعال التي يحتاج كل منها الى اسباب كثيرة ، وقد أشرنا الى لمعة من كيفية ذلك في باب التفكر فارجع اليه ، وهنا نشير الى أنموذج من نعمة الله في خلق الملائكة .

فنقول: إن كثرة الملائكة لم تبلغ حداً يمكن تصوره تفصيلاً أو إجمالاً ولهم طبقات وأصناف (منها) طبقات الملائكة الأرضية (ومنها) الملائكة السماوية (ومنها) حملة العرش العظيم (ومنها) المسلسلون (ومنها) المهيمنون وغير ذلك مما لم نسمع اسمهم ورسمهم ، ولا يحيط بهم إلا الله سبحانه ، فكل صنم من صنائع الله في الأرض والسماء لا يخلو عن ملك أو ملائكة موكلين به ، فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع الى الأكل والاغتذاء الذي كلامنا فيه دون ما يجاوز ، وذلك من صنائع الله وأفعاله ، ومن الوحي الى الأنبياء والهداية والارشاد وغيرها ، فإن استقصاء ذلك ليس من مقدرات البشر .

فنقول إن كل جزء من اجزاء بدنك بل من اجزاء النباتات لا يقتدي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هم أقل الاعداد الى عشرة الى مائة الى

أكثر من ذلك بمراتب ، (بيان) ذلك أن معنى ، الأغتذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك ، وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء حتى يصير جزءً للبدن كالجذب والهضم وصيرورته لحماً وعظماً ، ومعلوم أن الغذاء والدم واللحم اجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بانفسها ، ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في اطوارها كما أن البرّ بنفسه لا يصير طحيناً وعجيناً وخبزاً مطبوخاً إلا بصنّاع ، والصنّاع في الباطن هم الملائكة كما أن الصنّاع في الظاهر هم أهل البلد ، فالغذاء بعد وضعه في الفم الى أن يصير دماً لا بد له من صنّاع من الملائكة ولا نتعرض لهم ولبيان عددهم ، ونقول بعد صيرورته دماً الى أن يصير جزءً للبدن يتوقف على سبعة من الملائكة ، إذ لا بد من ملك يجذب الدم الى جوارى اللحم والعظم إذ الدم لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ، ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق ، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة ، ومن سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم ، وما اكتسب صفة العظم بالعظم ، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لا يكون منفصلاً ، ولا بد من سابع يراعي المقدير في الاصاق ، فيلحق بالمستدير على ما لا يبطل استدارته ، وبالعريض على ما لا يبطل عرضه ، وبالمجوف على ما لا يبطل تجويفه وهكذا ، ويراعي في الاصاق لكل عضو ما يليق به ويحتاج اليه ، فلو جمع لائف الصبي مثلاً من الغذاء ما يجمع على فخذة لكبر أنفه ، وبطل تجويفه ، وتشوهت صورته ، بل ينبغي أن يسوق الى الاجفان مع رقتها ، والى الأنفاذ مع غلظتها ، والى الحدة مع صفائها ، والى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ، ويراعي

العدل في القسمة والتقسيم ، وإلا بطلت الصورة ، وتشوهت الخلقة ورق بعض المواضع وضعف البعض ، فراعاه هذه الهندسة مفوضة الى ملك من الملائكة ، وإياك وأن تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فإن من أحال هذه الامور الى الطبع جاهل ولا يدري ما يقول فإن أراد من الطبع قوة عديمة الشعور ويقول إن كل فعل من هذه الأفعال موكل الى قوة لا شعور لها فنقول : ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرته ، إذ لا ريب في أن ما لا شعور له ليس له في نفسه أن يفعل فعلاً ما ، فضلاً عن أن يفعل أفعالا متقنة محكمة مشتملة على الحكم الدقيقة ، والمصالح الجلية والخفية فتكون هذه شروطاً ناقصة لا يجاد الله سبحانه هذه الأفعال بلا واسطة أو بواسطة عدد هذه القوى من الملائكة ، وعلى أي تقدير لا بد من سبعة أشخاص من مخلوق الله سبحانه مسخرين في باطنك ، موكلين بهذه الأفعال قد شغلوا بك وأنت في النوم تسريح ، وفي الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغناء في باطنك ولا خبر لك منهم ، وكذلك في كل جزء من اجزائك التي لا تتجزأ حتى يفتقر بعض الاجزاء كالعين والقلب الى أكثر من مائة ملك ، ثم الملائكة الأرضية مدد من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش ، والمنعم على جميعهم بالتأييد والتدبير والهداية المهيمن القدوس ، المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت ، ومن أراد أن يعلم اجمالاً كثرة الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات والسحب والهواء والبحار والجبال والأمطار وغير ذلك فليرجع في ذلك الى الأخبار الواردة من الحجج عليهم السلام ، ثم لا بد أن يفوض كل فعل من الأفعال السبعة المذكورة الى ملك من الملائكة ، ويكون الموكل به ملكاً واحداً

على حدة ، ولا يمكن أن يفوض جميعها الى ملك واحد ، كما لا يمكن أن يتولى انسان واحد سبعة أعمال في الحنطة كالطحن وتمييز النخالة ، ودفع الفضلة عنه ، وصب الماء عليه ، والعجن ، وقطعها كسرات مدورة ، وترقيقها رغفانا عريضة ، والصاقها بالنور ، إذ الملك وحداني الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات ، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، كما اشير اليه بقوله تعالى : « وَمَا مَنَّا إِلَّا لَهُ مُقَامٌ مَّعْلُومٌ » (١) ، ولذلك ليس بينهم تحامد وتنافس ، ومثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الآخر له مثال الخوارج الخمس ، وليس كالانسان الذي يتولى بنفسه اموراً مختلفة ، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه فإنه لما لم يكن وحداني الصفة لم يكن وحداني الفعل ، ولذلك ترى أنه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى ، وذلك غير موجود في الملائكة فإنهم محبوبون على الطاعة لم تتصور في حقهم معصية ، ولكل منهم طاعة خاصة معينة ، فالراكم منهم راكع أبداً ، والساجد منهم ساجد دائماً ، والقائم منهم قائم أبداً لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ، ولكل واحد منهم مقام معلوم . وإذا قد ظهر لك عدد ما يحتاج اليه بعض أفعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الأرضية المستمدين من الملائكة السماوية فقس عليه سائر أفعال الاغتذاء ، وسائر أفعال الباطنة والظاهرة فإن بيان ذلك ليس ممكناً ، ثم قس على ذلك اجمالاً جملة صنائع الله وأفعاله الواقعة في عالمي الجبروت والملوكوت ، وعالم الملك والشهادة ، فسماواته وأرضه وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما ، فإن أعداد الملائكة الموكلين بها غير متناهية ، كيف وبجوامع طبقات الملائكة وأنواعهم خارجة عن الإحصاء فضلاً عن الآحاد الداخلة تحت الطبقات .

وقد ظهر مما عرفت من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة الى أن ينتهي الى الله ، وانصال البعض ببعض ، وقوع الارتباط والترتب بينهما ، أن من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة في الوجود ، فمن نظر الى غير محرم مثلاً فقد كفر ، ففتح العين نعمة الله في الأجفان ولا تقوم الأجفان إلا بالعين ، ولا العين إلا بالرأس ، ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيث والشمس والقمر وسائر الكواكب ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ، ولا السموات إلا بالملائكة ، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض ، فاذن قد كفر كل نعمة في الوجود من ابتداء الثرى الى منتهى الثرى ، وحينئذ لا يبقى جهاد ولا نبات ، ولا حيوان ولا ماء ولا هواء ، ولا كوكب ولا ملك ، ولا ملك إلا يلعنه ، ولذلك ورد في الأخبار أن البقرة التي يجتمع فيها الناس إما تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم ، وكذلك ورد أن الملائكة يلعنون العصاة ، وورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر ، وأمثال هذه الأخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الإحصاء ، وكل ذلك إشارة الى أن العاصي بتطريفة واحدة يجني على جميع الملك والملسكوت .

ثم جميع ما ذكرناه إنما يتعلق بجزء من المطعم فاعتبر ما سواه ، ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر ، كيف والله في كل فرصة على كل عبد من عباده نعم كثيرة خارجة عن الإحصاء ، فإن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجتمع روح الهواء الى القلب ولولم يدخل نسيم الهواء فيه لا تقطع

قلبه وهلاك ، ولما كان اليوم واليلة اربعاً وعشرين ساعة ، وفي كل ساعة يوجد
الف نفس نخميناً ، وإذا اعتبرت ذلك وقست عليه سائر النعم يكون عليك في كل
يوم ويلة آلاف الوف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك ، بل في كل جزء من
اجزاء العالم ، وكيف يمكن احصاء ذلك ، ولذلك قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعَدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » (١) ، وورد أن من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه
ومشربه فقد قلّ علمه وحضر عذابه ، فالبصير لا تقع عينه في العالم على شيء
ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن الله فيه نعمة عليه ، ولذلك قال موسى
ابن عمران : « إلهي كيف أشكرك ولك عليّ في كل شهرة من جسدي نعمتان
أن ليئت أصلها وأن طمست رأسها » .

فصل

الاسباب الصارفة للشكر

اعلم أن السبب الصارف لاكثر الخلق عن الشكر إما قصور معرفتهم
بأن النعم كلها من الله سبحانه ، أو قصور معرفتهم واحاطتهم بصنوف النعم
وأحاديدها ، أو جهلهم بحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في اتسام الحكمة التي
أريدت بها ، وظنهم أن حقيقة الشكر مجرد أن يقولوا بلسانهم الحمد لله ، أو الشكر
لله ، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان بحيث لا يتنبهون لقيام
بالشكر كما في سائر الفضائل والطاعات أو عدم احتسابهم للجهل بما يعم الخلق
ويشملهم في جميع الأحوال من النعم نعمة ، ولذلك لا يشكرون على جملة من

النعم لكونها عامة للخلق ، سبذولة لهم في جميع الحالات ، فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً بها ، فلا يمدّها نعمة ، وتأكد ذلك بألفهم واعتيادهم بها فلا يتصورون خلاف ذلك ، ويظنون أن كل انسان يلزم أن يكون على هذه الأحوال ، فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء ، ووفور الماء ، وصحة البصر والسمع ، وأمثال ذلك ، ولو أخذ يمحّتهم حتى انقطع عنهم الهواء وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار ، أو بئر فيها هواء تقبل رطوبة الماء ماتوا ، فإن ابتلي واحد بشيء من ذلك ثم نجى منه ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليه وكذا البصير اذا عميت عينه ثم أعيد عليه بصره عده نعمة وشكره ، ولو لم يبتل بالعمى وكان بصيراً دائماً كان غافلاً عن الشكر ، وهذا غاية الجهل ، إذ شكرهم صار موقوفاً على أن تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال ، مع أن النعمة في جميع الأحوال أولى بالشكر ، فلما كانت رحمة الله واسعة قد عمت الخلق في جميع احوالهم لم يُعِدّها الجاهلون نعمة ، ومثلهم كمثل العبد السوء الذي لو لم يضرب بطنه وترك الشكر ، وإذا ضرب في غالب الأحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك . ومن تأمل يعلم أن نعمة الله عليه في شربة ماء عند عطشه اعظم من ملك الارض كلها ، كما نقل أن بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء وفي يده كوز ماء يشربه فقال له : عظمي فتال : « لو لم تُعطَ هذه الشربة إلا ببذل أموالك وملكك كله ، ولو لم تُعطه ، بقيت عطشاً فأفهل تُعطيه » قال نعم قال : « فكيف تفرح بملك لا يساوي شربة ماء » ، هذا مع أن كل عبد لو أعمى النظر في حاله لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها أحد ، أو يشاركه يسير من الناس ، إما في العقل ، أو في الخلق ، أو الورع والتقوى أو الدين أو في صورته وشخصه ، أو اهله وولده ، أو مسكنه وبلده ،

أورفقاؤه وأقاربه ، أو عزّه وجهه ، أو طول عمره وصحة جسمه ، أو غير ذلك من محابه ، بل نقول لو كان أحد لا يكون مخصوصاً بشيء من ذلك فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه اختصاصه ومزيته في بعض هذه على سائر الخلق فإن أكثر الناس يعتقدون بكونهم اعقل الناس ، أو أحسن أخلاقاً منهم مع أن الأمر ليس كذلك ، ولذلك لا يشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال ، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال ، ويرى من غيره عبواً يكرهها ، وأخلاقاً يذمها ، ولا يرى ذلك من نفسه .

وبالجملة كل أحد يقدر في نفسه من المحاب وصفة الكمال ما لا يراه في غيره وإن لم يكن مطابقاً للواقع ، ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويُعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به ، بل التأمل يعطي أن كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون في جميع الصفات والأفعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كأننا من كان ، بل لو وكل إليه الاختيار وقيل له أنت مخير في صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس لم يختير إلا نفسه ، وإلى هذا أشار الله سبحانه بقوله : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (١) ، وإذا كان الأمر هكذا فأتى له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العظام ، ولو لم يكن لشخص من نعم الله إلا الأمن والصحة والقوة اعظمت النعمة في حقه ، ولم يخرج عن عهدة الشكر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، وعندة قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » ، ومهما فتشت الناس لوجدتهم يشكون عن أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عليهم ، بل لو لم تكن للانسان نعمة

سوى الايمان الذي به وصوله الى النعيم المقيم ، والملك العظيم لكان جديراً به أن يستعظم النعمة ويصرف في الشكر عمره ، بل ينبغي للعاقل ألا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والايمان ، ونحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت ملوك الأرض من الشرق الى الغرب ، من اموال واتباع ، وانصار وبلدان وممالك بدلا عن عشر عشر من علمه لم يأخذه لرجائه أن نعمة العلم تفضي به الى قرب الله تعالى في الآخرة ، بل لو سلم اليه جميع ذلك عوضاً عن لذة العلم في الدنيا مع نيله في الآخرة الى ما يرجوه لم يأخذه ولم يرض به لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وثابتة لا تسرق ولا تفصب ، وصافية لا كدورة فيها بخلاف لذات الدنيا .

فصل

طريق تحصيل الشكر

الطريق الى تحصيل الشكر أمور ، (الأول) المعرفة والتفكير في صنائعه تعالى ، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة (والثاني) النظر الى الأدنى في الدنيا والى الأعلى في الدين ، (الثالث) أن يحضر المقابر ويتذكر أن أحب الأشياء الى الموتى وأهم سؤالهم ودعواهم من الله أن يردوا الى الدنيا ، ويتحموا ضروب الرياضات ، ومشاق العبادات في الدنيا ليتخلصوا في الآخرة من العذاب ، أو يزيد ثوابهم وترتفع درجاتهم ، فليقدر نفسه منهم مع اجابة دعوته وردّه الى الدنيا فليصرف بقية عمره فيما يشتهي أهل القبور العود لأجله ، (الرابع) أن يتذكر بعض ما ورد عليه في بعض أيام عمره من المصائب العظيمة ، والأمراض الصعبة التي ظن هلاك نفسه بها ،

فليتصور أنه هلك بها ، ويغتنم الآن حياته وماله من النعم فليشكر الله على ذلك ، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه مما ينافي طبعه ، (الخامس) أن يشكر في كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث إنه لم تصبه مصيبة أكبر منها ، وإنه لم تصبه مصيبة في الدين ، ولذلك قال عيسى عليه السلام في دعائه : « اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني » ، وقال رجل لبعض العرفاء : « دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي » فقال له : « اشكر الله لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك ، ويفسد توحيدك ماذا كنت تصنع » ، ومن حيث إن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنوب صدر منه ، فإذا حلت به هذه العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن العبد إذا أذنب ذنباً فاصابته شدة أو بلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً » ، وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا عليهم السلام أيضاً ، فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها إلى الآخرة ، ومن حيث إن هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية إليه ألبتة فقد أتيت وفرغ منها ، ومن حيث إن ثوابها أكثر منها وخبره لما يأتي في باب الصبر من عظم مشوبات الابتلاء بالمصائب في الدنيا ، ومن حيث إنها تُنَقِّص في القلب حب الدنيا والركون إليها وتُشَوِّق إلى الآخرة وإلى لقاء الله سبحانه ، إذ لا ريب في أن من آتاه النعم في الدنيا على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة يورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأنساً بها حتى يصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها ، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يأنس بها ، وصارت الدنيا سجنًا عليه وكانت نجاته منها كالخلاص من السجن ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » ، فمحن الدنيا ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس

عنها ، والتفتاتها الى عالمها الأصلي ، وتشوقها الى الخروج عنها اليه ، ورغبتها الى لقاء الله وما اعد في الدار الآخرة لأهلها (فان قلت) غاية ما يتصور في البلاء أن يصبر عليه ، وأما الشكر عليه فغير متصور ، إذ الشكر إنما يستدعي نعمة وفرحاً ، والبلاء مصيبة وألم ، فكيف يشكر عليه ، وعلى هذا ينبغي ألا يجتمع الصبر والشكر على شيء واحد ، إذ الصبر يستدعي بلاء وألماً ، والشكر يستدعي نعمة وفرحاً ، فهما متضادان غير مجتمعين ، فكيف حكمتم باجتماعهما في المصائب والبلايا الدنيوية (قلنا) كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم الى مطلق ومقيد ، فالنعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والإيمان والأخلاق الحسنة في الدنيا ، والنعمة المقيدة في الدنيا أي ما هو نعمة وصالح من وجه ، وبلاء وفساد من وجه كاللذات التي يصلح الدين من وجه ، ويفسده من وجه ، والبلاء المطلق كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والأخلاق السيئة والمعاصي في الدنيا ، والبلاء المقيد كمصائب الدنيا من الفقر والخوف والمرض وسائر أقسام المحن والمصائب فإنها وإن كانت بلاء في الدنيا ولكنها نعم في الآخرة وعند التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة ، أو رياضة النفس ، أو زيادة التجرد ، أو رفع الدرجة ، فالنعمة المطلقة بازائها الشكر المطلق ، ولا معنى لاجتماع الصبر معه ، والصبر الذي يجتمع معه لا ينافيه كما يأتي ، والبلاء المطلق لم يؤمر بالصبر عليه ، إذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية ، بل يجب عدم الصبر عليه والسعي في تركه ، وأما البلاء المقيد فهو الذي يجتمع فيه الصبر والشكر ، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع الضدين ، بل الصبر من حيث إيجابه الاغتمام والألم في الدنيا ، والشكر من حيث أدائه الى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر

ثم لو لم يصبر على جهة شريفة ولم يشكر على جهة مغيرة صار بلاء مطلقاً
لزم تركه بالرجوع الى الصبر والشكر ، وأما النعمة المقيدة كالمال والثروة فإن
أدت الى اصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر ولم يكن محلاً للصبر ،
وإن أدت الى فساده كانت بلاء مطلقاً واجب الترك ، وإن أدت الى بلاء
الدنيا كأن يصير ماله سبباً لهلاك أولاده ، وفساد مزاجه ، ويصير قوته باعشاً
لابتلائه ببعض المصائب الدنيوية كان حكمه حكم البلاء المقيّد ، ثم يأتي في باب الصبر
أن الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية وفيهما يتحقق الشكر والصبر إذ الشكر
كما عرفت هو عرفان النعمة من الله والفرح به ، وصرف النعمة الى ما هو المقصود منها
بالحكمة ، والصبر كما يأتي هو ثبات باعث الدين اعني العقل النظري في مقابلة باعث الهوى
اعني القوة الشهوية ، ولا ريب في أنه في اداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور
إذ هو صرف النعمة الى ما هو المقصود ، إذ باعث الدين إنما خلق لحكمة دفع باعث
الهوى وقد صرفه الى مقصود الحكمة ، وأنت خبير بأنه وإن تحقق الشكر
والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية إلا أن ما تُصبر عليه هو هذه الطاعة
وترك هذه المعصية إذ الصبر إنما هو عليهما ، وأما الشكر فعلى باعث الدين أعني
العقل الباعث لهذه الطاعة وترك هذه المعصية ، فالمشكور عليه هو باعث الدين
دون نفس الطاعة وترك المعصية فاختلف فيهما الصبر والشكر في المتعلق أي
ما يُصبر عليه وما يُشكر عليه واتحدا في فعل الصبر والشكر ، إذ فعل الصبر
هو الثبات والمقاومة وهو عين الطاعة وترك المعصية ، وفعل الشكر وهو صرف
النعمة في مقصود الحكمة وهو أيضاً عين الطاعة وترك المعصية ويمكن أن يقال
إن من فعل هذه الطاعة ، وترك هذه المعصية عرف كونهما من الله وفرح به ،
ويعمل طاعة أخرى شكراً لذلك ، وعلى هذا فيتحدد متعلقا الشكر والصبر في هذه

الطاعة وترك هذه المصيبة أعني المشكور عليه وما يصبر عليه ، إذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه المصيبة بعينها ويختلف فعالهما ، إذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المصيبة وفعل الشكر تكميد أو طاعة أخرى .

فصل

الصحة خير من السقم

لا تظنن مما قرع سمعك من فضيلة البلاء وإدائه الى سعادة الأبد أنه خير من العافية في الدنيا ، بل مع ذلك كله العافية في الدنيا خير من البلاء والمصيبة فيها ، فإياك أن تسأل من الله البلاء والمصائب في الدنيا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يستعين في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ، وكان يقول هو والأنبياء والأوصياء عليهم السلام : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » ، وكانوا يستعينون من شماتة الأعداء وسوء القضاء وقال صلى الله عليه وآله : « سلوا الله العافية فما أعطي عبد أفضل من العافية إلا اليقين » ، وأشار باليقين الى عافية القلب من الجهل والشك وهو أعلى وأشرف من عافية البدن وقال صلى الله عليه وآله في دعائه : « والعافية أحب إلي » .

وبالجملة هذا أظهر من أن يحتاج الى الاستشهاد ، إذ البلاء إنما يصير نعمة بالاضافة الى ما هو أكثر منه في الدنيا والآخرة ، وبالاضافة الى ما يرجى من الثواب في الآخرة ، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها الى الآخرة فينبغي أن يسأل تمام النعمة في الدنيا ، والثواب في الآخرة على شكر المنعم ، والتجافي عن دار الغرور ، والإجابة الى دار الخلود فإنه قادر

على اعطاء الكل ، وما نقل عن بعض العارفين من سؤالهم المصائب والبلاء كما قال بعضهم : « أودّ أن أكون جسراً على النار يعبر عليّ الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار » وقال سمنون المحب : وليس لي في سواك حب فكيفما شئت فاخترني . فبشاه على غلبة الحب بحيث يظن المحب بنفسه أنه يجب البلاء ، ومثل ذلك حالة تعثرية وليس لها حقيقة ، فإن من شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسّع في الكلام ، ولما زال سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لاحقيقة ، فما سمعه من هذا القبيل فهو كلام العشاق الذين أفرط حبهم ، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يمول عليه ، وقد روي أن فاخنة كان يراودها زوجها فتمنعه ، فقال : « ما الذي يمنعك عني ، ولو أردت أن اقلب لك ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لاجلك » فسمع ذلك سليمان عليه السلام فطلبه وعاتبه في ذلك فقال : « يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى » ، ونقل أن سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور ابتلي بمرض الحصر ، فكان يصيح ويجزع ، ويسأل الله العافية ويظهر الندامة مما قال ، ويدور على ابواب المكاتب ، ويقول للصبيان ادعوا لعكم الكذاب . والحاصل أن صيرورة البلاء أحب عند بعض المحبين من العافية لاستشعارهم رضا المحبوب لاجله ، وكون رضاه عندهم أحب وألذ من العافية إنما يكون في غليان الحب فلا يثبت ولا يدوم ، ومع ذلك كله فاعلم أن الظاهر من بعض الأخبار الآتية في باب الصبر أن في الجنان درجات عالية لا يبلغها أحد إلا بالمصائب الدنيوية ، والصبر والشكر عليها ، ويؤيده ابتلاء اكابر النوع من الانبياء والاولياء بالمصائب العظيمة في الدنيا ، وما ورد من أن اعظم البلاء موكل بالانبياء ثم بالاولياء ، ثم بالأمثل فالأمثل في درجات العلاء والولاء ، وعلى هذا فالظاهر اختلاف اصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس ،

فمن كان قوي النفس صابراً شاكراً في البلاء ولم يصد عنه الذكر والفكر والحضور
والأنس والطاعات والاقبال عليها ، ولم يصبر باعثاً لنقصان الحب لله ، فالبلاء
في حقه أفضل في بعض الأوقات ، إذ بأزائه في الآخرة من عوالي الدرجات
ما لا يبلغ بدونه ، ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلاءه بالمصائب جزعاً
أو كفراناً ، أو منعه عن شيء مما ذكر فالعافية أصلح في حقه ، وربما كان
البلاء مما منعه من الوصول إلى المراتب العظيمة فلا ريب في أن العافية وعدم هذا
البلاء أفضل وأعلى منه ، فإن البصير الذي توصل بعينه إلى النظر إلى عجائب
صنع الله ، وتوصل به إلى معرفة الله ، وتمكن لأجل العينين إلى مطالعة العلوم
وتصنيف الكتب الكثيرة من أنواع العلوم ، وتبقى آثاره العلمية على مر الدهور
وينتفع من علومه الناس أبداً ، وربما بلغ لأجل العينين إلى غاية درجات المعرفة
والقرب والحب والأنس والاستغراق ، ولولا وجود العينين له لم يبلغ إلى شيء
من ذلك ، فلا ريب في أن وجود البصر مثله أفضل وأصلح من عدمه ، ولولا
ذلك لكانت رتبة شعيب مثلاً وقد كان ضريباً من بين الأنبياء فوق رتبة موسى
وأبراهيم وغيرهما عليهم السلام لأنه صبر على فقد البصر ، وموسى لم يصبر عليه
واسكان السكال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم ،
وهذا باطل فإن كل واحد من الأعضاء آلة في الدين فيفوت بفواتها ركن من
الدين ، ويدل على ذلك ما ورد في عدة من الأخبار أن كل ما يرد على المؤمن
من البلاء أو عافية أو نعمة أو بلية فهو خير له وأصلح في حقه ، وما ورد في بعض
الأحاديث القدسية : « إن بعض عبادي لا يصلحه إلا الفقر والمرض فأعطيته
ذلك ، وبعضهم لا يصلحه إلا الغني والصحة فأعطيته ذلك » ، وبذلك يجمع
بين أخبار العافية وأخبار البلاء .

(ومنها) :

الجزع

وهو إطلاق دواعي الهوى من الاسترسال في رفع الصوت وضرب الحدود وشق الجيوب ، أو ضيق الصدر والتبرّم والتضجر ، وهو وإن كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذي من رذائل القوة الغضبية فقط إلا أنه لما كان ضده الصبر وله أقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية كما يأتي فلذلك لم نذكره في متعلقات قوة الغضب فقط بل ذكرناه هنا ، ثم الجزع في المصائب من المهلكات لأنه في الحقيقة انكار لقضاء الله ، وإكراه لحكمه ، وسخط على فعله ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الجزع عند البلاء تمام الخسة » وقال صلى الله عليه وآله : « إن عظم الجزاء مع عظيم البلاء ، وإني لله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » ، وفي الخبر القدسي : « من لم يرض بقضائي ، ولم يشكر على نعمائي ، ولم يصبر على بلائي فليطلب ربًا سواي » ، وروي أن زكريا لما هرب من الكفار واختفى في الشجرة وعرفوا ذلك جاؤا بالمشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا فأن أنة فأوحى الله إليه : « يا زكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لأحونك من ديوان النبوة » فعصّ زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين . وبالجملّة العاقل يعلم أن الجزع في المصائب لا فائدة فيه إذا ما قدر يكون ، والجزع لا يردّه ، ولا ريب في أنه يترك الجزع بعد مضي مدة فليتركه أولا حتى لا يضيع أجره ، وقد نقل أنه مات ابن لبعض الأكابر فعزّاه مجوسي ، وقال له : « ينبغي للماقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام » فقال : اكتبوه عنه وقال

الصادق عليه السلام : « الصبر يظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء ، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة ، والصبر يدّعيه كل أحد وما يثبت عنده إلا الخبثون ، والجزع ينسكه كل أحد وهو أبين على المنافقين لأن نزول الحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب ، وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه ، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبراً ، وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزن الشخص ، وتغير اللون والحال ، وكل نازلة خلت أوائلها من الإخبات والإثابة والتضرع إلى الله فصاحبها جزوع غير صابر ، والصبر ما أوله مرة وآخره حلوة ، من دخله من أواخره فقد دخل ، ومن دخله من أوائله فقد خرج ، ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر ، قال الله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام : فكيف نصبر على ما لم تحط به خبراً فن صبر كرهاً ، ولم يشك إلى الخلق ، ولم يجزع به تلك ستره فهو من العام ونصيبه ما قال الله عز وجل : وبشر الصابرين أي بالجنة والمغفرة ، ومن استقبل البلاء بالرحب وصبر على سكينته ووقار فهو من الخاص ونصيبه ما قال الله عز وجل : « إن الله مع الصابرين » (١) .

فصل

الصبر - مراتب الصبر - أقسام الصبر - فضيلة الصبر - الصبر على السراء - اختلاف مراتب الصبر في الثواب - طريق تحصيل الصبر - التزام بين الصبر والشكر - القانون الكلي في معرفة الفضائل - تفضيل الصبر على الشكر .

(١) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة . باب ٩٢ ، وعلى البحار الجزء

الثاني من المجلد ١٥ . باب الصبر واليأس بعد العصر ص ١٤٣ .

ضد الجزع (الصبر) وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب بأن تقاوم معها بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة ، فيحبس لسانه عن الشكوى ، وأعضائه عن الحركات الغير المتعارفة ، وهذا هو الصبر على المكروه ، وضده الجزع وله أقسام اخر لها اسماء خاصة تمدّ فضائل اخر ، كالصبر في الحروب وهو من انواع الشجاعة ، وضده الجبن ، (والصبر) في كظم الغيظ وهو الحلم ، وضده الغضب ، (والصبر) على المشاق كالعبادة ، وضده الفسق أي الخروج عن العبادات الشرعية ، (والصبر) على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات وهي العفة واليه أشير في قوله سبحانه : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » وضده الشره ، (والصبر) عن فضول العيش وهو الزهد وضده الحرص ، (والصبر) في كتمان السر وضده الاذاعة (والاولان) كالصبر على المكروه من فضائل قوة الغضب (والرابع) من نتائج المحبة والخشية (والبواقي) من فضائل قوة الشهوة كما يأتي ، وبذلك يظهر أن من عدّ الصبر مطلقاً من فضائل القوة الشهوية أو القوة الغضبية إنما أراد به بعض أقسامه .

ويظهر من ذلك أن أكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر ، ولذلك لما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الايمان قال : « هو الصبر لأنه أكثر اعماله وأشرفها » كما قال : « الحج عزم » وقد عرف مطلق الصبر بأنه مقاومة النفس مع الهوى ، وبعبارة اخرى أنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى والمراد بباعث الدين هو العقل النظري الهادي الى طريق الخير والصلاح ، والعقل العملي المنفذ لأحكامه المؤدية الى الفوز والفلاح ، والمراد بباعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن اطاعة العقل والقتال دائماً بين الباعثين قائم ، والحرب

بينهما أبداً سجلال (١) وقلب العبد معركته ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله ، ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله ، فإن ثبت باعث الدين بامداد الملائكة حتى قهر باعث الهوى واستمر على مخالفته غلب حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن نحاول وضعف حتى غلب باعث الهوى بامداد الشياطين ولم يصبر على دفعه التحق باتباع الشياطين ، وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة أي اليقين بكون الهوى عدواً قاطعاً لطريق الوصول الى الله مضاداً لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة ، ثم باعث الدين إما يظهر داعي الهوى بالسكينة بحيث لا تبقى له قوة المنازعة فيدوم الصبر وتستقر النفس في مقام الاطمينان ، وتنادي من وراء سرادقات الجمال بخطاب (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية) ، فتدخل في زمرة الصديقين السابقين ، وتنسلك في سلك عباده الصالحين أو يغلب داعي الهوى وينتهز باعث الدين بحيث لا تبقى له قوة المنازعة ويبأس عن المجاهدة والمقاومة ، فتسلم نفسه الشريفة المملوكة التي هي سر الله ووديعته الى حزب الشيطان ، ومثله مثل من أخذ أعز اولاده المنصف بجميع السمكات ويسلمه الى الكفار من أعدائه فيقتلونه لديه ، ويحرقونه بين يديه بل هو أسوأ حالا منه بمراتب كما لا يخفى ، إذ لا يكون لأحدهما الغلبة التامة ، بل يكون بينهما تنازع وتجادب فتارة يغلب هذا ، وتارة يغلب ذاك ، فتكون النفس في مقام المجاهدة الى أن يغلب أحد الباعثين فتدخل في حزب الله أو حزب الشيطان ، ثم غلبة أحد الباعثين على الآخر إما أن تكون في جميع مقتضياته ، أو بعضها وتخرج من القسمين ثلاثة احوال :

(الأولى) أن يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الاوقات ،

(١) الحرب بينهم سجلال مثل مشهور . أي تارة لهم وتارة عليهم .

(الثانية) أن يغلب عليه الجميع في الجميع ، (الثالثة) أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع ، أو يغلب عليها كلاً أو بعضاً دون بعض ، وقد أشير الى اهل الحالة الاولى في الكتاب الإلهي بقوله تعالى : « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ » الى آخر الآية والى الثانية بقوله : « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (١) والى الثالثة بقوله : « تَخَلَّطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » (٢)

فصل

مراتب الصبر

الصبر على المسكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات إن كان ييسرُ وسهولة فهو الصبر حقيقة ، وإن كان بتكلف وتعب فهو التصبر مجازاً وإذا أدام التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة كما قال الله سبحانه : « فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » (٣) ومتى تيسر الصبر وصار ملكة راسخة أورث مقام الرضا ، وإذا أدام مقام الرضا أورث مقام المحبة ، وكما أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا ، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، قال بعض العارفين : « أهل الصبر

(١) السجدة الآية ١٣ . (٢) التوبة الآية ١٠٣ .

(٣) الليل الآية ٥ - ٦ - ٧ .

على ثلاث مقامات (الأول) ترك الشكوى وهذه درجة التائبين (الثاني) الرضا بالمقدر وهذه درجة الزاهدين (الثالث) المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين « وكأن هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه من المصائب والحن ، ثم باعث الصبر إما إظهار الثبات ، وطمأنينة القلب عند الناس ليكون عندهم مرضياً كما نقل عن معاوية أنه أظهر البشاشة ، وترك الشكوى في مرض موته وقال :

وتجلدي للشامتين اريهم إني لريب الدهر لا اتزعزع

وهذا صبر العوام وهم الذين يعملون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، أو توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة في دار الآخرة وهذا صبر الزهاد والمتقين واليه الإشارة بقوله تعالى : « إِنَّمَا يَوَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (١) أو الالتذاذ والابتهاج بورد المكروه من الله سبحانه إذ كل ما يرد من المحبوب محبوب ، والمحبة يشق إلى النفات محبوب ، ويرتاح به ، وإن كان ما يؤذيه ابتلاءً وامتحاناً له وهذا صبر العارفين واليه الإشارة بقوله تعالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ » (٢) وقد ورد أن الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام قال لجابر بن عبد الله الانصاري وقد اكتنفته علل وأسقام ، وغلبه ضعف الهرم : « كيف تجد حالك ؟ » قال أنا في حال الفقر أحب إلي من الغنى ، والمرض أحب إلي من الصحة ، والموت أحب إلي من الحياة فقال الإمام عليه السلام : « أما نحن أهل البيت فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة فهو أحب

الينا » فقام جابر وقيل بين عينيهِ وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال لي : « يا جابر ستدرك واحداً من أولادي اسمه اسمي يبقر العلوم بقرا »

تفصيل

أقسام الصبر

الصبر باعتبار حكمه ينقسم الى الأقسام الخمسة ، فالصبر عن الشهوات المحرمة ، وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض ، وعلى بعض المكروه وأداء المندوبات نفل ، وعلى الأذية التي يحرم تحملها حرام كالصبر على قطع يده ، أو يد ولده ، أو قصد حريمه بشهوة محظورة ، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع وبذلك يظهر أن كل صبر ليس محموداً ، بل بعض أنواعه ممدوح ، وبعض أنواعه مذموم ، والشرع يحكم ، فما حسنه حسن ، وما قبحه قبيح .

فصل

فضيلة الصبر

الصبر منزل من منازل السالكين ، ومقام من مقامات الموحدين ، وبه ينسلك العبد في سلك المقربين ، ويصل الى جوار رب العالمين ، وقد أضاف الله أكثر الدرجات والخيرات اليه ، وذكره في نيف وسبعين موضعاً من القرآن ، ووصف الله الصابرين بأوصاف فقال عز من قائل : « وَجَعَلْنَا

مِنْهُمْ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا « (١) وقال : « وَنَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا « (٢) وقال : « وَكُنَّ جُزِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا أُجِرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ « (٣) وقال : « أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أُجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا « (٤) فَمَا مِنْ فَضِيلَةٍ إِلَّا وَاجَرَهَا بِتَقْدِيرِ وَحِسَابِ إِلَّا الصَّبْرَ ، وَلِذَا قَالَ : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ « ووعد الصَّابِرِينَ بآئِهِ مَعَهُمْ فَقَالَ : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ « (٥) وعلقِ النَّصْرَةَ عَلَى الصَّبْرِ فَقَالَ : « تَبْلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ « (٦) ، وَجَمَعَ لِلصَّابِرِينَ الصَّلَاةَ وَالرَّحْمَةَ وَالْهُدَى فَقَالَ : « أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ « والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء ، والأخبار المادحة له أكثر من أن تحصى قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الصبر نصف الإيمان » وقال صلى الله عليه وآله : « مَنْ أَقَلَّ مَا أُوتِيَتْهُ الْيَقِينُ وَعَزِمَتْهُ الصَّبْرُ ، وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يَبَالِ مَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَصِيَامِ النَّهَارِ ، وَلَنْ تَصْبِرُوا عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُوَافِقَنِي كُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تَفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا بَعْدِي فَيَنْكُرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَيَنْكُرَ كَرَّمَ أَهْلُ السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفَرَ بِكَالِ ثَوَابِهِ « ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ

(١) السجدة الآية ٢٤ . (٢) الأنعام الآية ١٣٣ .

(٣) النحل الآية ٩٨ . (٤) القصص الآية ٥٤ .

(٥) الانفال الآية ٤٨ . (٦) آل عمران الآية ١٢١ .

وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ» (١) وقال صلى الله عليه وآله : « الصبر كنز من كنوز الجنة » وقال صلى الله عليه وآله : « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » ، ولا ريب في أن الصبر مما تكرهه النفوس ، ولذا قيل الصبر صبر ، وقال صلى الله عليه وآله : « في الصبر على تكرهه خير كثير » وقال صلى الله عليه وآله : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له » ، وسئل صلى الله عليه وآله عن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة » ، وقال صلى الله عليه وآله : « ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ، ولا قطرت بقطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم أهرقت في سبيل الله ، وقطرة دم في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة ، وخ خطوة إلى صلة الرحم » ، وروي أنه تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : « يا داود تخلّق باخلاقى وإن من اخلاقى أنى أنا الصبور » ، وروي أن المسيح قال للحواريين : « إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون » (٢) وقال صلى الله عليه وآله : « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتى واعقبني خيراً منها إلا وفعل الله ذلك » ، وقال صلى الله عليه وآله : قال الله عز وجل : إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه أن انصب له ميزاناً وانشر له

(١) النحل الآية ٩٨ .

(٢) صحيحنا النبويات على الأحياء الجزء الرابع . كتاب الصبر ص ٥٣ .

ديواناً . « (١) ، وقال صلى الله عليه وآله : « الصبر ثلاثة : صبر عند المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مائة درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء الى الأرض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض الى العرش ، ومن صبر على المعصية كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض الى منتهى العرش » وقال صلى الله عليه وآله : « سيأتي على الناس زمان لا يُنال المُلْك فيه إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل ، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى ، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو على يقدر على الغنى ، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر العز آناه الله ثواب خمسين صدقاً ممن صدق بي » (٢) وقال صلى الله عليه وآله : « ان الله تعالى قال لجبرئيل : ما جزاء من سلبت كريمة ، فقال : سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا . قال جزاؤه الخلود في داري ، والنظر الى وجهي » وقال صلى الله عليه وآله لرجل قال له : ذهب مالي وسقيم جسمي : « لا خير في عبد لا يذهب ماله ، ولا يسقم جسمه ان الله اذا احب عبداً ابتلاه ، واذا ابتلاه صبره » ، وقال صلى الله عليه وآله : « إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبلى في جسمه فيبلغها

(١) صحيحنا الرواية على البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر .

باب الصبر واليسر بعد العسر ص ١٤٨ .

(٢) صحيحنا الرواية وكذا ما قبلها على اصول الكافي الجزء الثاني .

باب الصبر وعلى الوافي الجزء الثالث باب الصبر . ص ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ .

بذلك » ، وقال صلى الله عليه وآله : « إذا أراد الله بعبد خيراً ، وأراد أن يصابه صيب عليه البلاء صباً وثجته عليه ثجاً فاذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف ، وإذا دعاه ثانياً فقال : يا رب قل الله تعالى لبيك عبدي ومهديك ألا تسألني شيئاً إلا أعطيتك ، أو رفعت لك ما هو خير ، وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه ، فاذا كانت يوم القيامة جبيء باهل الأعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يؤتى باهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يُصب عليهم الأجر صبّاً كما كان يُصب عليهم البلاء صبّاً فيودّ أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تفرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب فذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، وقال صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ، ثم قرأ قوله تعالى : فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ، يعني لما تركوا ما أمروا به فتحننا عليهم أبواب الخيرات حتى إذا فرحوا بما أوتوا أي بما أعطوا من الخير اخذناهم بغتة ، وروي أن نبياً من الأنبياء شكى الى ربه فقال : « يا رب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرضه للبلاء ، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجتري على معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا ، فأوحى الله تعالى اليه أن العباد إلي ، والبلاء لي ، وكل يسبّح بحمدي ، فيكون المؤمن عليه من الذنوب فازوي عنه الدنيا ، وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلتقاني فاجزيه بحسناته ، ويكون الكافر له من الحسنات فابسط له في الرزق وازوي عنه

البلاء ، فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقا في فاجزيه بسيئاته » (١) ، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قال الله عز وجل : إني جعلت الدنيا بين عبادي قرضاً ، فمن أقرضني منها قرضاً أعطيته بكل واحدة منهن عشرةً إلى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك ، ومن لم يقرضني منها قرضاً فآخذت منه شيئاً قسراً أعطيته ثلاث خصال لو أعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بهما مني ، قال ثم تلا أبو عبد الله عليه السلام قوله عز وجل : الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، فهذه واحدة من ثلاث خصال ورحمة اثنان وأولئك هم المهندون ثلاث ، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام هذا لمن أخذ الله منه شيئاً قسراً » وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « بني الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل » وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن جميل ، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرم الله عز وجل عليك » وقال علي عليه السلام : « الصبر وحسن الخلق والبر والحلم من أخلاق الأنبياء » وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « أيما رجل حبسه السلطان ظمأً فمات فهو شهيد ، وإن ضربه فمات فهو شهيد » (٢) وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « من اجل الله ومعرفته حقه ألا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « ألا أخبركم بأرجى

(١) صحيحنا الأحاديث الأربع على الأحياء الجزء الرابع . باب الصبر

ص ١١٤ . (٢) صحيحنا الروايات الثلاث على أصول الكافي الجزء

الثاني . باب الصبر . وعلى الوافي الجزء الثالث . باب الصبر ص ٣٢١ -

آية في كتاب الله « قالوا بلى فقرأ عليهم : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » (١) « لمصاب في الدنيا بكسب الأوزار ، فإذا عافاه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً ، وإن عفى عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة » ، وقال الباقر عليه السلام : « الجنة مخوفة بالمسكاره والصبر ، فمن صبر على المسكاره في الدنيا دخل الجنة ، وجهنم مخوفة بالذات والشهوات فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار » ، وقال عليه السلام : « مروءة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى أكثر من مروءة الاعطاء » (٢) ، وقال عليه السلام : « لما حضرت ابي علي بن الحسين عليهما السلام الوفاة ضمني الى صدره ثم قال : يا بني اوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة ، وبما ذكر أن أباه أوصاه به قال : يا بني اصبر على الحق وإن كان مرأاً » ، وقال الصادق عليه السلام : « إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه ، والزكاة عن يساره ، والبر مطلقاً عليه ، ويتنحى الصبر ناحيته فإذا دخل عليه الملائكة اللذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبر دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فانا دونه » ، وقال عليه السلام : « إذا كان يوم القيامة يقوم عُتَق من الناس فيأتون باب الجنة فيضربونه ، فيقال لهم من أنتم فيقولون نحن أهل الصبر ، فيقال لهم على ما صبرتم ، فيقولون كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله فيقول الله تعالى صدقوا أدخلوهم الجنة وهو قول الله تعالى : إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، وقال عليه السلام :

(١) الشورى الآية ٢٩ . (٢) قال العلامة [المجلسي] قدس سره

في الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر . في باب الصبر على المصيبة في ذيل هذا الخبر : بيان المروءة هي الصفات التي بها تكمل انسانية الانسان .

« من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد » ، وقال عليه السلام : « إن الله عز وجل أنعم على قوم فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً » ، وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة » ، وقال عليه السلام : « من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز » ، وقال عليه السلام : « إن من صبر صبر قليلاً » ، وإن من جزع جزع قليلاً » ، ثم قال : عليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله عز وجل بعث محمدًا صلى الله عليه وآله فأمره بالصبر والرفق فقال : « واصبر على ما يقولون وأهبطهم هبطاً جميلاً » (١) وقال أبو الحسن عليه السلام لبعض أصحابه : « إن تصبر تفتبط » ، وإلا تصبر يقدر الله مقاديره راضياً كنت أم كارهاً » (٢) ، والأخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه وأجره أكثر من أن تحصى ، ولذلك كان الاتقياء والآكابر محبين طالبيين له حتى تقل أن واحداً منهم دخل على ابن مريض له فقال : « يا بني لئن تكن في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك » فقال : « يا أبا له أثني يكن ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب » ، وقال بعضهم : « ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ما علم به أحد » .

فصل

الصبر على السراء

كل ما يلقى العبد في الدنيا وما يوافق هواه ، أو لا يوافق بل يكرهه وهو

(١) المزمّل الآية ١٠ . (٢) صحیحنا الاحادیث الواردة عن

أهل البيت عليهم السلام في باب الصبر على أصول الكافي الجزء الثاني . باب الصبر . وعلى الوافي الجزء الثالث كتاب الصبر ص ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ .

في كل منها محتاج الى الصبر ، اذ ما يوافق هواه كالصحة الجسمية واتساع
الاسباب الدنيوية ، ونيل الجاه والمال ، وكثرة الاولاد والاتباع لو لم يصبر
عليه ، ولم يضبط نفسه عن الانهك فيه ، والاغترار به أدركه الطغيان والبطر ،
فإن الانسان ليطنى أن رآه استغنى ، وقال بعض الأكابر : (البلاء
يصبر عليه المؤمن ، والعوافي لا يصبر عليها إلا الصديق) وقال بعض العرفاء :
(الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء) ، ولذا لما توسعت الدنيا على
الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش قالوا آتسلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا
بفتنة السراء فلا تقدر على الصبر عليها) ، ومن هنا قال الله سبحانه :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ) (١) وقال : (إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا
لَكُمْ) (٢) ومعنى الصبر على متاع الدنيا ألا يركن اليه ، ويعلم أنه مستودع عنده
وعن قريب يسترجع عنه ، فلا ينهمك في التمتع والتلذذ ولا يتفاخر به على فاقده
من اخوانه المؤمنين ، ويرعى حقوق الله في ماله بالانفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة
للخلق ، وفي منصبه باعانة المظلومين ، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه .

والسر في كون الصبر عليها أشد من الصبر على البلاء أنه ليس مجبوراً
على ترك ملاذ الدنيا ، بل له القدرة والتمكن على التمتع بها ، بخلاف البلاء فانه
مجبور عليه ، ولا يقدر على دفعه فالصبر عليه أسهل ، ولذا ترى أن الجائع إذا
لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه إذا قدر عليه .

وأما ما لا يوافق هواه وطبعه فله ثلاثة أقسام : (الأول) ما يكون
مقدوراً للعبد كالطاعات والمعاصي ، أما الطاعة فالصبر عليها شديد لأن النفس بطبعها

تنفر عنها ، وتشتهي التقهر والربوبية كما يأتي وجهه ، ومع ذلك يثقل عليها بعض العبادات باعتبار الكسل ، وبعضها باعتبار البخل ، وبعضها باعتبارها كالخج والجهاد فلا تخلو طاعة من اعتبار يشق على النفس أن تصبر عليه ، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها الى الصبر في حالات ثلاث تنضاعف لأجلها الصعوبة ، إذ يحتاج اليها قبل العمل في تصحيح النية والإخلاص ، وتطهيرها عن شوائب الرياء ، وفي حالة العمل لئلا ينفل عن الله في اثنائه ، ولا يخل بشيء من وظائفه وآدابه ، ويستمر على ذلك الى الفراغ وبعد الفراغ عنه لئلا يتطرق اليه العجب ، ولا يظهر رياء وسعة ، والنهي عن إبطال العمل وعن إبطال الصدقات بالإن والاذى أمر بهذا القسم من الصبر ، وأما المعاصي فلنكون جميعها مما تشتهي النفس فصبرها عليها شديد ، وعلى المألوفة المعتادة اشد ، إذ العادة كالطبيعة الخامسة ، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها ، فإن الاستبعاد في مثل لبس الحرير أكثر من الاستبعاد في اطلاق اللسان طول النهار في اعراض الناس ، مع أن الغيبة أشد من الزنا كما نلقت به الأخبار ، فاذا انضافت العادة الى الشهوة ظهر جندان من جنود الشيطان على جند الله فيصعب تركها .

ثم المعصية إن كانت مما يسهل فعلها كان الصبر عنها اشد كمعاصي اللسان من الغيبة والكذب ، ولو كانت مع ذلك مشتملة على تمام ما تقتضيه جبلة النفس من الاستعلاء والربوبية كالكلمات التي توجب نفى الغير ، والقدح فيه ، والثناء على ذاتها تصريحاً أو تعريضاً كان الصبر عنها اشد ، اذ مثل ذلك مع كونه مما تيسر فعله وصار مألوفاً معتاداً انضافت اليه شهوتان للنفس فيه ، احدهما نفى السكال من غيرها ، واخرهما اثباته لذاتها ، وميل النفس الى مثل تلك المعصية في غاية الكمال إذ به يتم ما تقتضيه جبلة منها من التفوق والعلو فصبرها عنها في

غاية الصعوبة . وقد ظهر مما ذكر أن أكثر ما شاع وذاع من المعاصي إنما يصدر من اللسان فينبغي لكل أحد أن يجتهد في حفظ لسانه بتقديم التروي على كلام يريد أن يتكلم به ، فإن لم يكن معصية تكلم به ، وإلا تركه ، ولولم يقدر على ذلك وكان لسانه خارجاً عن اطاعته في المحاورات وجبت عليه العزلة والانفراد ، وتركه التكلم مع الناس حتى تحصل له ملكة الاقتدار على حفظه ، ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعاصي قوة وضعفاً فينبغي لكل طالب السعادة أن يعلم أن داعية نفسه إلى أي معصية أشد فيكون سعيه في تركها أكثر ، ثم حركة الخواطر باختلاج الوسوس أيسر بكثير من حركة اللسان بقباح الكلمات فلا يمكن الصبر عنها أصلاً إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه هم واحد ، وأكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدرك له ، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدور ، وكيف كان فهو تصور باطل ، وتضييع وقت ، إذ آلة استكمال العبد قلبه ، فاذا غفل القلب في لحظة من ذكر يستفيد به أنساً بالله ، أو فكر يستفيد به معرفة بالله ويستفيد بالمعرفة حب الله فهو مغبون

* * *

(الثاني) ما ليس حصوله مقدوراً للعبد ولا كنهه يقدر على دفعه بالتشفي ، كما لو أؤذي بفعل أو قول أو جني عليه في نفسه أو ماله فإن حصول الأذية والجناية وإن لم يرتبط باختياره إلا أنه يقدر على التشفي من المؤذي ، أو الجاني بالانتقام منه ، والصبر على ذلك بترك المكافات ، وهو قد يكون واجباً ، وقد يكون فضيلة وهو أعلى مراتب الصبر ، ولأجل ذلك خاطب الله نبيه صلى الله عليه وآله بقوله : « وَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنْ

الرُّسُلِ» (١) وبقوله : « فاصبر على ما يقولون وأهجرهم هجراً جميلاً »
وبقوله : « ودع أذاهم وتوكل على الله » (٢) وقال : « وتسمعن
من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى
كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » (٣) وقال :
« وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وإن صبرتم فهو خير
لصابرين » (٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « صل من قطعك ، واعط
من حرمك ، واعف عن ظلمك » ، وروي أنه صلى الله عليه وآله : قسم مرة ما لا فقال
بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر به رسول الله
فاحمرت وجنتاه ، ثم قال : « رحم الله أخى موسى قداوذي باكثر من هذا فصبر »

* * *

« الثالث » ما ليس مقدوراً للعبد مطلقاً كالمصائب والنوائب ، والصبر
عليه شديد في غاية الصعوبة ، ولا ينال إلا ببضاعة الصديقين ، والوصول اليه
يتوقف على اليقين التام ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله : « أسألك من اليقين
ما يهون علي مصائب الدنيا » ، وقد تقدم بعض الأخبار الواردة في فضيلة هذا
القسم من الصبر ، وقال صلى الله عليه وآله : « قال الله إذا ابتليت عبدي
ببلاءي فصبر ، ولم يشكني الى عواده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً
من دمه » ، فإن أبرأته أبرأته ولا ذنب له ، وإن توفيته فالى رحمتي » وقال
صلى الله عليه وآله : « من اجل الله ومعرفة حقه ألا تشكروا وجمعك ،
ولا تذكر مصيبتك » وقال صلى الله عليه وآله : « من ابتلي فصبر وأعطي

(١) الاحقاف الآية ٣٤ . (٢) الأحزاب الآية ٤٧ .

(٣) آل عمران الآية ١٨٣ . (٤) النحل الآية ١٢٧ .

فشكر وظلم فغفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » وقال صلى الله عليه وآله :
« إن الله تعالى قال لجبرئيل : « ما جزاء من سلبت كريمة » فقال سبحانه لا
لا علم لنا إلا ما علمتنا قال : « جزاؤه الخلود في داري ، والنظر الى
وجهي » ، وقال داود عليه السلام : « يارب ما جزاء الحزين يصبر على
المصائب ابتغاء مرضاتك ، قال : « جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان لا انزعه عنه
أبداً » ، وقال لابنه سليمان عليه السلام : « يُسَدِّدْ لِي عَلَى تَقْوَى الْمُؤْمِنِ
ثَلَاثَ : حَسَنَ التَّوَكُّلِ فِيمَا لَمْ يَنْلِ ، وَحَسَنَ الرِّضَا فِيمَا قَدْ نَالَ ، وَحَسَنَ الصَّبْرِ
فِي مَا قَدْ فَاتَ » ، وروي « أن من ابتلي بموت ثلاثة أولاد لم يرد على النار أصلاً »

تذييل

اختلاف مراتب الصبر في الثواب

لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهالك فيها
فهو راجع الى الصبر عن المعصية ، وعلى هذا فاقسام الصبر ثلاثة : الصبر على المصائب
والنوائب ، والصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية ، ثم ما تقدم من الخبر
النبوي صريح في كون الأول أقل ثواباً والآخر أكثر ثواباً والوسط وسطاً
بينهما ، وربما ظهر من بعض الأخبار كون الأول أكثر ثواباً ، وأبو حامد الغزالي
رجح الأول أولاً وبه صرح بعض المتأخرين من أصحابنا للخبر النبوي ، ثم
رجح الثاني ثانياً محتجاً بما روي عن ابن عباس أنه قال : « الصبر في القرآن
على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة ، وصبر
عن محارم الله تعالى وله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى

فله تسعة درجة « وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم ، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين لكونه شديداً على النفس .

وعندي أن القول بكون أحدهما أكثر ثواباً على الإطلاق غير صحيح إذ القول بأن الصبر عن كلمة كذب أو لبس ثوب من الحرير لحظة أكثر ثواباً من الصبر على موت كثير من أعزّ الأولاد بعيد ، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم أكثر ثواباً من كف النفس عن كبائر المعاصي ، وفطامها عن الله اللذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد ، فالصواب التفصيل بأن كل صبر من أي قسم كان من الثلاثة إذا كان على النفس أشد وأشق فثوابه أكثر مما كان أسهل وأيسر كائناً ما كان ، لما ثبت وتقرر أن أفضل الأعمال أحزمها ، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الاخبار .

فصل

طريق تحصيل الصبر

الطريق الى تحصيل الصبر تقوية باعث الدين ، وتضعيف باعث الهوى ، (والأول) إنما يكون بامور : (الأول) أن يكثر فكرة فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والآخرة ، وأن يعلم أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات ، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة في الدنيا ، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ، فيجازى على المدة القصيرة الغاية بالمدة الطويلة الخالدة ، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة الباقية ، ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن بفوات الخسيس في الحال

(الثاني) أن يندكر قلة قدر الشدة الدنيوية ووقتها واستخلاصه عنها عن قريب مع بقاء الأجر على الصبر عليها (الثالث) أن يعلم أن الجزع قبيح مضر بالدين والدنيا ولا يفيد ثمرة إلا حبط الثواب وجلب العقاب كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور ، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مازور » (الرابع) أن يعود مصارعة هذا الباعث الهوى تدريجاً حتى يدرك لذة الظفر بها فيتجري عليها ويقوي متنه في مصارعتها ، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة يؤكّد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ، ولذا تزيد قوة الممارسين الأعمال الشاقة كالحمايين والفلاحين على قوة التاركين لها ، فمن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما شاء وأراد .

(وأما الثاني) أعني تضعيف الهوى إنما يكون بالمجاهدة والرياضة من الصوم والجوع وقطع الأسباب المهيجة للشهوة من النظر الى مظانها وتخيّلها ، وبالتسلية بالمباح من الجنس الذي يشتهيه بشرط ألا يخرج عن القدر المشروع .

تتبع

(إن قيل) الصبر في المصائب إن كان المراد به ألا تكون في نفسه كراهة المعصية فذلك غير داخل تحت الاختيار إذ الإنسان مضطر الى الكراهة ، فبماذا ينال درجة الصبر في المصائب (قلت) من كان عارفاً بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره بأن يعلم يقيناً بأن كل أمر صدر من الله وابتلى به عباده من ضيق أوسعة ، وكل أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات ، وما عرض من ذلك مما يعدّ شراً فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه ، وأن

ذلك إذا كان متيقناً له استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغم والحزن ، وطابت بقضائه وقدره ، وتوسع صدره بمواقع حكمه ، وأيقن بأن قضاءه لم يخرج إلا بالخيرة ، وقد أشار الى ذلك امير المؤمنين عليه السلام بقوله : « اطرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتُ الْهَمُومِ بِعِزَّتِ الصَّبْرِ وَحَسَنِ الْيَقِينِ » ، ومن بلغ بهذه الدرجة يتلذذ بكل ما يرد عليه ، ومثله يتمتع بثروة لا تنفذ ، ويتأيد بعز لا يفقد ، فيسرح في ملك الأبد ، ويعرج الى فضاء السرمد . هذا مع أن العبد إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ، وشق الجيوب ، وضرب الحدود ، والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة في الملبس والمطعم ونحوها ، وهذه الأمور داخلية تحت اختياره ، فينبغي أن يجتنب عنها ، ويظهر الرضا بالقضاء ، ويبقى مستمراً على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت ، ولا يخرج عن حد الصابرين توجع القلب ، وجريان الدمع لأن ذلك مقتضى البشرية ، ولذلك لما مات إبراهيم ولدُ النبي صلى الله عليه وآله فاضت عيناه بالدمع فقيّل له : أما نهيتنا عن هذا قال : « هذه رحمة إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، وقال أيضاً صلى الله عليه وآله : « العين تدمع ، والقلب يحزن ولا يقول ما يسخط الرب » ، بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضى أيضاً فإن المقدم على الفصد والحجامة راض به مع أنه متألم بسببه لا محالة ، نعم من كمال الصبر كتمان المصائب لما ورد من أن كتمان المصائب والأوجاع والصدقة من كنوز البر وقد ورد المدح في كثير من الأخبار على عدم الشكاية من الأمراض والمصائب ، وقال الباقر عليه السلام : « الصبر الجميل صبر ليس فيه شكوى الى الناس » ، وفي بعض الأخبار أن الشكاية أن تقول : « ابتليت بما لم يبتل به أحد ، واصابني ما لم يصب أحداً » ، وليس الشكوى أن تقول سهرت البارحة ، وحيت اليوم ونحو ذلك « وقال الصادق عليه السلام :

« من اشتكى ليلة فقبلها بقبولها ، وأدى الى الله شكرها كانت كعبادة ستين سنة » قيل له ما قبولها قال : « يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها فإذا أصبح حمد الله على ما كان » .



التلازم بين الصبر والشكر

اعلم أنه يختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر ، فرجح كلاً منهما على الآخر طائفة ، والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر لأنها متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، إذ الصبر على الطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر ، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكراً كما مر في باب الشكر ، والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر ، لما مر من أن الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعماً ، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم ولأن الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله سبحانه ، وهذا هو الشكر بعينه لأنه تعظيم لله يمنع عن العصيان ، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس اليه ، وهذا هو عين الصبر عن المعصية ، وايضاً توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر ، فكل صبر يستلزم الشكر وبالعكس .

وبالجملة لا ريب في استلزام كل من الصبر والشكر للآخر ، فإن اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية بل اتحادهما فيها أمر ظاهر كما تقدم ، وفي البلاء المفيد الدنيوي إذا حصل فيه الصبر فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له من الثواب الآخروي ، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة الى الآخر فيشكر

على ذلك ، فهو لا ينفك عن الشكر لأنه يعرف هذه النعم من الله كما يعرف
البلاء ايضاً من الله ، فيفرح بالنعم ، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره ،
وفي النعمة المقيدة مثل المال إذا توسل به الى تحصيل الدين فلا ريب في أنه كما تحقق فيه
الكرتحقق فيه الصبر ايضاً إذ في انفاق المال وبذله في تحصيل الدين حبس النفس عما
تحبه وتميل اليه وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى ، وفي البلاء المطلق
كالكفر والجهل لا معنى لتحقيق الشكر أو الصبر فيه ، وفي النعمة المطلقة كسعادة
الآخرة والعلم وحسن الأخلاق كما يتحقق فيها الشكر يتحقق فيها الصبر ايضاً ،
إذ تحصيل السعادة والعلم والأخلاق الفاضلة والإبقاء عليها لا ينفك عن مقاومته
مع الهوى ومنع النفس عما تميل اليه ، مع أن الشكر عليها يستلزم منع النفس
عن الكفران وهو الصبر على المعصية ، حتى أن شكر العينيين بالنظر الى عجائب
صنع الله يستلزم الصبر عن الغفلة والنوم ، والنظر الى ما تميل اليه النفس من
النظر الى غير المحارم وأمثال ذلك « فإن قيل » استلزام كل من الصبر والشكر
للآخر مما لا ريب فيه إلا أن الكلام في أنه إذا لم يتحقق الاتحاد بينهما في فعل
كما في فعل الطاعة وترك المعصية لكونها متحدتين فيهما بل تحقق الاستلزام الموجب
لتحقق جهنم فأى الجهتين أفضل مثل أن يُبتلى أحد بمصيبة دنيوية فصبر عليها
بمعنى أنه عرف أنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب ، وشكر عليها
ايضاً بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الأخروي وغيرها من
الله ، وفرح بها ، وعمل بمقتضى فرحة من التحميد أو طاعة أخرى فهل الأفضل
حينئذ جهة الصبر أو جهة الشكر « قلنا » التسأل يعطي أن كل صبر هو شكر
بعينه وبالعكس فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما ،
فإن الصبر على البلاء إنما هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله ، وهذا هو عين

الشكر إذ كل طاعة لله سبحانه شكر ، وفي الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران وهو عين الصبر عن المعصية « فإن قلت » فإلى هذا يجتمع الصبر والشكر في محل واحد بجهة واحدة وقد تقدم أنهما متضادان ، إذ الصبر يستدعي أملاً ، والشكر يستدعي فرحاً ، وقد ذكرت أن اجتماع الصبر والشكر في محل واحد إنما يكون من جهتين متغايرتين لآمن جهة واحدة ، « قلنا » امتناع الاتحاد فيها إنما هو في الصبر والشكر على ما هو كان نعمة وبلاء بعينه ، فإنه لا يمكن أن يكون الصبر على فوت ولد - أعني حبس النفس عن الجزع - هو عين الشكر على النعمة ، إذ موت الولد بعينه ليس نعمة بل هو مستلزم للنعممة ، فالشكر على اللآزم ، والصبر على المأزوم ، فاختلقت جهتا الصبر والشكر فلا اتحاد ، وما ذكرناه من الاتحاد إنما في هو الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية ، أو على البلاء والطاعة ، وندعي أن من وصلت إليه نعمة فشكر عليها بعرفاتها من الله ففرح بها ، وعمل بمقتضى الفرح من التحميد ، أو طاعة أخرى كان هذا الشكر عين الصبر عن معصية هي الكفران ، أو على الطاعة التي هي التحميد وغيره ، وكذا من ابتلي ببلية فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع فهذا الصبر عين الشكر بأداء الطاعة التي هي تمظيم الله بكف النفس عن الجزع ، أو عن المعصية التي هي الجزع والاضطراب ، وهذا الاتحاد والعينية يطرده في كل صبر وشكر ، ولا يتحقق شكر لا يكون عين الصبر من هذا الوجه وبالعكس ، وليس بينهما تضاد وتغاير أصلاً ، والاستلزام واختلاف الجهة إنما هو في الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم ، ولا يمكن هنا اتحادهما لتضادهما ، وفي هذه الصورة يكون كل من الصبر والشكر المتميزين عن الآخر باختلاف الجهة عين الآخر من حيث ملاحظة الاعتبار السابق فلا يمكن الترجيح في هذه

الصورة مع اختلاف الجهة أيضاً (فإن قيل) عرفان النعم من الله داخل في حقيقة الشكر وليس داخل في الصبر فينبغي أن يكون الشكر لذلك أفضل من الصبر (قلنا) في الشق الأول من صورة العينية والاتحاد يكون عرفان النعمة داخل في الصبر ، وفي الشق الثاني منها ، وفي صورة الاستلزام يدخل عرفان البلاء من الله في الصبر ، فكما أن الشاكر يرى نعمة العيين من الله فكذا الصابر يرى العنى من الله فيهما في المعرفة متساويان ، ثم جميع ما ذكر في الفرق بين الصبر والشكر إنما إذا كانت حقيقة الصبر حبس النفس عن الشكوى في البلاء مع الكراهة والتألم (١) وعلى هذا يكون الرضا فوقه لو قطع النظر عن كون الصبر شكراً أيضاً ، ويكون الشكر فوق الرضا ، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب يفرح به ، ولو لم يعتبر في مفهوم الصبر الكراهة والتألم لصار الرضا والشكر في بعض درجاته ، إنه يمكن أن يصل حال العبد في الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به لأنه يراه من محبوبه ، وحينئذ فترك الشكوى في البلاء مع الكراهة صبر ، وبدونها رضا ، ومع الفرح به شكر .

(١) قال استاذ البشر المحقق الطوسي قدس سره في تعريف الصبر :

الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه وهو يمنع الباطن عن الاضطراب ، واللسان عن الشكابة ، والاعضاء عن الحركات غير المعتادة .



القانون السكلي في معرفة الفضائل

إعلم أن الميعار والقانون السكلي في معرفة فضائل الأعمال والأحوال وترجيح بعضها على بعض عند أرباب القلوب أن العمل كلما كان أكثر تأثيراً في إصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وأشد إعداداً له لمعرفة الله وانكشاف جلاله في ذاته وصفاته وأفعاله كان أفضل ، وعلى هذا القانون لولا الاتحاد والعميقة والتلازم بينهما لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة درجة من درجات الصبر والشكر وترجيح أحدهما ، إذ لكل منهما درجات مختلفة في تنوير القلب وتصفيته ، وسبب الاختلاف أسباب : (منها) الاختلاف بين أقسام النعم وأقسام البلاء (ومنها) اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذ في الشكر ، واختلاف الطاعة التي تفعل في كل منهما صعوبة وسهولة ، فربما كان بعض درجات الصبر أشد تنويراً ، وأكثر إصلاحاً للقلب من بعض درجات الشكر ، وربما كان الأمر بعكس ذلك في بعض آخر من درجاتهما ، فإن الأعمال والأحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة ، وباختلافها كثرة وقلة تختلف درجاتهما ، فمن الأمور والأحوال التي تندرج تحت الشكر حياء العبد من تنابع نعم الله عليه ، ومعرفة بتقصيره عن الشكر ، واعتدائه من قلة الشكر ، واعترافه بأن النعم ابتداءً من الله تعالى من غير استحقاقه لها ، وعلمه بأن الشكر أيضاً نعمة من نعمه ومواهبه ، وحسن تواضعه بالنعم والندل ، وقلة اعتراضه وحسن أدبه بين يدي المنعم ، وتلقي النعم بحسن القبول ، واستعظام صغيرها ،

وشكر الوسائط لقوله صلى الله عليه وآله : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » وقال السجادة عليه السلام : « أشكركم الله أشكركم للناس » وقال عليه السلام : (يقول الله تعالى لعبد من عباده يوم القيامة : « أشكرت فلانا » فيقول بل شكرتك يارب فيقول : « لم تشكرني إذ لم تشكرك ») وقال الصادق عليه السلام : « اشكر من انعم عليك ، وانعم على من شكرك » ، ولا ريب في أنه كلما ازدادت هذه الأحوال في الشكر وطال زمانه ازداد فضله ، وقد نقل أن رجلاً يهودى ابنة عم له وهي أيضاً تهواه ، فاتفق مزاجتهما ، فقال الرجل ليلة الزفاف لها : تعالي حتى نحبي هذه الليلة شكراً لله على ما جمعنا ، فقالت : نعم ، فصليا تلك الليلة باسرها ، ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه ، فلما كانت الليلة الثانية قالوا مثل ذلك فصليا طول الليل ، فيكذبا يفتلان في ثمانين سنة ، وبقيتا على تلك الحالة في ثمانين سنة في كل ليلة من دون رجوع لأحدهما إلى الآخر ، ومن دون اتفاق مضاجعة بينهما فضلا عن شيء آخر . ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل بمراتب من صبرهما على بلاء العزوبة لو لم يحصل بينهما الجمع والوصل .

تقديم

تفضيل الصبر على الشكر

اعلم أن الظاهر من بعض الأخبار أن الصبر أفضل وأكثر ثواباً من الشكر ، كما روي أنه يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أن نجزيك كما جزينا

هذا الشاكر فيقول نعم يا رب فيقول الله تعالى : « كلاً أنعمت عليه فشاكر ، وابتليتك فصبرت لضعفني عليك الأجر عليه » فيُعطى أضعاف جزاء الشاكرين ، وكفوله عليه السلام : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » ، وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر لأن المشبه به أعلى رتبة من المشبه ، وكقول الباقر عليه السلام : « مروءة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى أكثر من مروءة الإِعطاء » ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، وينبغي أن يرتكب في أمثال هذه الأخبار تقييدان (أحدهما) التقييد ببعض المراتب بأن يقال المراد أن بعض مراتب الصبر أفضل من بعض مراتب الشكر ، وهذا مما لا ريب فيه فإن من سلب اعز أولاده وابتلي بالفقر والمرض ومع ذلك صبر ولم يجزع فهو أفضل البتة ممن أُعطي مالا كثيراً فقال : شكراً لله الحمد لله ، من دون ابداء عمل آخر من الطاعات ، وليس المراد أن كل ما يسمى صبراً أفضل من كل درجة من درجات الشكر ، إذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاشتغال بالطاعة والعبادات وترك المماصي سنين كثيرة متتالية من دون فتور أفضل وأعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقت منه ، (وثانيهما) التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر ، فإن الجمهور لا يفهمون من حبس النفس عن الجزع عند الابتلاء ببليّة إلا الصبر ، ولا يلتفتون إلى أن هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيماً لله وهو عين الشكر ، وكذا لا يفهمون من اظهار التعميد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة إلا الشكر ، ولا يلتفتون إلى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران وهو الشكر بعينه .

(ومنها) :

الفسق

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيقي وعبادته ، وضد الطاعة وهي تمجيد المبدأ والتخضع له بإداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة ، وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي الطهارة والصلاة والذكر والدعاء وتلاوة القرآن والصوم والحج وزيارة النبي صل الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام والجهاد في سبيل الله وإداء المعروف الشامل للزكاة والخمس والصدقة المندوبة وغيرها ، والآخر اعني اداء المعروف بانفساه قد تقدم ، والجهاد في هذا الزمان ساقط ، فنشير الى بعض الأسرار والدقائق والآداب الباطنية المتعلقة بالبواقي في مقاصد وخاتمة ، وأما آدابها واحكامها وشرائطها الظاهرة فهي مذكورة في الفقهيات .

المفصل الأول

الطهارة - حقيقة الطهارة - ما ينبغي للمؤمن في الطهارة - ازالة الاوساخ - آداب الحمام - السر في ازالة الاوساخ .

اعلم ان الطهارة والنظافة أهم الأمور للعباد، إذ الطهارة الظاهرة وسيلة الى حصول الطهارة الباطنة، وما لم تحصل الاولى لم تحصل الثانية، ولذا ورد في مدحها ما ورد، قال الله سبحانه: **رَفِيفَهُ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** (١) وقال:

« مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ » (١)
 وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « بني الدين على النظافة » وقال صلى الله
 عليه وآله : « الطهور نصف الايمان » وقال صلى الله عليه وآله : « مفتاح
 الصلاة الطهور » وقال صلى الله عليه وآله : « بُئس للعبد القاذورة » وقال
 صلى الله عليه وآله : « من اتخذ ثوبا فلينظفه » وقال أمير المؤمنين عليه السلام:
 « التنظيف من الثياب يذهب الهم والحزن وهو طهور للصلاة » .

ثم للطهارة أربع مراتب : الاولى تطهير الظاهر من الاحداث والابخاث
 والفضلات ، الثانية تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات ، الثالثة
 تطهير القلب من مساوي الأخلاق ورذائلها ، الرابعة تطهير السر عما سوى
 الله تعالى وهي تطهير الأنبياء والصدّيقين ، والطهارة في كل مرتبة نصف العمل
 الذي فيها ، إذ الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله وعظمته ،
 وتحصل له المعرفة التامة والحب والانس ، ولا يمكن حصول ذلك ما لم يرتحل
 عنه ما سوى الله ، ولذلك قال الله تعالى : « قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ » (٢)
 فإن الله وغيره لا يجتمعان في قلب واحد « وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ
 قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ » (٣) فتطهير السر عما سوى الله نصف عمله ، والنصف الآخر
 شروق نور الحق فيه ، والغاية القصوى في عمل القلب عمارته بالأخلاق الحمودة ،
 والعقائد الحقة المشروعة ، ولا يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها من الأخلاق
 المندومة ، والعقائد الفاسدة ، فتطهيرها عنها أحد الشطرين ، والشرط الآخر
 تحليته بالفضائل والعقائد الحقة .

(١) المائدة الآية ٩ . (٢) الانعام الآية ٩١ .

(٣) الأحزاب الآية ٤ .

وأما عمل الجوارح فالمتصود منه عمارتها بالطاعات ، ولا يمكن ذلك ما لم يطهر عن المعاصي والمناهي ، فهذا التطهير نصف عملها ، ونصفه الآخر عمارتها بالطاعات ، وقس على ذلك الحال في المرتبة الاولى ، والى ذلك الاشارة بقول النبي صلى الله عليه وآله : « الطهور نصف الايمان » فإن المراد أن تطهير الظاهر والجوارح والقلب والسر من النجاسات والمعاصي ورذائل الاخلاق وما سوى الله نصف الايمان ، ونصفه الآخر عمارتها بالنظافة والطاعات ومعالي الاخلاق والاستغراق في شهود جمال الحق وجلاله ، ولا تظن أن مراده صلى الله عليه وآله أن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات بافاضة الماء نصف الايمان مع تلوث الجوارح باخبات المعاصي ، وتنجس القلب باقذار مساوي الاخلاق وتشوش السر وتكدره بما سوى الله ، فالمراد التطهير في المراتب الاربع التي هي من مقامات الدين وهي مرتبة يتوقف بعضها على بعض ، ولا يمكن أن ينال العبد ما هو الفوق ما لم يتجاوز ما دونه ، فلا يصل الى طهارة السر مما سوى الله وعمارته بمعرفة الله وانكشاف جلاله وعظمته ما لم يفرغ عن طهارة القلب عن الاخلاق المذمومة ، وتحليته بالملكات المحمودة ، ولا يصل الى ذلك ما لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المعاصي وعمارتها بالطاعات ، ولا يصل الى ذلك ما لم يفرغ عن ازالة الخبث والحدث عن الظاهر وعمارته بالنظافة والنزاهة .

فصل

حقيقة الطهارة

طهارة الظاهر إما عن الخبث أو عن الحدث أو عن فضلات البدن ، وما يتعلق بها من الأحكام الظاهرة الواجبة والمحرمة والمندوبة والمكروهة مستقصاة في كتب الفقه .

وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وإزالته عند التعخلي لقضاء الحاجة أن يتذكر عنده نقصه وحاجته ، وخبث باطنه ، ونخسة حاله ، وما يشتمل عليه من الأقدار ، وكونه حامل النجاسات ، ويتذكر باستراحة نفسه عند إخراجها ، وسكون قلبه عن دنسها ، وفراغه للعبادات والمناجات أن الأخلاق الذميمة التي في باطنها نجاسات باطنة ، وأقدار كامنة ، لتستريح نفسها عند إخراجها ، ويطمئن قلبه من إزالة دنسها ، وعند إخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة ، ويتأهل للقرب والوصول إلى حريم العزة ، فكما يسعى في إخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة في الدنيا فينبغي أن يجتهد أيضاً في إخراج الأقدار الباطنة ، والنجاسات الداخلة الغائضة في الأعمال المفسدة على الإطلاق لتستريح الروح والبدن في الدنيا والآخرة أبد الآباد ، قال الصادق عليه السلام : « إنما سمي المستراح مستراحاً لاستراحة النفس من أثقال النجاسات ، واستفراغ الأقدار والكشافات فيها ، والمؤمن يعتبر عندها إن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته فيستريح بالعدل عنها وتركها ، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها ، ويستنكف عن جمعها واخذها استنكافه عن

النجاسة والغائط والقذر ، ويتفكر في نفسه المكرومة في حال كيف نصير ذليلة في حال ، ويعلم أن التحسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين ، فإن الراحة في هوان الدنيا ، والفراغ من التمتع بها ، وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها ، ويفرّ من الذنوب ، ويفتح باب التواضع والندم والحياء ، ويجهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه طلباً لحسن المكآب ، وطيب الزاني ، ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والسكف عن الشهوات الى أن يتصل بآمان الله تعالى في دار القرار ، ويدوق طعم رضاه فإن المعول على ذلك ، وما عساه فلا شيء (١) ، وينبغي أن يتأمل في أن ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كانت يشتميه ، ويحرص في طلبه من لذائذ الأطعمة ، وكلما كانت ألذ كانت عقوبته أشد ، فما كانت عاقبة ذلك فليحذر من أن يأخذه من غير حيلة فيعذب أبداً الآباد لأجله .

فصل

ما ينبغي للمؤمن في الطهارة

ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث أن تكليفه بها للدخول في العبادات والمناجات مع خالق البريات إنما هو ليكون أعضائه التي أمر بفصلها مباشرة للامور الدنيوية ، منهكة في الكدورات

(١) الحديث المذكور في مصباح الشريعة الباب التاسع . وفي مستدرک الوسائل المجلد الأول كتاب الطهارة ص ٣٧ - ٣٨ . وفي الموضوعين اختلاف كثير عما ذكر هنا فصحيحناه كما كان في الموضوعين .

الطبيعية ، فخرجت عن أهلية القيام بين يدي الله سبحانه ، والاشتغال بعبادته ، فالأمر بغسلها لتتطهر عن هذه الكدورات ، فيتأهل للمناجاة . ولا ريب في أن مجرد غسلها لا يطهرها عن الأدناس الدنيوية والكدورات الجسمانية ما لم يُطهر قلبه عن الأخلاق الذميمة ، والعلائق الدنيوية ، وما لم يعزم على الرجوع الى الله ، والاتقطاع عن الدنيا وشهواتها ، فينبغي أن يكون قلبه عند الطهارة مطهراً عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات ، جازماً على فطام الأعضاء التي هي اتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا لتسري نوريته وطهارته الى تلك الأعضاء ، ثم أمر في الوضوء أولاً بغسل الوجه الذي هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا ليتوجه ويقبل بوجه القلب على الله وهو خال من تلك الأدناس ، وثانياً بغسل اليدين لمباشرتهما أكثر الامور الدنيوية والمشتبهات الطبيعية المانعة من الإقبال على الآخرة ، وثالثاً بمسح الرجلين للتوصل بهما الى أكثر المطالب الدنيوية ، والمقاصد الطبيعية ، فأمر بتطهير جميعها ليسوغ له الدخول بها في العبادات والإقبال عليها ، وأمر في الغسل بغسل جميع البشرية لأن أدنى حالات الانسان وأشدّها تعلّقاً بالملكات الشهوية حالة الوقاع ، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « تحت كل شعرة جنابة » ، فحيث كان جميع بدنه بعيداً عن المرتبة العلية ، منغمساً في الذات الدنية كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية ليتأهل لمناجاة الجهة الشريفة ، والدخول في العبادة المنيفة ، وأمر في التيمم بمسح الأعضاء بالتراب عند تعذر غسلها بالماء ، وضماً لتلك الأعضاء الرئيسة ، وهضماً لها بملاقاها أثر التربة الخسيسة .

ثم لما كان القلب هو الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والأعضاء والمستخدم

لها في تلك الأمور المبعّدة عن جنابه تعالى وهو الموضع لنظر الله سبحانه كما قال صلى الله عليه وآله : « إن الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم » ، فله من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكل ، فيكون الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل ، وإذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة ، وتحليته بالأوصاف الجميلة لرسوخه على حب الدنيا الدنية فليقمه في مقام الهضم والازراء ، ويسقه بسياط الذل والإغضاء ، كما أنه عند تعذر غسل الأعضاء بالماء يهضمها ويندلمها بالوضع على التراب عسى أن يرحم ربه تواضعه وانكساره ، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع فإنه عند المنكسرة قلوبهم كما ورد في الأثر ، فترق من هذه الاشارات ونحوها الى ما يوجب لك الإقبال ويتدارك سالف الإهمال .

ثم ما ذكر من السرّ في الطهارة يمكن استنباطه مع الزيادة من كلام مولانا الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة حيث قال : « إذا أردت الطهارة والوضوء فتقدّم الى الماء تقدّمك الى رحمة الله فإن الله تعالى قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ، ودليلا الى بساط خدمته ، وكما أن رحمة الله تطهر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لاغيره ، قال الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » (١) وقال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » (٢) ، فكما أحيا به كل شيء من نعيم الدنيا كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب بالطاعات ، وتفكر في صفاء الماء ورقته ، وطهره وبركته ، ولطيف امتزاجه بكل شيء ، واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك

الله بتطهيرها ، وتعبدك بأدائها في فرائضه وسنته ، فان نحت كل واحدة منها فوائد كثيرة فاذا استعملتها بالحريمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب ، ثم عاشر خلق الله تعالى كإمتزاج الماء بالأشياء يؤدي كل شيء حقه ، ولا يتغير عن معناه معتبراً لقول الرسول صلى الله عليه وآله مثل : « المؤمن الخالص كمثل الماء ، وتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين انزله من السماء وسماه طهوراً ، وطهر قلبك بالقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء » (١) .

ومن الأسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الأعضاء بالتطهير في الوضوء ما أشار اليه مولانا الرضا عليه السلام بقوله : « إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه ، مطيعاً له فيما أمره ، نقياً من الأذناس والنجاسة مع ما فيه من ذهاب الكسل ، وطرده النعاس ، وتركه الفؤاد للقيام بين يدي الجبار ، وإنما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين لأن العبد إذا قام بين يدي الجبار قائماً ينكشف من جوارحه ، ويظهر ما يجب فيه الوضوء ، وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع ، وبيده يسأل ويرغب ويرهب وينبتل ، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده ، ورجليه يقوم ويقعد ، وأمره بالغسل من الجنابة دون الخلاء لأن الجنابة من نفس الانسان وهو شيء يخرج من جميع جسده ، والخلاء ليس هو من نفس الانسان إنما هو غداء يدخل من باب ويخرج من باب » (٢) .

(١) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة الباب العاشر . وعلى

المستدرک المجلد الأول ، كتاب الطهارة ص ٥١ - ٥٢ .

(٢) هذه الرواية نقلها العلامة « المجاسي » قدس سره في البحار المجلد

١٨ . باب على الوضوء وثوابه وعقاب تركه ص ٥٦ وعن العيون والعلل —

فصل

ازالة الاوساخ

ينبغي لكل مؤمن أن يظهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه ، كشعر الرأس بالخلق ، وشعر الأنف والشارب وما طال من اللحية بالقبض ، وشعر الإبط والعانة وسائر الأعضاء بالنورة ، وكأظفار اليدين والرجلين بالقلم ، وما يجتمع من الوسخ والقمل في شعر الرأس واللحية بالغسل والتسريح بالمشط ، وما يجتمع من الوسخ في معاطف الاذنين بالمسح ومثله ، وما يجتمع منه على الاسنان وأطراف اللسان بالسواك والمضمضة ، وما يجتمع في الأنف من الرطوبات الملتصقة بالاستنشاق وما يجتمع من الوسخ تحت الأظفار بالقلم والغسل ، وما يجتمع منه في رؤس الأنامل وفي معاطف ظهورها عقيب أكل الطعام بالغسل ، وما يجتمع من الدرن على جميع بدنه ، وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول في الحمام .

لشيخ المحدثين مولانا [الصدوق] رضوان الله عليه ولم أعتز عليها إلا في الموضع المذكور من البحار .

ولا يخفى أن ما نقله العلامة { المجلسي } قدس الله روحه في الموضع المذكور فيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ { جامع السعادات } { الحظيعة والمطبوعة بحيث لا يمكن تصحيح الرواية إلا بنقلها من البحار وذكرها في هامش الكتاب . وذلك غير ممكن لضيق المقام فلا أجله تركنا تصحيحها لعل القاري الكريم يقف على مصدر آخر لها ، فمن أراد الاطلاع على الرواية فعليه بمراجعة البحار في الموضع المذكور .

تذكرة

آداب الحمام

ينبغي لمن يدخل الحمام أن يتذكر بجمارته حرّ النار، ويقدر نفسه محبوساً في البيت ساعة ، ويقيسه الى جهنم ، ويستعين بالله منها ، قال الصادق عليه السلام : « فاذا دخلت البيت الثالث فقل نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة ، وتردّها الى وقت خروجك من البيت الحار » ، وقال امير المؤمنين عليه السلام : « نعم البيت الحمام يذهب بالدرن وتذكر فيه النار » ، وفيه اشارة الى أنه ينبغي للعاقل ألا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة فانها مقره ومستقره ، فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرها شبرة وموعظة ، فإن المرء ينظر في كل شيء بحسب همته ، فالبرزار إذا دخل داراً معمورة مفروشة ينظر الى الفرش ويتأمل في قيمتها ، والحائك إذا دخلها ينظر الى الثياب ويتأمل في كيفية نسجها ، والنجار إذا دخلها ينظر الى أبوابها وشبابيكها ويتأمل في كيفية نجرتها وتركبها ، والبناؤون إذا دخلها ينظر الى الخيطان والسقف وكيفية بنائها وإحكامها واستقامتها ، فكذلك سالك طريق الآخرة لا ينظر الى شيء إلا وتكون له موعظة وعبرة من الآخرة ، فإن نظر الى ظلمة تذكر ظلمة اللحد ، فإن نظر الى نار تذكر نار جهنم ، وإن نظر الى حية تذكر أفاعي جهنم ، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور ، وإن نظر الى صورة قبيحة تذكر صورة المنكبين والزبانية ، وإن رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة ، وإن سمع كلمة ردّ أو قبول تذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الردّ والقبول ، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعم الجنة الى غير ذلك .



السرف في إزالة الأوساخ

السرف في إزالة الفضلات المذكورة عن البدن ظاهر فإنها توجب تنوير القلب ، والشرح الصدر ، وطرود الشيطان إذ هي كشافات مانعة عن النورية والتجرد ، فتشتمل منها الملائكة ، ويرغب اليها الشياطين ، ومن تأمل في الأحكام والآداب التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكانت له بصيرة ناقدة يعلم أن شيئاً منها لا يخلو عن حكمة ، حتى أن ما صدر عنه في الآداب والحركات والأفعال والأقوال من ترتيب خاص ، أو تخصيص بعدد معين ، أو ابتداء من موضع خاص ، أو بواحد معين من الأشياء المتماثلة يتضمن حكماً أو حكمة البتة ، مثال ذلك أنه صلى الله عليه وآله كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً ، وفي عينه اليسرى اثنين ، والسرف في هذا الترتيب وهذا التخصيص أن اليمنى أشرف العينين فبدأ بها ، وتفاوتته بين العينين لتكون الجملة وترأ ، فإن للوتر فضلاً على الزوج لأن الله وتر يحب الوتر فلا ينبغي أن يخلف فعل العبد عن مناسبة لوصف من أوصاف الرب ، وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر لأن اليسرى حينئذ لا تخصها إلا واحدة ، والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجفان بالسكحل ، وإنما خصص اليمنى بالزيادة لأن التفضيل لا بد منه للإيثار واليمن أفضل فهو بالزيادة أحق ، وإنما اقتصر على الاثنين لليسرى مع كونه زوجاً إذ الزوجية في أحدهما لازمة ضرورية ، إذ لو جعل لكل واحدة وترأ لكان المجموع زوجاً ، إذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعاية الإيثار في مجموع

الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد . مثال آخر ، روى الجمهور في تسليم الأظفار أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يبدأ عند تسليم أظفاره الشريفة بمسبحة اليمنى ، ويختم بإبهام اليمنى بأن يبتدىء من مسبحتها الى خنصرها ، ثم يبتدىء من خنصر اليسرى الى إبهام اليمنى ، وفي طريقنا روايتان احدهما أن يبدأ بخنصر اليمنى ، ويختم بخنصر اليسرى ، واخرها بعكس ذلك وهي أشهر ، فالسرى على رواية الجمهور كما قيل أن اليد اليمنى أشرف من اليسرى فيبتدىء بها ، ثم على اليمنى خمسة اصابع والمسبحة أشرفها فيبتدىء بها ، ثم ينبغي أن يبتدىء بما على يمينها لكون اليمنى أشرف ، ولذا استحب في الشرع وضع الطهور وغيره على اليمنى ، ولا ريب في أنه اذا وضعت الكف على الأرض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى ، ووضع ظهر اليد على الأرض وان اقتضى كون الإبهام هو اليمنى إلا أن الاعتبار الأول أولى اذا اليد اذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة الى جهة الأرض لأن جهة حركة اليد اليمنى الى جهة اليسار ، واليسرى الى جهة اليمين ، واستتمام حركة كل منهما في جهة يجعل الكف على الأرض وظهرها عالياً ، واذا كانت الكف مائلة الى جهة الأرض فاعتبار ما يقتضيه الطبع أولى ، فتكون يمين المسبحة هي الوسطى ، ثم اذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة فيقتضى ترتيب الدور الذهاب من يمين المسبحة الى أن يعود الى المسبحة فتقع البداءة بخنصر اليسرى واختم بإبهامها ، ويبقى إبهام اليمنى ، وانما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها ، وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف ، فإن ذلك لا يقتضيه الطبع .

هذا ، وأما السرى على الرواية الاولى من طريقنا فكأنه اعتبار الأصابع العشرة

في حكم صف واحد ثابت على الأرض ، والابتداء باليمين فاكثفي بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها ، وأما الرواية الثانية فلعل السرف فيها تحصيل التيامن في كل اصبع بعد الاولى مع الترتيب فيها ، ووضع اليدين على ما يقتضيه الطبع ، هذا وأما اصابع الرجل فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء والترتيب فيها فينبغي اعتبار أحد الطريقتين المرويين عندنا فيها ، ولعل اعتبار الأولى لأظهرية سرها أولى ، وينبغي أن يكون تقليم اظفارها بعد تقليم اظفار اليدين إن وقع في وقت واحد ، إذ اليد أشرف من الرجل ، وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات فإنه لا يتخلو شيء منها على سر حكيم وإن كانت عقولنا قاصرة عن ادراك أكثرها .

المفصل الثاني

الصلاة - حقيقة الصلاة - حضور القلب - دفع اشكال - شرائط الصلاة - طريق تحصيل المعاني الباطنة - اسرار الصلاة - الوقت - آداب الصلاة - آداب المصلي - الاستقبال - القيام - التكبيرات - النية - تكبيرة الاحرام - دعاء الاستفتاح - الاستعاذة - الركوع - السجود - التشهد - التسليم - افاضة الأنوار على المصلي على قدر صفائه - ما ينبغي في إمام الجماعة - ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين - ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات .

إعلم أن الصلاة معجون سمادي ، وتركيب إلهي ركبت من اجزاء كثيرة مختلفة متفاوتة في الفضل والاهتمام بها ، فبعضها بمنزلة الروح ، وبعضها بمنزلة الأعضاء الرئيسة ، وبعضها بمنزلة سائر الأعضاء .

وتوضيح ذلك أن الانسان مثلاً لما كان حقيقة مركبة من اجزاء معينة فهو لا يكون انساناً موجوداً كاملاً إلا بمعنى باطن هو الروح ، وأعضاء محدودة بعضها في جوفه وبعضها في ظاهره ، وهذه الأعضاء متفاوتة المراتب إذ بعضها مما ينعدم الانسان بعده وتزول الحياة بزواله كالقلب والدماغ والكبد والمعدة وأمثالها ، وبعضها وإن لم ينعدم بعده أصل الحياة إلا أنه ترتفع به تمامية الانسان ويصير ناقصاً كاليد والرجل والعين وأمثالها ، وبعضها يفوت بفواته الحسن كالحاجبين واللحية والاهداب وأمثالها ، وبعضها يفوت بفواته كمال الحسن لا أصله كاستقواس الحاجبين ، وتناسب الخلقة ، وسواد شعر اللحية ، وامتزاج البياض بالحمرة وأمثال ذلك ، وكذلك الصلاة حقيقة مركبة وصورة صورها الشرع من أمور متفاوتة وتعبدنا باكتسابها ، فروحها النية والقربة وحضور القلب والاخلاص ، وأعمالها الاركانية من تكبيرة الاحرام والركوع والسجود والقيام بمنزلة الاعضاء الرئيسة ، ففوت بفواتها الصلاة على الاطلاق ، ولا يمكن تحقيقها وصحتها بدونها ، وسائر الأعمال الواجبة من الفاتحة والسورة والاذكار الركوع والسجدين والطمأنينة فيهما وفي رفع الرأس عنهما والتشهد والتسليم وغير ذلك من الأعمال الواجبة التي تبطل الصلاة بتركها عمداً لا سهواً بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك مما قد تفوت الحياة بزوالها وقد لا تفوت به ، والأعمال المسنونة ، والهيئات المندوبة ، والآداب المستحبة من القنوت ، ودعاء الافتتاح ، وغير تكبيرة الاحرام من التكبيرات والتعوذ ، والزائد عن قدر الواجب في التشهد والتسليم من الازكار ، وغير ذلك مما لا تبطل الصلاة بتركها عمداً أو سهواً ولكن تخرج بهما عن الحسن والكمال وزيادة الأجر والثواب ، فهي بمنزلة الحاجبين واستقواسهما واللحية

والأهداب وتناسب الخلقة وغير ذلك مما يفوت بفوات بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها وبصير الشخص بسببه مشوه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه وإذا عرفت ذلك :

فاعلم يا حبيبي أن صلاتك قرينة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين إليهم ، وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد إليك في يوم العرض الأكبر ، فإليك الخيرة في تحسين صورتها أو قبيحها ، فمن أذاها على النحو المأمور به بأعمالها الواجبة والمندوبة وشرائطها الظاهرة والباطنة مع الاخلاص وحضور القلب كان كمن أهدى عبداً صحيحاً سويّاً شاباً جميلاً عاقلاً كاملاً إلى ملك من الملوك ، ومن اقتصر على أعمالها الظاهرة وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص كان كمن أهدى عبداً ميتاً بلا روح إلى ملك من الملوك ، ومن ترك عمداً شيئاً من واجباته كان كمن أهدى عبداً مقتولاً إليه ، ومن اقتصر على أقل ما يجزي كان كمن أهدى إليه عبد حياً أعى ، أو أصم ، أو أبكم ، أو مقطوع الأطراف ، أو هرماً ، أو قبيح المنظر ، أو مجروح الأعضاء ، أو أمثال ذلك ، فتنبه أيها الغافل ، وتأمل في أنك إذا أهديت تحفة إلى ملك من ملوك الدنيا بل إلى من دونه بمراتب كثيرة من الأمراء والحكام كيف تجتهد وتسعى في تجويدها وتحسينها ليقبلها ، فما بالك أيها المفرور تغفل وتتساهل من تحسين هديتك وتحفتك إلى ملك الملوك الذي منه بدؤك وإلى عودك ، وقد ورد أن كل صلاة لا يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الأول على صاحبها يوم العرض الأكبر تقول : « ضيعك الله كما ضيعتني »

فصل

حقيقة الصلاة

لا بحث لنا عما يتعلق بظاهرها من الأجزاء والشرائط والأحكام إذ بيانها على عهدة الفقه فلنشر إلى المعاني الباطنة التي بها تتم حياتها ، وإلى الأسرار والآداب الخفية الباطنة المتعلقة بأجزائها وشرائطها الظاهرة لتكون ملحوظة للعبد عند فعلها .

فنقول المعاني الباطنة التي هي روح الصلاة وحقيقتها سبعة : (الأول) الإخلاص والقربة وخلوها عن شوائب الرياء ، وقد تقدم تفصيل القول في ذلك (الثاني) حضور القلب وهو أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به حتى يكون العلم مقروناً بما يفعله وما يقوله من غير جريان الفكر في غيرهما ، فهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلة عنه فقد حصل حضور القلب ، ثم حضور القلب قد يعتبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه ، وقد يعبر عنه بالخشوع بالقلب ، فإن الخشوع في الصلاة خشوعان : خشوع بالقلب وهو أن يتفرغ لجمع الهمة لها ، والإعراض عما سواها بحيث لا يكون في قلبه غير المعبود ، وخشوع بالجوارح وهو أن يغض بصره ، ولا يلمفت ، ولا يعبث ، ولا يتشاءب ، ولا يتمطى ، ولا يفرقع أصابعه ، وبالجملة لا يتحرك لغير الصلاة ، ولا يفعل شيئاً من المكروهات ، وربما عُبر عن ذلك بالخضوع (الثالث) التفهم لمعنى الكلام وهو أس وراء حضور القلب فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ، ولا يكون حاضراً مع معناه ،

فالمراد بالتفهم هو اشتغال القلب على العلم بمعنى اللفظ وهذا مقام يتفاوت فيه الناس ، إذ ليس يشترك الناس في تفهّم معاني القرآن والتسبيحات ، فكم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ولا يفهمها غيره ، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم أموراً تمنع تلك الأمور عن الفحشاء والمنكر لا محالة (الرابع) التعظيم وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم إذ الرجل ربما يخاطب غيره ، وهو حاضر القلب فيه ، ومتفهم لمعناه ، ولا يكون معظماً له (الخامس) الهيبة وهي زائدة على التعظيم لأنها عبارة عن خوف منشأ التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً ، ثم كل خوف لا يسمى مهابة بل الهيبة خوف مصدره الإجلال (السادس) الرجاء ولا ريب في كونه زائداً عما ذكر ، فكم من رجل يعظم ملكاً من الملوك وبها به ويخاف سطوته ولا يرجو بره واحسانه ، والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله كما أنه خائف بتقصيره عقابه (السابع) الحياء ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء لنصورها من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

فصل

حضور القلب

إعلم أن كون الأمور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها والمقصود الأصلي منها أمر ظاهر ، إذ الغرض الأصلي من العبادات والطاعات هي تصفية النفس وتصقيها ، فكل عمل يكون أشد تأثيراً فيهما يكون أفضل ولا ريب في أن

المتنفي لصفاء النفس وتجردها وتصقيها عن الكدورات من الصلاة ليس إلا الأمور المذكورة ، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلة فيها ، وكيف لا يكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولا يتوقف كمال الصلاة عليه مع أن المصلي في صلاته ودعائه مناج ربه ، ولا شك أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وأيضاً الكلام إعراب عما في الضمير ولا يتأتى الإعراب عما في الضمير إلا بحضور القلب ، فاي سؤال في قوله : « إهدنا الصراط المستقيم » إذا كان القلب غافلاً ، ولا شك أيضاً أن المقصود من القراءة والاذكار الثناء والحمد والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله تعالى فإذا كان قلب العبد محجوباً عنه بحجاب الغفلة ولا يراه ولا يشاهده ، بل كان غافلاً عن المخاطب ويحرك لسانه بحكم العادة ، فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقي القلب ، وتجديد ذكر الله ، ورسوخ عقد الإيمان بها ، هذا حكم القراءة والذكر ، وأما الركوع والسجود فلما قصد منهما التعظيم قطعاً ، والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة ، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس ، وليس فيه من المشقة ما يُقصد الامتنان به كما في أفعال الحج ، وإعطاء المال في الزكاة ، وإمساك النفس عن الشهوات في الصوم ، فكيف يجعل مجرد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها عماد الدين ، والفاصل بين الكفر والإسلام ، وتقدم على سائر العبادات ، ويجب القتل بسبب تركها على الخصوص ، ولكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة ، تظاهرت الآيات والأخبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح أهلها ، وعلى ذم الغفلة والتفكر في أمور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة ، وقد تظاهرت الأخبار أيضاً بأن الأنبياء والأوصياء وأكابر الأولياء كانوا عند

اشتغلهم في الصلاة في غاية الإقبال والخشوع والخوف ، قال الله سبحانه :
« الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » (١) ، وقال : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » (٢) ،
والغفلة تضاد الذكر ، فمن كان غافلا في صلاته لا يكون مقبلا للصلاة لذكره ،
وقال : « وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ » (٣) ، وقال : « قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » (٤) ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلين
لأنهم سهوا عنها وتركوها ، وقال : « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى
حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » (٥) قيل المراد سكارى من كثرة الهم ، وقيل
من حب الدنيا ، ولو حمل على ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة ،
وقال حتى تعلموا ما تقولون ، وكمن مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول
في صلاته ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما
نفسه بشيء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وقال صلى الله عليه وآله :
« إِذَا صَلَّيْتَ صَلَاةً فَرِيضَةً فَصَلْ لَوْ قَبْلَهَا صَلَاةً مَوْدَعٍ يَخَافُ إِلَّا يَعُودَ فِيهَا » ،
وقال صلى الله عليه وآله : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى صَلَاةٍ لَا يَحْضُرُ الرَّجُلُ فِيهَا قَلْبَهُ
مَعَ بَدَنِهِ » ، وقال صلى الله عليه وآله : « إِنَّمَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ ، وَأَمْرٌ بِالْحَجِّ
وَالطَّوَافِ ، وَاشْعُرْتَ الْمَنَاسِكَ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِكَ لِلْمَذْكُورِ
الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ وَالْمُبْتَغَى عِظَمَةٌ وَلَا هَيْبَةٌ فَمَا قِيَمَةُ ذِكْرِكَ . »

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال الله تبارك وتعالى : إِنَّمَا أَقْبَلَ
الصَّلَاةَ مَنْ تَوَاضَعَ لِعَظَمَتِي ، وَبَكَفَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ مِنْ أَجَلِي ، وَيَقْطَعُ نَهَارَهُ

(١) المؤمنون الآية ٢ . (٢) طه الآية ١٤ .

(٣) الأعراف الآية ٢٠٤ . (٤) الماعون الآية ٤ - ٥ .

(٥) النساء الآية ٤٦ .

بذكري ، ولا يتعاطم على خلقي ، ويطعم الجائع ، ويكسو العاري ، ويرحم المصاب ، ويؤوي القريب ، فذلك يشرف نوره مثل الشمس ، أجمل له في الظلمات نوراً ، وفي الجهالة علماً ، أكلامه بعزتي ، واستحفظه بملائكتي ، يدعوني فألبيه ، ويسألني فأعطيه ، فمثل ذلك عندي كمثل جنات الفردوس ، لا تيبس ثمارها ، ولا تتغير عن حالها « (١) » ، وفي اخبار موسى : « يا موسى اذا ذكرتني فاذكروني وأنت تبغض اعضاءك » ، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً واذا ذكرتني فاجمل لسانك من وراء قلبك . واذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل وناجني بقلب ورجل . ولسان صادق . وأوحى اليه عليه السلام « قل لعصاة أمتك لا تذكروني فاني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته . واذا ذكروني ذكرتهم باللعنة » . وفي بعض الأحاديث القدسية : « ليس كل مصل أتقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ، ولم يتكبر على عبادي ، وأطعم الفقير الجائع لوجهي » ، وقال امير المؤمنين عليه السلام : « طوبى لمن أخلاص لله العبادة والدعاء ، ولم يشغل قلبه بما تراه عيناه ، ولم ينس ذكر الله بما تسمع اذناه ، ولم يحزن صدره بما أعطي غيره » ، وقال الصادق عليه السلام : « لا تجتمع الرغبة والرغبة في قلب إلا وجبت له الجنة » ، فاذا صليت فأقبل بقلبك على الله عز وجل فانه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله عز وجل في صلاته ودعائه إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين وأيده مع مودتهم إياه بالجنة » ، وقال الباقر عليه السلام : « إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وربعا وخمسها

(١) الحديث مروي في { البحار } المجلد الثامن عشر . باب آداب الصلاة

ص ١٩٦ عن { المحاسن } وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ { جامع السماعات } فصحيحناه على { البحار } الموضع المذكور .

فما يرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه ، وإنما أمروا بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من
 الفريضة » وروى أن إبراهيم الخليل كان يسمع تأوّهه ، على حد ميل وكانت
 يسمع له في صلاته أزيز (١) كأزيز المِرْجَل (٢) ، وكذلك كان يسمع من صدر
 سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله مثل ذلك ، وقال بعض أزواجه : « كان
 النبي صلى الله عليه وآله يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم
 نعرفه » ، وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا أخذ في الوضوء يتغير وجهه من
 خيفة الله ، وكان عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون فقيسل له
 مالك يا أمير المؤمنين فيقول : « جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض
 والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » ، وروي أنه وقع
 نصل في رجله عليه السلام فلم يمكن أحداً من إخراجها فقالت فاطمة عليها السلام :
 « أخرجوه في حال صلاته فإنه لا يحسن حينئذ بما يجري عليه » فأخرج وهو في
 صلاته فلم يحسن به أصلاً » ، وكانت الصديقة فاطمة عليها السلام تنهج (٣) في
 الصلاة من خيفة الله ، وكان الحسن بن علي عليه السلام إذا فرغ من وضوئه
 تغير لونه فقيل له في ذلك فقال : « حق على من أراد أن يدخل على ذي العرش
 أن يتغير لونه » ، وكان الإمام علي بن الحسين عليه السلام إذا توضأ اصفر لونه
 فيقال له ما هذا الذي يعثريك عند الوضوء فيقول : « إني أريد الوقوف بين
 يدي ملك عظيم » ، وقال أبو حمزة الثمالي رأيت بصلي فسقط رداؤه عن منكبته
 فتركه حتى فرغ من صلاته فسأله عن ذلك فقال : « ويحك أتدري بين يدي من
 كنت ، شغلني والله ذلك عن هذا أعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد إلا ما أقبل

(١) الأزيز شدة غليان القدر . (٢) المِرْجَل وزان منبر القدر

من الحجارة . (٣) النهج بالتحريك هو تتابع النفَس .

عليه « فقلت له : يا بن رسول الله هل كنّا اذا » قال : « كلا ان الله يتم ذلك بالنوافل » ، وروي أنه عليه السلام اذا قام الى الصلاة تغير لونه ، واذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً ، وروي أنه عليه السلام كان اذا قام الى الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه ، وسئل مولانا الصادق عن حالة لحقته في الصلاة حتى خرّ مغشياً عليه فقال : « ما زلت اكرر آيات القرآن حتى بلغت الى حال كأني سمعتها مشافهة ممن أنزلها » (١) ، قيل وكان لسان الامام عليه السلام في تلك الحال كشجرة طور حين قالت : « اني أنا الله » ، وسئل بعض الاكابر عن صلاته فقال : « اذا جاءت الصلاة اسبغت الوضوء ، وأتيت الموضع الذي اريد الصلاة فيه ، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي ، ثم أقوم الى الصلاة فأجعل الكعبة بين حاجبي ، والصراط تحت قدمي ، والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، وملك الموت ورأيي ، وأظنها آخر صلاتي ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف ، واكبر تكبيراً يتحنن ، وأقرأ القرآن بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع ، وأسجد سجوداً بتخشع ، وأقعد على الورك اليسرى وأفرش ظهر قدميها ، وانصب القدم اليمنى على الابهام وأتبعها الاخلاص ، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا » .

ثم على ما عرفت من كيفية صلاة الانبياء والاولياء مع مشاهدة كيفية صلاتك وصلاة الناس تعلم ان الناس ينقسمون في صلاتهم الى غافل يتم صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة ، والى من يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها ، وهذا يختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور والغفلة وكثرتها وزيادة

(١) صحيحنا الأحاديث الواردة في الصلاة على { البحار } المجلد ١٨ .

أحدهما على الآخر فله مراتب غير متناهية ، وإلى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة ، بل يكون حاضر القلب في جميع صلاته ، وربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما يجري بين يديه ، كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بأخراج النصل من رجله الشريفة ، وبعضهم حضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه وبساره ، وكان وجيب الخليل يسمع على ميلين ، وكان جماعة تصفرّ وجوههم ، وترتد فرائصهم عند الصلاة ، وكل ذلك غير مستبعد ، فإن أضافه مشاهدة في هم الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع ضعفهم وعجزهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم ، حتى يدخل الرجل على ملك أو وزير ويحدثه بهم ويخرج ولو سئل عن كان على حواليه وعن ثوب الملك لكان غير قادر على الإخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله « وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا » (١) فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه ، فإن موضع نظر الله القلوب دون ظاهر الحركات ، ولذا قال بعض الصحابة : « يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمانينة والهدوء ، ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها ، فالملحوظ حال القلب لا حال الشخص ، ولذا قيل : (من صفات القلوب تصاغ الصور في دار الآخرة ولا ينبور إلا من أتى الله بقلب سليم » (٢)



دفع اشكال

(إن قيل) المستفاد من الظواهر المذكورة أن صلاة الغافل ليست مقبولة إلا بقدر ما أقبل عليه منها ، والفقهاء لم يشترطوا إلا حضور القلب عند النية والتكبير فكيف التوفيق (قلنا) فرق بين القبول والأجزاء فإن المقبول من العبادة ما يقرب العبد الى الله ، ويترتب عليه الثواب في الآخرة ، والمجزى منها ما يسقط التكليف عن العبد وإن لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه الى الله ، والناس مختلفون في تحمل التكليف ، فإن التكليف إنما هو بقدر الوسم والطاقة فلا يمكن أن يُكلّف الجميع باحضار القلب في جميع الصلاة ، إذ لا يقدر على ذلك إلا الأقلون ، وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مردّ له إلا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم ولو في اللحظة الواحدة ، وأولى اللحظات به لحظة التكبير والتوجه فاقصر على التكليف بذلك ، ونحن مع ذلك نرجو ألا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكليّة ، فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً ، واحضر القلب لحظة ، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله ولكن له أجرٌ ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ، والحاصل أن الاقبال والحضور هو روح الصلاة ، وأن أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير فالتقصان منه هلاك ، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في اجزاء الصلاة ، وكل من حي لا حراك فيه قريب من الميت ، فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير حي لا حراك فيه .

فصل

شرائط الصلاة

اعلم أن للمعاني الباطنة المذكورة اسباباً لا تتحقق بدونها (أما حضور القلب) فسببه الاهتمام (فإن قلت) كل استد تابع لهما فلا يحضر إلا فيما يهيمه ، ومهما أهمه أمر حضر فيه قلبه شاء أو لم يشأ فهو مجبول عليه مسخر فيه ، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن منعطلا ، بل كان حاضراً فيما يهيمه من أمور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لحضار القلب في الصلاة إلا بصرف الهممة إليها ، والهممة لا تنصرف إليها ما لم يتيقن أن الآخرة خير وأبقى ، وأن الصلاة وسيلة إليها ، وإذا اضيف إلى هذا العلم بمحقارة الدنيا ومهايتها حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة ، ولكون الباعث والسبب لحضار القلب في أمر إيماني هو الاهتمام والاعتناء بشأنه ، ترى قلبك يحضر إذا حضرت بين يدي ملك من ملوك الدنيا ، بل بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على نفعك وضررك ، فإذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملوكوت ، والنفع والضرر فلا تظن أن له سبباً سوى ضعف الإيمان واليقين ، فينبغي حينئذ السعي في تقوية اليقين والإيمان ، (وأما التفهم) فسببه بعد حضور القلب ادمان الفكر ، وصرف الذهن إلى ادراك المعنى ، وعلاجه ما هو علاج احضار القلب مع الاقبال على الفكر ، والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها أعني النزوع عن الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها ، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر ، فإن من أحب شيئاً أو أبغض شيئاً أو خاف من

شيء أكثر ذكره ، فنذكر المحبوب والمبغوض والخوف يهجم على القلب بالضرورة ، ولذا ترى أن من أحب غير الله أو كان قلبه مشغولاً بعداوة أحد أو بالخوف عنه لا تصفوا له صلاة عن الخواطر ، وأما التعظيم فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين : (إحداهما) معرفة جلال الله وعظمته فإن من لا يعتقد عظمته لا تدعن النفس لتعظيمه ، وهذه المعرفة من أصول الإيمان (الثانية) معرفة حقارة النفس وخستها وذلتها وكونها عبداً مسخراً مربوباً لا يقدر شيئاً من النفع والضرر ، وتتولد من معرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله فيعبر عنه بالتعظيم ، وما لم تخرج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع ، فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال ، ونعوت القدرة والكمال ، ولا يكون خاشعاً معظماً له ، لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن إليه (وأما الهيبة) والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله تعالى وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به ، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة مع تذكر ما جرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع ، وكلما زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة (وأما الرجاء) فسببه معرفة لطف الله تعالى وكرمه وعظيم إنعامه ولطائف صنعه ، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث منها الرجاء (وأما الحياء) فسببه إستشعار التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتهما ، وقلة إخلاصها وخبث باطنها ، وميلها إلى الخط العاجل في جميع أفعالها مع العلم بجميع ما يقتضيه جلال الله وعظمته ، والعلم بأنه مطلع على السرائر وخطرات

القلب وإن دقت وخفيت ، وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعثت منها بالضرورة حالة تسمى بالحياء .

فصل

طريق تحصيل المعاني الباطنة

اعلم أن العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة اعني الحضور والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء هو تحصيل أسباب هذه المعاني ، وقد عرفت أسبابها ، وطريق العلاج في تحصيل هذه الأسباب إنما يتم بأمرين : (الأول) معرفة الله ومعرفة جلاله وعظمته واستناد الكل اليه ، ومعرفة كونه عالماً بذرات العالم وبسائر العباد ، ويلزم أن تكون هذه المعرفة يقينية ليرتب عليها الأثر ، اذ ما يحصل اليقين بأمر لا يحصل التشمير في طلبه والهرب عنه ، وهذه المعرفة هي المعتبر عنها بالإيمان ، ولا ريب في كونها موجبة لحصول المعاني المذكورة وأسبابها ، اذ المؤمن يكون البتة حاضر القلب مع ربه عند مناجاته ، ومتفهماً لما يسأله عنه ، معظماً له ، وخائفاً منه ، وراجياً منه ، ومستحيماً من تقصيره (الثاني) فراغ القلب وخلوه من مشاغل الدنيا ، فإن انفكاك المؤمن العارف المتيقن بالله وبجلاله وعظمته وباطلاعه عليه من المعاني المذكورة في صلاته لاسبب له الا تفرق الفكر ، وتقسم الخاطر ، وغيبة القلب عن المناجاة ، والغفلة عن الصلاة ، ولا تلهي عن الصلاة الا الخواطر الردية الشاغلة ، فالدواء في احضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه .

وسبب توارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً ، أو أمراً في ذاته باطناً ، (والأول) ما يظهر للبصر ، أو يقرع على السمع فإن ذلك قد يختلف

الهم حتى يتبعه ، ويتصرف فيه ثم ينجر منه الفكر الى غيره ، ويتسلسل فيكون الابصار او الاستماع سبباً للافتكار ، ثم يصير بعض تلك الافكار سبباً للبعض ، ومن قويت رتبته وعلت همته لم يلهه ما يجري على حواسه ، ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق فيه فكره فعلاجه قطع هذه الاسباب بأن يفض بصره ، أو يصلي في بيت مظلم ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه ، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويتحرز من الصلاة على الشوارع ، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة ، والعمارات العالية المرتفعة ، ولذلك كان المتعبدون يصلون في بيت مظلم صغير سعته بقدر السجود ليكون أجمع لهم ، والاقوياء كانوا يحضرون المساجد ، ويغضون البصر ولا يجاوزونه موضع السجود كما ورد الأمر به ، ويرون كمال الصلاة في ألا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم (وأما الثاني) اعني الاسباب الباطنة فهي أشد ، فإن من تفرقت همومه ، وتشعبت خواطره في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فن واحد ، بل لا يزال يطير من جانب الى جانب ، وغض البصر لا يغنيه فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل فهذا علاجه أن يرد نفسه قهراً الى فهم ما يقرؤه ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة ، وخطر المقام بين يدي الله تعالى ، وهول المطلع ، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهته من أمر الدنيا ، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت اليه خاطره فهذا طريق تسكين الافكار ، فإن لم تسكن أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيهِ إلا المسهل الذي يجمع مادة الداء من اعماق العروق ، وهو أن ينظر في الامور الشاغلة الصارفة له عن احضار القلب ، ولا ريب في أنها تعود الى مهماته ، وهي إنما صارت مهمة لأجل شهواته ، فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع

تلك العلائق ، فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه ، وجند ابليس عدوه
فإمسكه أضرب عليه من اخراجه فيتمخلص عنه باخراجه ، وهذا هو الدواء القامع
لمادة العلة ولا يغني غيره ، فإن ما ذكر من التلطف بالتسكين والرد الى فهم الذكر
إنما ينفع في الشهوات الضعيفة ، والهمم الذي لا يشغل إلا حواشي القلب ، وأما
الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع معها التسكين ، بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم
تغلبك وتمقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة ، ومثاله مثال رجل تحت شجرة
أراد أن يصفوله فكره وكانت أصوات المصافير تشوش عليه فلم يزل يطيرها
بخشبة هي في يده ويعود الى فكره فتعرد المصافير فيعود الى السفير بالخشبة فقليل
له إن هذا سير انواني ولا ينقطع ، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة ، فكذلك
شجرة الشهوة إذا استعملت وتفرعت اغصانها انجذبت اليها الأفكار انجذاب
المصافير الى الأشجار ، وانجذاب الذباب الى الأقدار ، والشغل يطول في دفعها
فإن الذباب كلما ذبّ أب ، ولأجله سمي ذباباً وكذلك الخواطر ، وهذه الشهوات
كثيرة قلماً يخلو العبد منها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا ، وذلك رأس
كل خطيئة ، وأساس كل نقصان ، ومنبع كل فساد ، ومن انطوى باطنه على
حب الدنيا حتى مال الى شيء منها لا يتزود منها ويستعين بها على الآخرة فلا يطمعن
في أن تصفو له لذّة المناجاة في الصلاة فإن من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته
وهمة الرجل مع قرّة عينه ، فإن كانت قرّة عينه في الدنيا انصرف همه لا محالة
اليها ولكن مع هذا لا ينبغي أن تترك المجاهدة ورد القلب الى الصلاة وتقليل
الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء ولمرارته استبشعته الطباع ، وبقيت العلة
مزمنة ، وصار الداء عضالاً حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين
لا يتحدثون أنفسهم فيها بأمور الدنيا فمعجزوا عنه ، فإذا لا مطعم فيه لأمثالنا ،

وباليت سلم لنا من الصلاة ثلثها ، أو ربهما من الوسوس لسكون ممن خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً . وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح فيه خل فبقدر ما يدخل فيه الماء يخرج منه الخل لا محالة ولا يجتمعان ، ثم جميع ما ذكر إنما هو في الخواطر المتعلقة بالأمور المهمة من الدنيا حتى إذا خرجت هذه الأمور من القلب خرجت منه هذه الخواطر أيضاً ، وقد تكون الخواطر من مجرد الوسوس الباطنة والخيالات الفاسدة من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوي يكون لها ، ومن دون اختيار للعبد في خطورها وعدم خطورها والأمور فيها أصعب ، وإن كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلة عظيمة في زوالها أيضاً ، إذ مادة هذه الوسوس أيضاً إما حب المال وحب الجاه ، أو حب غيرها من الأمور الشهوية الدنيوية ، وقد تقدم تفصيل القول فيها وفي طريق علاجها في بحث الوسوس .

فصل

أسرار الصلاة

في تحصيل كل واحد من شروط الصلاة وأفعالها وأركانها أسرار وتنبهات فينبغي للمريد الآخرة ألا يغفل عنها فهذه نذكرها .
أما الأذان فإذا سمعت نداء المؤذن فأخطر في قلبك هول النداء يوم القيامة ، وتشمّر بباطنك وظاهره للاستجابة والمساواة فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر ، فأعرض قلبك على هذا النداء ، فإن وجدته مملوياً بالفرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة إلى الابتداء فاعلم

أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء ، ولذلك قال سيد الأنبياء :
 « أرحنا يا بلال » أي أرحنا بها وبالنداء اليها إذ كانت قرّة عينه فيها ، واعتبر
 بفصول الأذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله ، واعتبر بذلك أن
 الله جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، ووطن قلبك بتعظيمه عند
 سماع التكبير ، واستحققر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذبا في تكبيرك ، وأنف
 عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل ، وأحضر النبي صلى الله عليه وآله ،
 وتأدب بين يديه ، واشهد له بالرسالة مخلصاً ، وصلّ عليه وآله ، وحرك
 نفسك . وأسع بقلبك وقلبك عند الداء الى الصلاة وما يوجب الفلاح وما هو
 خير الاعمال وأفضلها . وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه . واختمه
 بذلك كما افتتحت به . واجعل مبدءك منه ، وعودك اليه ، وقوامك به .
 واعتمادك على حوله وقوته فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فصل

الوقت

وإذا دخل الوقت استحضر أنه ميقات جعله الله لك لتقوم فيه بخدمته ،
 وتأمل للمثول في حضرته ، والفوز بطاعته ، وليظهر على قلبك السرور ،
 وعلى وجهك البهجة عند دخوله لكونه سبباً لقربك ووسيلة الى فوزك ، فاستعد
 له بالطهارة والنظافة ، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة كما تنأهب عند القدوم
 على ملك من ملوك الدنيا ، وتلقاه بالسكينة والوقار ، والخوف والرجاء ،
 واستحضر عظمة الله وجلاله وعدم تنأهي قدرته وكماله ونقصان قدرك ومرتبك ،

وعدم قابليتك للقيام بخدمته ، وقصورك عن أداء وظائف طاعته .

فصل

آداب الصلاة

إذا أتيت بالطهارة في مكانك وهو ظرفك الأبعد ، ثم في ثيابك وهو
غلافك الأقرب ، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبك وذاتك وهو
قلبك ، فطهره بالتوبة والندم على ما فرط ، وتصميم العزم على الترك في المستقبل ،
فطهر بها باطنك فإنه موضع نظر ربك ، ثم إذا سترت مقابح بدنك عن أبصار الخلق
باللباس فأخطر ببالك فضائح سرّك التي لا يطلع عليها إلا ربك ، وطالب
نفسك بسترها ، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سائر ، وإنما يكفرها
الخوف والندم والحياء فتستفيد بإظهارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والندم
والحياء من مكانها ، فتذل به نفسك ، ويستكين تحت الخجلة قلبك ،
وتقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع إلى
مولاه ، ناكساً رأسه من الخوف والحياء ، قال الصادق عليه السلام : « أزين
اللباس للؤمن لباس النقوى . وأنعمه الإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ وَرِبَاسُ
النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ . وأما اللباس الظاهر فنعمة من الله تعالى تستر بها
عورات بني آدم . وهي كرامة أكرم الله بها ذرية آدم ما لم يُكرم بها غيرهم .
وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم وخير لباسك مالا يشغلك عن
الله عز وجل بل يقرّبك من ذكره وشكره وطاعته ، ولا يحملك على العجب
والرياء والتزيّن والتفاخر والخيلاء فانها من آفات الدين ، ومورثة للقسوة في

القلب ، فاذا لبست ثوبك فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته ، والبس باطنك بالصدق كما البست ظاهره بثوبك ، وليكن باطنك من الصدق في ستر الهيبة ، وظاهره في ستر الطاعة ، واعتبر بفضل الله عز وجل حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة ، وفتح أبواب التوبة والانابة والاغاثة ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء ، ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك ما أعظم منه ، واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعينك حاله وأمره ، واحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك ، ويتسجر برأس مالك غيرك ، وتهلك نفسك، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله في العاجل ، واوفر أسباب العقوبة في الآجل ، وما دام العبد مشغولاً بطاعة الله تعالى ، ومعرفة عيوب نفسه ، وترك ما يشين في دين الله عز وجل فهو بمنزلة عن الآفات ، خائض في بحر رحمة الله عز وجل ، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان ، وما دام ناسياً لذنوبه جاهلاً بعيوبه راجعاً الى حوله وقوته لا يفلح إذا أبدأ (١)

فصل

آداب المصلي

إذا أتيت مصلاً فاستحضر فيه أنك كائن بين يدي ملك الملوك تريد مناجاته والتضرع اليه ، والتماس رضاه ، وانظره اليك بعين الرحمة ، فاختر مكاناً يصلح كالمسجد الشريف ، والمشاهد المطهرة مع الإمكان فإنه تعالى جعل تلك

(١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة . الباب السابع

المواضع محلاً لا جابته ، وموضع نزول فيوضاته ورحمته على مثال حضرة الملوك الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد والمطالب ، فادخلها بالسكينة والوقار ، ومراقباً للخشوع والانكسار ، قال الصادق عليه السلام : « إذا بلغت باب المسجد فاعلم أنك قد قصدت باب ملك عظيم ، لا يبطأ بساطه إلا المطهرون ، ولا يؤذن لمجالسته إلا الصديقون ، فهب القدوم الى بساط هيبة الملك فانك على خطر عظيم إن غفلت ، فاعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك . فان عطف عليك برحمته وفضله قبل منك يسير الطاعة ، وأجزلك عليها ثواباً كثيراً ، وإن طالبك باستحقاقه الصدق والاخلاص عدلاً بك حجبتك ورد طاعتك وإن كثرت ، وهو فعال لما يريد ، واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه ، فانك قد توجهت للعبادة له ، والمؤانسة به ، واعرض أسرارك عليه ، ولتعلم أنه لا تخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلايتهم ، وكن كأفقر عباده بين يديه ، واخل قلبك عن كل شاغل يجلبك عن ربك ، فإنه لا يقبل إلا الأطهر والأخلص ، وأنظر من أي ديوان يخرج اسمك ، فإن ذقت حلوة مناجاته ، ولذيت مخاطباته ، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن اقباله عليك واجابته ، فقد صلحت لخدمته فادخل فلك الاذن والامان ، وإلا فقف وقوف من قد انقطع عنه الخيل ، وقصر عنه الأمل ، وقضي عليه الأجل ، فان علم الله عز وجل من قبلك صدق الالتجاء اليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة والعطف ، ووفقك لما تحب وترضى فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين اليه ، المقيمين على بابه لطلب مرضاته قال الله تعالى : « أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ » (١) .

فصل

الاستقبال

وأما الاستقبال فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله ، وهذا إشارة الى أنه ينبغي أن يصرف وجه القلب عن سائر الأشياء الى الله ، فان الأعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على ما يناسبها ، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات في جهة واحدة لأجل ألا تبقى على القلب لأنها إذا توجهت الى جهات متعددة يتبعها القلب في التوجه الى أشياء متعددة ، فأمر الله بصرفها الى شطر بيته ليتذكر القلب صاحبه ، ويتوجه اليه ، ويثبت على ذلك كما تثبت الأعضاء على جهة واحدة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن الله تعالى مقبل على المصلي ما لم يلتفت » ، وهذا الالتفات يشمل إلتفات القلب ايضاً ، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات الى الجهات فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات الى غير الله وغير الصلاة ، فان إلتفت الى غير الله وغير الصلاة فذكره باطلاع الله عليه ، وقبح غفلة المناجبي عن يناجيه و عما يقول له حين المناجاة لاسيما إذا كان من يناجيه مالك الملوك ، والزم قلبك الخشوع فان الخلاص عن الالتفات ظاهراً وباطناً ثمرة الخشوع ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وقد رأى مصلياً يعبت بلحيته : « أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه فان الرعية بحكم الراعي » وفي الدعاء : « اللهم اصلح الراعي والرعية » وهو القلب والجوارح .

وبالجملة ينبغي لكل مؤمن صرف وجهه الى بيت الله للصلاة أن يصرف

وجه قلبه الى صاحب البيت ، وكما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها فكذلك لا ينصرف وجه القلب الى الله إلا بالتفرغ عما سوى الله ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا قام العبد الى صلاته وكان هواه وقلبه الى الله انصرف كيوم ولدته أمه » ، وقال صلى الله عليه وآله : « أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار » قيل هذا نهي عن الالتفات عن الله ، وملاحظة عظمتة في حال الصلاة ، فإن الملتفت يميناً وشمالاً غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه ، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للامور العلوية وعدم فهمه للمعارف ، وقال الصادق عليه السلام : « إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه ، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله تعالى ، وعان بسرك عظمة الله عز وجل ، واذكر وقوفك بين يديه » قال الله تعالى : « هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ » (١) وقف على قدم الخوف والرجاء (٢) .

فصل

القيام

وأما القيام فهو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله سبحانه ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطوّقاً متطأطأ متنعكساً ، تنبيهاً للقلب على لزوم

(١) يونس الآية ٣١ .

(٢) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة . الباب ١٣ ص ١٤١ .

التواضع والتذلل والانكسار ، والتبري عن التكبر والتؤس ، وينبغي أن تذكرها هنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطامع عند التعرض للسؤال ، وتذكر في الحال أنك قائم بين يدي الله وهو مطلع عليك ، فليكن قيامك بين يديه على ما يليق بعظمته وجلاله ، وإن كنت تعجز عن معرفة كنهه جلالة فلا تجعل مالك المملك والملوك أنزل من بعض ملوك عصرك ، فقم بين يديه قيامك بين يدي ملك زمانك ، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ بعين كائلة من رجل صالح من أهلك ، أو ممن ترغب أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تهتد عند ذلك أطرافك ، وتخضع جوارحك ، ويسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين الى قلة الخشوع . وبالجملة الخشوع والخشوع والاستحياء والانفعال يقتضيها الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا ، فكيف لا يقتضيها بين يدي ملك الملوك عند من يعرفه ، فمن يكون بين يدي غير الله خاشعاً ، ولا يكون بين يدي الله كذلك ، فذلك لقصور معرفته عن جلال وعن اطلاعه على سره وضميره وعدم تدبره في قوله تعالى : « الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ » (١) فتباً لمن يدعي معرفة الله والعلم بعظمته وجلاله وحبه والخشية منه ومع ذلك يستحي من أحد عبيده المساكين الذي لا يقدر على نفع ولا ضرر ، ولا يستحي من الله ، ويخشى الناس ولا يخشاه .

فصل

التكبيرات

وأما التوجه بالتكبيرات فينبغي أن تستحضر عندك عظمة الله وجلاله ،

(١) الشعراء الآية ٢١٨ - ٢٠٩ .

وصغر نفسك وذلتها في جنب عظمته ، وقصورك عن القيام بوظائف خدمته ،
وإذا قلت : « اللهم إني أنت الملك الحق » فتذكر عظيم ملكه ، وعموم
قدرته ، واستيلاءه على جميع العوالم ، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار ،
وإذا قلت إنيك وسعديك ، والخير في يديك ، والشر ليس اليك مثل نفسك
بين يديه ، وتيقن أنه أقرب منك من نفسك ، يسمع نداءك ، ويجيب
دعائك ، وأن خير الدنيا والآخرة بيده لا بيد غيره ، وأنه خير محض منزله
عن الشر ، وإذا قلت عبدك وابن عبدك منك وبك ولك واليك فقد اعترفت
له بالعبودية وبأنه ربك وخالقك ومالكك وموجدك ومخترعك وانت اثره
وفعله ، ومنه وجودك ، وبه قوامك ، وله ملكك ، وإليه معادك ، فانت
منه ، فلا يتركك ويرحمك ، فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين يديه ، وكل
امورك في الدنيا والآخرة اليه ، ولا تعتمد في مقاصدك إلا عليه ، فاحضر في
ذهنك في هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التي ينطق بها لسانك أمثال هذه
الحقائق ، وترق منها الى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق ، واحفظ
نفسك عن الوقوع في أودية الوسواس والهوى فتعلق الفيض من العالم الأعلى .

فصل

النية

وأما النية فحقيقتها القصد الى الفعل امتثالاً لأمر الله ، وطلباً لتقريبه ،
ورجاء لثوابه ، وخوفاً من عقابه ، فينبغي أن تجتهد في خلوصها ألا يشوبها
غرض دنيوي فتنفسد ، وحقيقة الإخلاص وما يتعلق بها قد تقدمت مفصلة في

محلها ، وينبغي أن تذكر هاهنا عظيم لطفه ومنته عليه حيث اذنك في المناجاة مع سوء أدبك ، وكثرة جنايتك ، وعظم في نفسك قدر مناجاته ، وانظر من تناجي ، وكيف تناجي ، وبماذا تناجي ، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة ، وترتعد فرائصك من الهيبة ، وبصفر وجهك من الخوف والخشية .

فصل

تكبيرة الاحرام

واذا كبرت تكبيرة الاحرام تذكر أن معناها أنه تعالى أكبر من أن يوصف ، أو أكبر من كل شيء ، أو أكبر من أن يدرك بالحواس ، أو يقاس بالناس ، فانتقل منه الى غاية عظمته وجلاله ، واستناد ما سواه اليه بالايجاد والاختراع والاخراج من كتم العدم ، وينبغي أن تكون على يقين بذلك حتى لا يكذب لسانك قلبك ، فان كان في قلبك شيء هو أكبر من الله تعالى عندك ، فانه يشهد أنك كاذب وان كان الكلام صدقا ، كما شهد على المنافقين في قولهم إن النبي رسول الله ، وإن كان هواك اغلب عليك من امر الله تعالى وانت اطوع له منك لله ولامره فقد اتخذته إلهك وكبرته ، فيوشك أن يكون قواك الله أكبر كلاماً باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما اعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه تعالى وعفوه ، قال الصادق عليه السلام : « فاذا كبرت فاستصغر ما بين السماوات والارضى دون كبريائه فان الله تعالى اذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره فقال يا كذاب اتخذني ، وعزتي وجلالي لأحرمنك

حلاوة ذكري ، ولا حجبك عن قربي والمسرّة بمناجاتي « (١) فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك ، فإن كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها ، وقلبك مسرور بمناجاته ، وملته بمخاطباته فاعلم أنه تعالى قد صدّقك في تكبيرك ، وإن سلبت لذة المناجاة ، وحُرمت حلاوة العبادة فاعلم أنه تعالى كذّبك في تكبيرك ، وطردك عن بابه ، وأبعدك عن جنبه ، فأبك على نفسك بكاء الشكوى ، ويادر إلى العلاج قبل أن تترك الحسرة العظمى .

فصل

دعاء الاستفتاح

وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ، ومعالم أن المراد بالوجه هنا هو وجه القلب دون الوجه الظاهر ، لأن الله سبحانه منزّه عن الأمكنة والجهات حتى توجّه إليه الوجه الظاهر فانت تدعي في هذا الكلام أن قلبك متوجه إلى فاطر السماوات والأرض ، فإياك أن يكون أول مفاتحتك المناجاة بالكذب والاختلاق ، إذ لو كان قلبك متوجّهاً إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق ، أو واقعاً في أودية الوسوس ، أو كان غافلاً لم يكن مقبلاً على الله متوجّهاً إليه ، وكنت كاذباً في أول مخاطبتك مع ربك ، فاجتهد أن ينصرف قلبك عما سواه ، وتقبل عليه في هذا الوقت ، وإن عجزت عنه على الدوام لثلاث تكون كاذباً في أول كلامك ، وإذا قلت حنيفاً مسلماً فاخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من يده ولسانه ، فإن

لم تكن موصوفاً بهذا الوصف كنت كاذباً فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال ،
 وأن تندم على ما سبق من الأحوال ، وإذا قلت وما أنا من المشركين فخطر
 ببالك الشرك الخفي ، وكونه داخلاً في الشرك ، لاطلاق الشرك على القليل
 والكثير ، فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله من مدح الناس ، وطلب
 المنزلة في قلوبهم كنت مشركاً كاذباً في هذا الكلام ، فانف هذا الشرك عن
 نفسك ، واستشعر الخجلة في قلبك ، بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة
 به في الواقع ، وإذا قلت محياي ومماتي لله رب العالمين فاعلم أن هذا حال عبد
 مفقود لنفسه ، موجود لسيدته ، فان عن ذاته ، باقي بربه بحيث لا يرى
 لذاته من حيث هي قدرة وقوة ، بل يعلم حياته وبقائه من الله تعالى ، ولا تكون
 حر كاته وسكناته إلا لله تعالى ، فالقائل بهذا الكلام إذا رأى لنفسه من حيث
 هي قدرة وأثراً أو صدر عنه فعل من الرضا ، أو الغضب ، أو القيام ، أو القعود ،
 أو الرغبة في الحياة ، أو الرهبة من الموت لأمور الدنيا كان كاذباً .

فصل

الاستعاذة

فإذا قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ينبغي أن تعلم أن الشيطان
 أعدى عدوك ، مترصد لصرف قلبك عن الله حسداً لك على مناجاتك مع الله
 وسجودك له ، مع أنه لعين وطرد عن مقام القرب بترك السجدة ، وينبغي
 ألا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول لتكون مثل من قصده سبع أو عدو
 ليفترسه أو يقتله فقال أعوذ منك بهذا الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه ،

فإن ذلك لا يفيد ولا ينفعه ما لم يتحرك ويدخل الحصن ، فكذلك مجرد الاستعاذة لا ينفعه ما لم يترك ما يحب الشيطان ، وما لم يأت بما يحبه الله ، فمن اتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن لا يغنيه مجرد القول ، فليقتن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عن شر الشيطان وحصنه لا إله إلا الله إذ قال : « لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي » ، والدخول في حصن لا إله إلا الله ليس أيضاً بمجرد التكلم به ، بل الاذعان القلبي واليقين القطعي بأن كل معبود سواه باطل ، وكل شيء منه وله وبه واليه ، ولا مؤثر في الوجود إلا هو فالمتحصن بالتوحيد من لا معبود له سوى الله ، وأما من اتخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله ، ومن مكائد اللعين أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة ، وتدير فعل الخيرات تمنع من الحضور وفهم ما تقرأ فاعلم أن كل ما يشغلك عن الاقبال الى الله وعن فهم معاني القرآن والاذكار فهو وسواس إذ حركة اللسان غير مقصودة ، بل المقصود المعاني ، وإذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم فانو به التبرك لا بتدائك بقراءة كلام الله ، والمراد بالاسم هنا المسعى ، فمعناه أن كل الأشياء والأمور بالله فيترتب عليه انحصار الحمد لله ، إذ المراد بالحمد الشكر ، والشكر إنما يكون على النعم ، فإذا كانت النعم بأسرها من الله فيكون منحصرأ به ، فمن يرى نعمة من غير الله ، أو يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله ، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته الى غير الله سبحانه ، وإذا قلت الرحمن الرحيم ، فاحضر في قلبك أنواع لطفه ، وضروب احسانه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجائك وإذا قلت مالك يوم الدين فاستشعر من قلبك التعظيم والخوف أما العظمة فلا نسبه لا ملك إلا هو ، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو

مالسكه ، ثم جدّد الاخلاص بقولك إياك نعبد ، وجدّد المعجز والافتقار والتبري من الحول والقوة بقولك وإياك نستعين ، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا باعاقته ، وأن له المنّة إذ وفقت لطاعته ، واستخدمك لعبادته ، وجعلك أهلا لما جاته ، ولو حرمتك التوفيق لسكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم ، واستحضر أن الاعانة لا تكون إلا منه ، ولا يقدر غيره أن يعين أحداً ، فاخرج عن قلبك الوسائل والأسباب إلا من حيث إنها مسخرة منه تعالى ، وإذا قلت إهدنا الصراط المستقيم فاعلم أنه طلب لأهم حاجاتك وهي الهداية الى النهج الحق الذي يسوقك الى جوار الله ، ويفضي بك الى مرضاته ، ويوصلك الى مجاورة من أنعم الله عليهم نعمة الهداية من الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين من اليهود والنصارى والصابئين ، وإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون ممن قال الله فيهم بما اخبر عنه النبي صلى الله عليه وآله : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ نِصْفَهَا لِي ، وَنِصْفَهَا لِعَبْدِي يَقُولُ الْعَبْدُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : حَمْدِي عَبْدِي وَأُثْنِي عَلَيَّ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ » الى آخر الحديث ، فان لم يكن لك من صلاتك حظ سوى التذاذك بذكر الله في جلاله وعظمته فناهيك به غنيمة فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله ، وكذلك ينبغي أن تفهم وتخرج الحقائق بما تقرؤه من السورة فلا تغفل عن أمره ونهييه ووعدته ووعيدته ومواظبه وأخبار أنبيائه ، وذكر مننه وإحسانه ، فلكل واحد حق : فحق الأمر والنهي العزم ، وحق الوعد والرجاء ، وحق الوعيد الخوف ، وحق الموعظة الاتعاظ ، وحق أخبار الأنبياء الاعتبار ، وحق ذكر المنّة الشكر ، وتكون هذه المماني بحسب درجات الفهم ، ويكون الفهم على

حسب العلم وصفاء القلب ودرجات ذلك لا تنحصر ، والصلاة مفتاح القلوب
 فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو أيضاً حق الأذكار
 والتسبيحات ، واعلم أن الناس في القراءة ثلاثة ، بعضهم يتحرك لسانه
 وقلبه غافل ، وبعضهم يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيسمع ويفهم
 منه كأنه يسمعه من غيره وهو درجة اصحاب اليمين ، وبعضهم يسبق قلبه الى
 المعاني أولاً ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه ، وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان
 القلب أو يكون معلم القلب ، والمقربون السنتهم ترجمان تتبع القلب . ثم
 ينبغي أن تراعي الهيئة في القراءة فتزتل ولا تسرد ولا تعجل فإن ذلك أيسر
 للتأمل ، وتُفرّق بين نعمائه في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتمجيد
 والتعظيم ، كان بعضهم اذا مرّ بمثل قوله : « مَا آتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ
 وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ » (١) يفيض صوته كالمستحي عن أن يذكره بكل
 شيء ، وروي أنه يقال يوم القيامة لصاحب القرآن اقرأ وارق فكلمها قرأ آية
 صعد درجة .

فصل

الركوع

وأما الركوع فينبغي أن تجدد عنده ذكر كبرياء الله ، وترفع بذلك
 معظماً له منبهاً على غاية عظمته وارتفاعه ، وكونه أرفع من أن تصل اليه أيدي
 العقول والأوهام ، ومستجيراً بعفوه من عقابه ، وتستأنف بهويك للركوع
 فلا تتواضعاً ، وتجتهد في ترقيق قلبك ، وتجديد خشوعك ، وتستشعر ذلك

(١) المؤمنون الآية ٩٣ .

وعزّه ، وضمه فك وقوته ، وعجزك وقدرته ، واتضاعك وعلوه ، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبحه وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم ، وتكرر ذلك على قلبك لتترسخ فيه عظمته وجلاله ، ثم ترفع عن ركوعك راجياً أنه راحم ذلك ، وتؤكّد الرجا في نفسك بقولك سمع الله لمن حمده أي اجاب الله لمن شكره ، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد فتقول الحمد لله ربّ العالمين ، ثم تزيد في التذلل والخشوع وتعظيم ربك واجلاله فتقول اهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت . روى (الصدوق) رضوان الله عليه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل عن معنى مسدّ العنق في الركوع فقال عليه السلام : « تأويله آمنت بك ولو ضربت عنقي » ، وقال الصادق عليه السلام : « لا يركع عبد لله ركوعاً على الحقيقة إلا زينه الله بنور بهائه ، وأظله في ظل كبريائه ، وكساه كسوة أصفياه ، والركوع أول ، والسجود ثان ، فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني ، وفي الركوع أدب ، وفي السجود قرب ، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب ، فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه متذلل وجل تحت سلطانه خافض له بجوارحه خافض خائف حزن على ما يفوته من فائدة التراكمين » (١) وحكي أن ربيع بن خثيم كان يسهر بالليل الى الفجر في ركعة واحدة فإذا هو أصبح تزفر وقال آه سبق المحلصون وقطع بنا . واستوف ركوعك باستواء ظهرك ، وانحطّ عن همتك في القيام بخدمته إلا بتأييده وعونه ، وفرّ بقلبك من وساوس الشيطان وسخائعه

(١) صححنا الحديث على مصباح الشريفة الباب ١٥ وعلى البحار

المجلد الثامن عشر . كتاب الصلاة . باب الركوع وآدابه ص ٣٥٦ . وعلى المستدرک المجلد الاول . كتاب الصلاة . باب نوادر ما يتعلق بالركوع ص ٢٢٥

ومكائده ، فإن الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له ، ويهبطهم الى اصول التواضع والخضوع والخشوع بقدر اطلاع عظمتة على سرأرهم .

فصل

السجود

وإذا هويت الى السجود جدد على قلبك غاية الدل والمعجز والآنكسار ،
 إذ السجود أعلى درجات الاستكانة ، فكُنْ أعز أعضائك وهو الوجه لأذل
 الأشياء وهو التراب ، ولا تجعل بينهما حاجزاً ، بل اسجد على الأرض لأنه
 أجلب للخضوع ، وأدل على الدل ، فإذا وضعت نفسك موضع الدل وأقيمتها
 على التراب فاعلم أنك وضعتها موضعها ، ورددت الفرع الى أصله ، فانك
 من التراب خلقت ، واليه رددت ، فمجد هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل
 سبحانه ربي الأعلى وبحمده ، وأكده بالتكرار إذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار ،
 فإن رق قلبك ، وطهر لبك فليصدق رجائك في رحمة ربك ، فإني رحمه
 تتسارع الى موضع الدل والضمف لا الى محل التكبر والبطر ، فارفع رأسك
 مكبراً ومستغفراً من ذنوبك ، وسائلاً حاجتك ، ثم أكد التواضع بالتكرار وعد الى
 السجود ثانياً كذلك ، وسئل مولانا امير المؤمنين عليه السلام عن معنى
 السجدة الاولى قال : « تأويلها اللهم إنك منها خلقتنا » يعني من الأرض ،
 وتأويل رفع رأسك « ومنها أخرجتنا » والسجدة الثانية « واليها تعيدنا » ،
 ورفع رأسك « ومنها تخرجنا تارة اخرى » ، وقال مولانا الصادق عليه السلام :
 « ما خسر والله تعالى قط من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العرصة واحدة ، وما

أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيهاً بخادع نفسه غافل لاه عما أَعَدَّ اللهُ تعالى للساجدين من انس العاجل ، وراحة الآجل ، ولا بُدَّ عن الله تعالى أبداً من أحسن تقربه في السجود ، ولا قُرْبَ إليه أبداً من أساء أدبه ، وضييع حرمة بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده ، فاسجد سجود متواضع لله ذليل علم أنه خُلق من تراب يطأه الخلق ، وأنه رَكَّبَ من نطفة يستقذرها كل أحد ، وكَوَّنَ ولم يكن ، وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسر والروح ، فمن قرب منه بَعُدَ من غيره ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء ، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن ، فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله تعالى فهو قريب من ذلك الشيء ، بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته قال الله تعالى : « مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلُوبَيْنِ فِي جَوْفِهِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا أَطْلَعَ عَلَى قَلْبِ عَبْدٍ فَاعْلَمَ فِيهِ حُبَّ الْإِخْلَاصِ لِمَا عَنِّي لَوْجَهِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي إِلَّا تَوَلَّيْتُ تَقْوِيَهُ وَسِيَاسَتَهُ ، وَمَنْ اشْتَغَلَ فِي صَلَاتِهِ بِغَيْرِي فَهُوَ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِنَفْسِهِ وَاسْمِهِ مَكْتُوبٌ فِي دِيْوَانِ الْخَاسِرِينَ » (١) .

فصل

التشهد

إذا جلست للتشهد بعد هذه الأفعال الدقيقة ، والأسرار العميقة المشتملة

(١) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة . الباب ١٦ . وعلى البحار

المجلد ١٨ . باب السجود وآدابه ص ٣٦٣ .

على الأخطار الجسيمة فاستشعر الخوف التام والرغبة والوجل والحياء أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه ، ولا محصلاً بوظائفه وشرائطه ، ولا مكتوباً في ديوان القبول ، فاجعل يدك صفراً من فوائدها ، وارجع الى مبدأ الأمر ، وأصل الدين اعني كلمة التوحيد ، وحسن الله الذي من دخله كان آمناً ، فاستمسك به إن لم تكن لك وسيلة غيره فاشهد لربك بالوحدانية ، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم ببالك ، واشهد له بالعبودية والرسالة ، وصل عليه وعلى آله مجدداً عهد الله باعادة كلمتي الشهادة ، متعرضاً بهما لتأسيس مراتب العبادة فإنهما أول الوسائل ، وأساس الفواضل ، ومتوسلاً الى رسول الله بالصلاة عليه ، مترقباً بذلك عشرين من صلاته صلى الله عليه وآله عليك كما ورد في الخبر ، ولو وصل اليك منها واحدة اقلحت أبداً ، قال الصادق عليه السلام : « التشهد ثناء على الله فكن عبداً له في السر » ، خاضعاً له في الفعل كما أنك عبده في القول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرّك فإنه خلقك عبداً ، وأمرك أن تعبد به بقلبك ولسانك وجوارحك ، وأن تصحّق عبوديتك له وربوبيته لك ، وتعلم أن نواصي الخلق بيده ، فليس لهم نفسٌ ولا لحظة إلا بقدرته ومشيتته ، وهم عاجزون عن اتیان أقل شيء في مملكته إلا بأذنه وإرادته ، قال الله عز وجل : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » (١) فكن لله عبداً شاكراً بالقول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء سرّك فإنه خلقك فمز وجل أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بما سبق إرادته ومشيتته ، فاستعمل العبودية في الرضى بحكمته وبالعبادة في أداء أوامره وقيامك بالصلاة على حبيبته محمد صلى الله عليه وآله ،

فاوصل صلاته بصلاته ، وطاعته بطاعته ، وشهادته بشهادته ، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمة فتحرم عن فائدة صلاته ، وأمره بالاستغفار لك ، والشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب ، وتسلم جليل مرتبته عند الله عز وجل (١) .

فصل

التسليم

وإذا فرغت عن التشهد فاحضر بحضرة سيد المرسلين والملائكة المقربين وبقية أنبياء الله وأئمة عليهم السلام والحفظة لك من الملائكة المحصنين لأعمالك وأحضرهم جميعاً في بالك ، وسلم أولاً على نبيك الذي هو أفضل الكل وواسطة هدايتك وإيمانك بقولك السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ثم توجه إلى الجميع ، وسلم عليهم بقولك السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهرك فتكون من العابثين واللاعبين ، وكيف تسمع الخطاب لمن لا يقصد لولا فضل الله في اجتزائه بذلك عن أصل الواجب وإن كان بعيداً عن درجات القبول ، مُنحطاً عن أوج القرب والوصول ، وإن كنت إماماً لقوم فاقصدهم بالسلام مع من تقدم من المقصودين وليقصدوا ثم الرد عليك أيضاً ، وإذا فعلتم ذلك فقد أدّيتكم وظيفة السلام ، واستحققتهم من الله مزيد الأكرام ، قال الصادق عليه السلام : « معنى التسليم

(١) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة . الباب ١٧ وعلى البحار

في دبر كل صلاة الأمان أي من أتى أمر الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله خاضعاً له ، خاشعاً منه ، فله الأمان من بلاء الدنيا ، والبراءة من عذاب الآخرة ، والسلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإضافات ، وتصديق مصاحبهم فيما بينهم ، وصحة معاشرتهم ، فإن أردت أن تضع السلام موضعه وتؤدي معناه فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ، ألا تدنسها بظلمة المعاصي ، واتسلم منك حفظتك ألا تبرمهم وتملئهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ، ثم مع صديقك ، ثم مع عدوك ، فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى ، ومن لا يضع السلام موضعه هله فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاه في الخلق « (١) » .

فصل

افاضة الأنوار على المصلي على قدر صفائه

اعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله وإدائها بالشروط الباطنة المذكورة من الحضور والخشوع والتعظيم والهيبة والحياء سبب لحصول أنوار في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة ، وإنما يفيض منها على كل مصلي على قدر صفائه من كسورات الدنيا ، ويختلف ذلك بالقلة والكثرة والقوة والضعف والجلاء والخفاء ، ويختلف أيضاً بما ينكشف من العلوم ، فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله ، وبعضهم من عجائب أفعاله ، وبعضهم من دقائق علوم المعاملة ، وبعضهم غير ذلك ، وأولى بالظهور والافاضة لكل

شخص ما يهيم به ويكون في طلبه ، وإلى ما ذكرنا من ترتب الافاضات العلوية على الصلاة الخالصة لوجهه الله المؤداة بالشروط المذكورة أشار النبي صلى الله عليه وآله بقوله : « إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده ، وواجهه بوجهه ، وقامت الملائكة من لدن منسكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ، ويؤمنون على دعائه ، وأن المصلي لينشر عليه البر من أعنان السماء إلى مفرق رأسه ، ويناديه مناد لو علم المصلي من يناجي ما التفت ، وأن أبواب السماء تفتح للمصلين ، وأن الله يباهي ملائكته بصدق المصلي » فإن رفع الحجاب وفتح أبواب السماء كناية عن افاضة العلوم الباطنة عليه ، وورد في التوراة : يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يديّ مصلياً با كياً فأنا الله الذي اقتربت من قلبك ، وبالفيت رأيت نوري » ، وورد أن العبد إذا صلى ركعتين عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منهم عشرة آلاف ، وباهى الله به مائة ألف ، وذلك لأن العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود والذكر باللسان وغير ذلك ، وليس للملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين الكل ، بل هذه الأفعال موزعة عليهم ، فبعضهم قائمون لا يركعون إلى يوم القيامة ، وبعضهم ساجدون لا يرفون إلى يوم القيامة ، وهكذا الراكون والقاعدون فإن ما أعطي الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم ، مستمر على حالة واحدة لا تزيد ولا تنقص وليس لهم مرتبة الترقى من درجة إلى أخرى ، وباب المزيد مسدود عليهم ، ولذلك قالوا : « وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ » بخلاف الإنسان فإن له الترقى في الدرجات ، والتقلب في أطوار الكمالات ، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلاة ، قال الله سبحانه : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهي المقرونة بالخشوع ، ثم ختم

أوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً فقال في آخرها : « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » (١) ثم قال في ثمرة تلك الصفات : « أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » فوصفهم بالفلاح أولاً وبوراثته الفردوس آخراً ، فالمصلون هم ورثة الفردوس ، وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه وذنوه بالقلب ، وكل عاقل يعلم أن مجرد حركة اللسان والجوارح مع غفلة القلب لا تنتهي درجته الى هذا الحد .

فصل

ما ينبغي في إمام الجماعة

ينبغي لإمام الجماعة أن يختص من بين القوم بمزيد صفاء القلب ، واقباله الى الله ، والخشوع والتعظيم ، وغير ذلك من الشرائط الباطنة ، لأنه القدوة والجاذب لنفوس الجماعة الى الله ، فما أقبح به أن يكون قلبه غافلاً عن الله ، أو واقعاً في أودية الوسواس الباطلة في الصلاة ، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعاً حاضر القلب معظماً لله سبحانه ، وما أشنع به أن يكون التفات قلبه الى من وراءه من الناس الذين لا يقدرُونَ على شيء من النفع والضرر أكثر من التفات قلبه الى ملائكة الملائكة ، المحيط بالكل الذي حدث بمجرد ارادته العوالم العلوية والسفلية والملك والملكوت ، أو لا يستحي من علام الغيوب أن ينصب نفسه قدوة لامة سيد الرسل صلى الله عليه وآله ، ويحل محل رسول الله صلى الله عليه وآله وأوصيائه الراشدين عليهم السلام وينوب

عنهم ، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من انفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله ، أو لا يخجل عند الله من تماوت حاله بكثرة المأمومين وقتلهم ، فينبغي لكل إمام قوم أن يمتحن نفسه ، فان لم تكن له هذه الصفات الحبيثة فليؤم ، وإلا فليترك ولا يهلك نفسه ، ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بإمامة نفسه كفرحه بإمامة غيره من أمثاله واقارانه ، بل إن كان قصده وفرحه بمجرد إقامة السنة ، وأحياء رسوم الملة فينبغي أن يكون فرحه بإمامة غيره ممن هو مرضي ، والاهتمام به أكثر من إمامة نفسه لحصول المقصود مع السلامة عن الغوائل المحتملة ، وينبغي أيضاً ألا يكون باعته ومحركه إلى المسجد لإمامة القوم إلا القربة ورجاء الثواب ، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث خفي من حب الشهرة والمنزلة في القلوب ، أو الوصول إلى ما ينتظم به معاشه فله الويل والثبور ويكون ممن ضلّ وأضلّ وهلك وأهلك .

فصل

ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين

ينبغي للحاضر إلى صلاة الجمعة والعيدين أن يستحضر أن هذه الأيام أيام شريفة عظيمة ، وأعياد مباركة كريمة قد خص الله بها هذه الأمة ، وجعلها أوقاتاً شريفة لعباده ، ليقرّبهم فيها من جواره ، ويبعدهم من عذابه وناره ، وحنهم فيها على الاقبال بصالح الأعمال ، وتلافي ما فرط منهم في بقية الأيام والشهور من الاهمال ، فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات من التهيؤ والاستعداد للقاء الله ، والوقوف بين يديه ، والمشول في حضرته ،

والفوز بمخاطبته ، فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهرة من التنظيف والتطيب والتعم وحلق الرأس وقص الشارب والأظفار ، وغير ذلك من السنن في تخلص النية ، واحضار القلب ، واكثار الخشوع ، والابتهاال الى الله تعالى في صلاته ، وينبغي أن يحضر قلبه في العيدين من قسمة الجوائز ، وتفرقة الرحمة ، وافاضة المواهب فيها على من قبل صومه وقربانه وقام بوظائفها ، فليكثر في صلاتها وقبلها وبعدها في قبول اعماله والعفو عن تقصيراته ، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد ، وخذلان الطرد فتخسر صفقته ، وتظهر بعد ذلك حسرته فيفوز الفائزون ، ويسبق السابقون ، وينجو المخلصون وهو يكون من الخائبين الخاسرين .

فصل

ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات

إذا ظهرت الآيات من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها ، وتكور الشمس والقمر وظلمة القيامة ، ووجل الخلائق ، وخوفهم من الأخذ والنكال والعقوبة والاستيصال ، فيكثر في صلاتها من الدعاء والابتهاال بمزيد الخضوع والخشوع والهيبة والخوف في النجاة من تلك الشدائد وردّ النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة ، وينبغي أن يكون منكسر النفس ، مطرق الرأس مستحيياً من التقصير ، مستشعراً بقلبه عظمة الله وجلاله . وباجللة حصول الخوف والخشية والمبادرة الى التضرع والابتهاال واداء الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات من شعار أهل الايمان ، قال سيد الساجدين عليه السلام : « لا يفزع

للآيتين ، ولا يرهب إلا من كان من شيعتنا فان كان ذلك منهما فافرعوا الى الله وراجعوه » ، وقال الرضا عليه السلام : « إنما جعلت للكسوف صلاة لأنه من آيات الله تعالى لا يُدرى الرحمة ظهرت أم لعذاب » فاحب النبي صلى الله عليه وآله أن يفزع امته الى خالفه وراحه عند ذلك ليصرف عنهم شرها ، ويقيهم مكروها كما صرف عن قوم يونس عليه السلام حين تضربوا الى الله تعالى .

المقصر الثالث

الذكر - فضيلة الاذكار - الدعاء

اعلم أنه ينبغي لكل مؤمن أن يكثر من الذكر والدعاء لاسماء تقيب الصلاة المفروضة ، وقد ورد في فضائلها من الآيات والأخبار ما لا يمكن احصاؤه ، ولاشتمارها لا حاجة الى ذكرها هنا .

فصل

الذكر

أما الذكر فالنافع منه هو الذكر على الدوام ، أو في أكثر الأوقات مع حضور القلب ، وفراغ البال ، والتوجه السكلي الى الخالق المنعالي حتى يتمكن المذكور في القلب ، وتتجلي عظمته الباهرة عليه ، وينشرح الصدر بشروق نوره عليه ، وهو غاية ثمرة العبادات ، والذكر أول وآخر ، فاوله يوجب الأانس والحب ، وآخره يوجب الأانس والحب ، والمطلوب منه ذلك الحب والأانس ،

فإن العبد في بداية الأمر يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس والفضول إلى ذكر الله ، فإن وفق للمداومة أنس به وانفرد في قلبه حب المذكور ، ومن أحب شيئاً أكثر ذكره ، ومن أكثر ذكر شيء وإن كان تكلفاً أحبه ، ومن هنا قال بعضهم : « كادت القرآن عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة » ولا تصدر النعم إلا من الانس والحب ولا يصدر الانس والحب إلا من المداومة على المكاءة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعاً ، وكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أولاً ، ويكأثد أكله ، ويواظب عليه فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يصبر عنه ، فالنفس تصير معتادة متحملة لما تكلفت « هي النفس ما عودتها تتعود » .

ثم إذا حصل الانس بذكر الله انقطع عن غير الله وما سوى الله يفارقه عند الموت ، ولا يبقى إلا ذكر الله ، فإن كان قد انس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه ، إذ ضرورات الحاجات في الحياة تصدّ عن ذكر الله ، ولا يبقى بعد الموت عائق فكأنه خُلّي بينه وبين محبوبه ، فمظمت غبطته ، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه عما به انسه ، وهذا الانس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل في جوار الله ، ويترقى من الذكر إلى اللقاء ، قال الصادق عليه السلام : « من كان ذا كراً لله على الحقيقة فهو مطيع ، ومن كان غافلاً عنه فهو عاص ، والطاعة علامة الهداية ، والمعصية علامة الضلالة ، واصلهما من الذكر والغفلة ، فاجعل قلبك قبلة للسانك ، ولا تحركه إلا بإشارة القلب ، وموافقة العقل ، ورضا الايمان فإن الله تعالى عالم بسرّك وجهرك ، وكن كالنازع روحه ، أو كالواقف في العرض الأكبر غير شاغل نفسك عما عنك مما كلفك به ربك في أمره ونهيهِ ووعده ووعيدهِ ، ولا تشغلها بدوئ

ما كلفك به ربك ، واغسل قلبك بماء الحزن ، واجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره تعالى إياك فإنه ذكرك وهو غني عنك ، فذكره لك أجل واشهى واثنى واتم من ذكرك له واسبق ، ومعرفتك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار ويتولد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق ، وتصفّر عند ذلك طاعتك وإن كثرت في جنب منتسه ، وتخلص لوجهه ، ورؤيتك ذكرك له يورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة في خلقه ، واستكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه ، ولا تزدد بذلك من الله تعالى إلا بعداً ، ولا تستجلب به على مضي الأيام إلا وحشة ، والذكر ذكران : ذكر خالص بموافقة القلب ، وذكر صارف لك ينفي ذكر غيره كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا لا احصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، فرسول الله صلى الله عليه وآله لم يجعل لذكره الله عز وجل مقداراً عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره ، وامن دونه أولى ، فمن أراد أن يذكر الله تعالى فليعلم أنه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره لا يقدر العبد على ذكره (١)

تتميم

فضيلة الأذكار

الأذكار كثيرة كالتلهيل والتسبيح والتحميد والتكبير والحوالة

- (١) الحديث المذكور في مصباح الشريعة الباب الخامس ص ١٣٦ .
وفي المستدرک المجلد الأول . كتاب الصلاة . ابواب الذكر ص ٤٠١ وفي
الموضعين اختلاف يسير فصحيحناه على مصباح الشريعة الموضع المذكور .

والتسميحات الأربع وأسماؤه الحسنى وغير ذلك ، وقد وردت في فضيلة كل منها أخبار كثيرة ، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس ، وانسراح الصدر ، وكلما كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والكمال فهي أفضل ، ولذا صرحوا بأن أفضل الأذكار التهليل لدلالته على توحده في الألوهية واستناده لكل إليه ، وربما كان بعض أسماء الله تعالى في مرتبته أدل ، والعارف السالك إلى الله يعلم أنه قد ينبعث في القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكلامه ما لا يمكن التعبير عنه باسم .

فصل

الدعاء

وأما الدعاء فهو مخ العبادة ، ولذا ورد في فضله ما ورد من الآيات والأخبار ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها ، والأدعية المأثورة كثيرة مذكورة في كتب الدعوات ، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة إلا وقد وردت به أدعية ، فمن أراد شيئاً منها فليأخذ من مواضعها .
ومما ينبغى لكل داع أن يراعى شرائط وآداب في الدعاء حتى يستجابه ، ويصل إلى فائده ، وتحصل لنفسه نورانية ، وهي أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة ، والأحوال الشريفة ، والأماكن المباركة المشرفة ، وأن يدعو متطهراً ، مستقبل القبلة ، رافعاً يديه بحيث يرى باطن إبطيه ، وأن يخفض صوته بين الجهر والإخفات ، ولا يتكلف السجع في الدعاء ، ويكون في غاية التضرع والخشوع والرهبة ، وأن يجزم ويتيقن إجابة دعائه ، ويصدق رجاءه فيه ، وأن يلحّ

في الدعاء ، ويكرره ثلاثاً ، ويفتح الدعاء بذكر الله وتمجيده ، ولا يبتدىء
بالسؤال ، وأن يتوب ويرد مظالم العباد ، ويقبل على الله بكنهه الهمة وهو
السبب القريب للإجابة ، وأن يكون مطعمه وملبسه من الحلال وهو أيضاً من
عمدة الشرائط ، وأن يسمي حاجته ، ويعم في الدعاء ، ويبكي عنده وهو
أيضاً سيد الآداب ، وأن يتقدم في الدعاء قبل الحاجة إليه ، وألاً يعتمد في حوائجه
على غير الله تعالى ، قال الصادق عليه السلام : « احفظ ادب الدعاء ، وانظر
من تدعو ، وكيف تدعو ، ولماذا تدعو ، وحقق عظمة الله وكبريائه ، وعان
بقلبك علمه بما في ضميرك واطلاعه على شرك وما تكن فيه من الحق والباطل ،
واعرف طرق نجاتك وهلاكك كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت
تظن أن فيه نجاتك ، قال الله تعالى : « وَيَدْعُوا إِلَّا إِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً » (١) وتفكر ماذا تسأل ولماذا تسأل ، والدعاء
استجابة الكل منك للحق ، وتدويب المهجة في مشاهدة الرب ، وترك
الاختيار جميعاً ، وتسليم الأمور كلها ظاهرها وباطنها الى الله تعالى ، فإن
لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة فانه يعلم السر وأخفى ، فلعلمك تدعوه بشيء
قد علم من شرك خلاف ذلك واعلم أنه لو لم يكن الله أمرنا بالدعاء لكننا اذا اخلصنا
الدعاء تفضل علينا بالإجابة ، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء ، وسئل
رسول الله صلى الله عليه وآله عن اسم الله الأعظم ، فقال : « كل اسم من أسماء الله اعظم ،
ففرغ قلبك عن كل ماسواه ، وادعه باي اسم شئت فليس في الحقيقة لله اسم دون ،
بل هو الله الواحد القهار ، وقال النبي صلى الله عليه وآله : إن الله لا يستجيب
الدعاء من قلب لاه ، فاذا اتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء ، واخلصت

سرّك لو جهه فابشر باحدى ثلاث : إما أن يجعل لك بما سألت ، وإما أن يدخلك بما هو أفضل منه ، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله عليك لهلكت » (١) ، وسئل من الصادق عليه السلام : ما لنا ندعو ولا يستجيب لنا ؟ فقال : « لأنكم تدعون من لا تعرفونه ، وتسالون من لا تفهمونه ، فالاضطراب عين الدين ، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان لأن من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسرّه تحت قدرة الله حكم على الله بالسؤال ، وظن أن سؤاله دعاء ، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى . »

المفصل الرابع

تلاوة القرآن

اعلم أنه لا حدّ لثواب تلاوة القرآن ، والأخبار الواردة في عظم أجره ووفور ثوابه لا تحصى كثرة ، وكيف لا يعظم أجره وهو كلام الله حامله روح الأمين الى سيد المرسلين ، فتأمل أن الكلام الصادر من الله بلا واسطة إذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته ، ومن حيث المعنى متضمناً لاصول حقائق المعارف والمواعظ والأحكام ، ومخبراً عن دقائق صنع الله وعن مغيبات الأحوال والقصص الواقعة في سوائف الفرون والأعوام ، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس . وبالجملة العقل والنقل والتجربة شواهد متظاهرة على عظم

(١) الحديث المذكور في مصباح الشريعة . الباب التاسع عشر

ص ١٤٥ - ١٤٦ . وفيه اختلاف كثير عما هنا فصحيحناه على المصباح

الموضع المذكور .

نواب تلاوة القرآن ، والأخبار الواردة فيه مشهورة فلا حاجة الى ذكرها فلنشر الى بعض ما يتعلق بالتلاوة من الآداب الظاهرة والباطنة .

أما الآداب الظاهرة فالوضوء والوقوف على هيئة الأدب والطمأنينة إما قائماً أو جالساً مستقبل القبلة ، مطرقاً رأسه غير متربع ولا متسكي ، والتركيل والبكاء ، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء ، وإلا فالسر أفضل ، وتحسين القراءة وتنزيهاً ، ومراعاة حق الآيات ، فإذا مرّ بآية السجود سجد ، وإذا مرّ بآية العذاب استعاذ منه بالله ، وإذا مرّ بآية الرحمة ونعيم الجنة سأل الله تعالى أن يرزقه ، وإذا مرّ بآية تسبيح أو تكبير سبح وكبر ، وإذا مرّ بآية دعاء أو استغفار دعا واستغفر ، وافتتاح القراءة بقوله أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأن يقول عند الفراغ من كل سورة صدق الله العلي العظيم وبلغ رسوله الكريم اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه والحمد لله رب العالمين .

* * *

وأما الآداب والأعمال الباطنة (فمنها) فهم عظمة الكلام وعلمه ، وفضل الله تعالى واطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله الى درجة افهام خلقه ، فليتنظر كيف لطف بخلقه في ائصال معاني كلامه الذي هو صفة قائمة بذاته الى افهام خلقه وكيف تجلّت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر ، إذ يعجز البشر عن الوصول الى فهم صفات الله إلا بوسيلة صفات نفسه ، ولولا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع كلامه عرش ولا ثرى ، ولا شيء ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره ، واولا تثبت الله موسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادي تجليته حيث صار دكاً ، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حدّ فهم الخلق ، ولهذا سبّرعنه بعض العارفين فقال :

« إنَّ كلَّ حرفٍ من كلام الله في اللوح أعظم من جبل قاف ، وإنَّ الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن ينقلوه ما اطاقوه حتى يأتي اسرافيل وهو ملك اللوح فيرفعه ، فنقله باذن الله ورحمته لا بقوته وطاقته » ، وايصال معاني الكلام مع علو درجته الى فهم الانسان مع قصور رتبته تشابه من درجة تصويت الانسان البهائم والطيور ، فإن الانسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور ما يريد من اقبالها وادبارها وتقديمها وتأخيرها وكان تمييزها قاصراً عن فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبدع نظمه فينزل الى درجة تمييز البهائم ، ويوصل مقاصده اليها بأصوات لا ثقة بها من النفير والصفير والأصوات القريبة من أصواتها يطيقون حملها ، وكذلك الناس لما كانوا عاجزين عن حمل كلام الله بكنهه وكمال صفاته فتنزل من عرش العظمة والجلال الى درجة أفهامهم فتجلى في مظاهر الأصوات والحروف ، وقد يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوة فيه ، فكما أن بدن البشر يكرم ويعزز لمكان الروح ، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها ، والكلام عالي المنزلة ، رفيع الدرجة ، قاهر السلطان ، نافذ الحكم في الحق والباطل ، وهو القاضي العادل يأمر وينهى ، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة ، كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس ، ولا طاقة للناس أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم ينالون منها ما تقدر به ابصارهم ويستدلون به على حوائجهم ، فالكلام كالملك المحجوب الغائب وجهه ، المشاهد أمره ، فهو مفتاح الخزان النفيسة ، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت ، ودواء الأسقام الذي من سقي منه لم يسقم .

ومنها تعظيم المتكلم ، فينبغي للقارئ عند الابتداء بالتلاوة أن يحضر في قلبه

عظمة المتكلم ، ويعلم أنه ليس من كلام البشر ، بل هو كلام خالق الشمس والقمر ، وفي تلاوة كلامه غاية الخطر ، إذ كما لا ينبغي أن تمس جلده وورقه وحروفه البشرية المستقدرة بخبث أو حدث فكذلك لا ينبغي أن تقرأه الألسنة المستخبثة بقبائح الكلمات ، وألا تحوم حول معناه القلوب المكدره برذائل الأخلاق والصفات ، فكما أنه لا يصلح لمس ظاهر خطه كل يد بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان منزهاً فكذلك لا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ، ولا لنيل معانيه كل قلب ، بل باطن معناه لعلوه وجلاله ، محجوب عن باطن القلوب إلا إذا كانت منقطعة عن كل رجس مستنيرة بنور التعظيم والتوقير . وبالجمله ينبغي ألا تترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له ليتحقق تعظيم الكلام أيضاً ، إذ تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم ، وأولم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه فليرجع الى التفكير في صفاته وأفعاله ، ويستحضر أن المتكلم هو الذي أوجد وأظهر بمجرد ارادته كل ما يشاهده ويسمعه من العرش والكرسي والسموات والأرضين وما فيها وما تحتها وما فوقها ، وأنه الخالق والرازق للجميع ، والكل في قبضة قدرته مسخر أسير ، ومردد بين فضله ورحمته ، وبين نعمته وخطوته وجميع ذلك لا نسبة له الى عوالم المجررات ، فالتفكر في أمثال ذلك يوجب استشعار القلب لعظمة المتكلم والكلام ، ومثل هذا التعظيم كان بعضهم إذا نشر المصحف للتلاوة غشي عليه ويقول : هو كلام ربي ، هو كلام ربي ! .

ومنها الخضوع والرقعة قال الصادق عليه السلام : من قرأ القرآن ولم يخضع ولم يرق قلبه ، ولا ينشئ حزناً ووجلاً في سرّه فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى ، وخسر خسراناً مبيناً ، فقارى القرآن محتاج الى ثلاثة أشياء : قلب خاشع ، وبدن فارغ ، وموضع خال ، فإذا خشع لله قلبه فرّ منه الشيطان

الرجيم ، قال الله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (١) ، فإذا تفرغ نفسه من الأسباب تجرد قلبه للقراءة فلا يعرضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده ، فإذا اتخذ مجلساً خالياً واعتزل عن الخلق بعد أن أتى بالخصلتين : خضوع القلب وفراغ البدن ، استأنس روحه وسره بالله عز وجل ، ووجد حلاوة مخاطبات الله عز وجل عبادة الصالحين وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم بفنون كراماته ، وبدائع اشاراته ، فأبى شرب كأساً من هذا المشرب حينئذ لا يختار على ذلك الحال حالاً ، ولا على ذلك الوقت وقتاً ، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة لأن فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة ، فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك ، وكيف تجيب أوامره ونواهيه ، وكيف تمثل حدوده « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » (٢) فرتله ترتيلاً ، وقف عند وعده ووعيده ، وتفكر في أمثاله ومواعظه ، واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده (٣) .

ومنها حضور القلب ، وترك حديث النفس وهو يترتب على التعظيم فإن من يعظم شيئاً كلاماً كان أو غيره يستبشر ويستأنس به ولا يغفل عنه ، ولا ريب في أن القرآن يشتمل على ما يستأنس به القلب ، وتفرح به النفس إن كان التالي أهلاً له .

ومنها التدبر وهو زائد على حضور القلب ، إذ التالي ربما لم يتفكر في غير القرآن ولـكنه اقتصر على سماعه من نفسه من دون تدبر فيه ، والمقصود من تلاوة

(١) النحل الآية ١٠٠ . (٢) فصلت الآية ٤١ - ٤٢ .

(٣) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة الباب ١٤ ص ١٤٢ .

القرآن التدبر فيه في الباطن ، قال الله سبحانه : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ
أُمَّ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » (١) ، وقال امير المؤمنين عليه السلام : « لا خير في
عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها » ، وإذا لم يتمكن من التدبر
إلا بالترديد فليردد ، ولذلك كان الأكابر كثيراً ما يكررون بعض الآيات
مرات كثيرة للتدبر فيها ، وربما يقفون عند آية مدة مديدة ، وقال بعضهم :
« لي في كل جمعة ختمة ، وفي كل شهر ختمة ، وفي كل سنة ختمة ، ولي ختمة
منذ ثلاثين ما فرغت منها بعد » ، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه .

ومنها التفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل
على ذكر صفاته تعالى ، وذكر أفعاله ، وذكر الجنة والنار ، وأحوال النشأة
الآخرة ، وذكر أحوال انبيائه وأحوال المكذبين وأنهم كيف أهلكوا ،
وذكر أحكامه وأوامره ونواهيه وغير ذلك ، فإن مرّ بآيات صفاته تعالى
كقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (٢) وكقوله
تعالى : « الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ » (٣) إلى آخر الآية وغير ذلك ،
فليتأمل في معاني هذه الأسماء والصفات لتتكشف له أسرارها المكنونة تحتها ،
ولا تنكشف هذه الأسرار إلا للوحيدين في فهم كتاب الله ، قال امير المؤمنين
عليه السلام : « ما أسرّ إلي رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً كتبه عن
الناس إلا أن يؤتي الله عز وجل عبداً فيها في كتابه » ، وإن مرّ بآيات الأفعال
أي الآيات الحاكية عن خلقه السماوات والأرض وما فيهما من الملائكة والكواكب
والجبال والحيوان والنبات ، وما بينهما من السحب والغيوم والرياح والأمطار

(١) محمد صلى الله عليه وآله الآية ٢٦ .

(٢) الشورى الآية ٩ . (٣) الحشر الآية ٢٣ .

وغير ذلك فليفهم التالي منها عظمة الله وجلاله ، إذ الفعل يدل على الفاعل فعظمته تدل على عظمته ، وينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل ، إذ من عرف الحق رآه في كل شيء ، إذ كل شيء منه وبه واليه وله ، فهو الكل في وحدته ، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، وإن اعتبر من حيث هو ، إذ مع قطع النظر عن الواجب ، وإيجاده لا ذات ولا وجود ، بل محض العدم وعدم المحض ، فذات كل شيء ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلي العظيم ، فإذا قرأ التالي آية تدل على شيء من عجائب صنعته ، وغرائب فعله فليستأمل في تلك العجائب ، ثم يترقى منها إلى أعجب العجائب ، وهي الصفة التي صدرت منها هذه الأعاجيب ، وإذا سمع وصف الجنة والنار وسائر أحوال الآخرة فليذكر أن ما في هذا العالم من النعم والنعيم لا نسبة له إلى ما في عالم الآخرة ، فلينتقل من ذلك إلى عظمة الله تعالى ، وينقطع إليه باطناً ليخلصه من عقوبات تلك النشأة ، ويوصله إلى نعيمها ولداتها ، وإذا سمع أحوال الأنبياء عليهم السلام من تكذيبهم وضربهم وقتلهم فليفهم منه صفة الاستغناء لله تعالى من الرسل والمرسل اليهم ، وأنه لو أهلك جميعهم لا يؤثر في ملكه ، وإذا سمع نصرتهم في الأمر فليفهم قدرة الله وإرادته لنصرة الحق ، وأما أحوال المكذبين وما جرى عليهم من العقوبات وضروب النكال فليستشعر الخوف من سطوته ونقمة ، ويعتبر في نفسه ، ويعلم أنه غفل وأساء الأدب ، واغتر بما أهمل ، فربما تدركه النقمة ، وكذلك إذا سمع الوعد والوعيد والأمر والتهديد ، فلا يمكن استقصاء ما يفهم من القرآن لأنه لا نهاية له ، إذ لا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي » (١) ولكل عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه .

ومنها التخلي عن موانع الفهم وهي التقليد والتعصب لمذهب ، فإن ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنعها عن انعكاس غير معتقدها فيها ، والجمود على تفسير ظاهر ظاناً أن غيره تفسير بالرأي لا يجوز ارتكابه ، وصرف الهمة والفهم الى تحقيق الحروف وما يتعلق بها من الامور المتداولة بين القراء ، فإن قصر التأمل على ذلك مانع من انكشاف المعاني ، والاصرار على الذنوب الظاهرة والباطنة ومتابعة الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحرمان عن انكشاف الاسرار والحقائق فيه وإشراق المعارف الحققة عليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « اذا عظمت امتي الدينار والدرهم تنزع منها هيبة الاسلام ، واذا تركوا الامر بالمعروف وحرموا بركة الوحي » وقد شرط الله تعالى الإنابة في الفهم والتذكر قال الله تعالى : « تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » (٢) وقال تعالى : « وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » (٣) ، وقال تعالى : « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » (٤) .

(ومنها) : التخصيص وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن من الامر والنهي والوعد والوعيد حتى أنه لو سمع قصص الاولين يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتشعر ، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها الفائدة في حق النبي وامته ، ولذلك قال سبحانه : « مَا تُنَبِّئُ

(١) الكهف الآية ١٠٩ . (٢) ق الآية ٨ .

(٣) المؤمن الآية ١٣ . (٤) الرعد الآية ١٩ .

بِهِ فُؤَادَكَ» (١) فَإِنَّ الْقُرْآنَ جَمِيعُهُ هَدًى وَشِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ، وَنُورٌ وَمَوْعِظَةٌ وَإِصْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ ، فَكُلُّ أَحَدٍ إِذَا قَرَأَهُ يَلْبِغِي أَنْ تَكُونَ قِرَاءَتُهُ كَقِرَاءَةِ الْعَبْدِ كِتَابَ
مَوْلَاهُ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْهِ لِيَتَأَمَّلَهُ وَيَعْمَلَ بِمَقْتَضَاهُ ، قَالَ بَعْضُ الْأَكْبَارِ : « هَذَا
الْقُرْآنُ رِسَالٌ أَتَيْنَا مِنْ قَبْلِ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ بِمُحَمَّدٍ بِمُحَمَّدٍ فَنَتَدَبَّرُهَا فِي الصَّلَوَاتِ ،
وَنَقِفُ عَلَيْهَا فِي الْخَلَوَاتِ ، وَنُفِذُهَا فِي الطَّاعَاتِ بِالسَّنَنِ الْمُتَتَابِعَاتِ »

وَمِنْهَا : التَّأَثُّرُ وَهُوَ أَنْ يَتَأَثَّرَ قَلْبُهُ بِآثَارِ مُخْتَلِفَةٍ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ
الْآيَاتِ ، فَيَكُونُ لَهُ بِحَسَبِ كُلِّ فَعْمٍ حَالٌ مِنَ الْخَوْفِ وَالْحُزَنِ وَالْوَجَلَ وَالْوَجْدِ
وَالْفَرَحِ وَالْإِرْتِيَاحِ وَالرَّجَاءِ وَالْقَبْضِ وَالْإِبْسَاطِ ، فَإِذَا سَمِعَ الْوَعِيدَ فَلْيُضْطَرْبْ قَلْبُهُ
وَيَتَضَاعَلْ مِنَ الْخَوْفِ كَأَنَّهُ يَمُوتُ ، وَإِنْ سَمِعَ وَسْعَةَ الرَّحْمَةِ وَوَعْدَ الْمَغْفِرَةِ فَلْيَفْرَحْ
وَيَسْتَبْشِرْ كَأَنَّهُ يُطِيرُ مِنَ الْإِهْتِاجِ ، وَإِذَا سَمِعَ وَصْفَ الْجَنَّةِ فَلْيَنْبَغِثْ بَاطِنَهُ شَوْقًا
إِلَيْهَا ، وَإِذَا سَمِعَ وَصْفَ النَّارِ فَلْيَرْتَدِدْ فِرَائِصَهُ خَوْفًا مِنْهَا ، وَإِذَا سَمِعَ صِفَاتِ اللَّهِ
وَأَسْمَاءَهُ وَنَعْوَتِ جَلَالِهِ فَلْيَتَطَاطَأْ خُضُوعًا لِّجَلَالِهِ ، وَاسْتِشْعَارًا لِعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ ،
وَإِذَا سَمِعَ ذِكْرَ الْكُفَّارِ مَا يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ مِنْ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ وَامْتِلَاحِهِ فَلْيَغْضُ
صَوْتَهُ ، وَيَنْسَكِسْ فِي بَاطِنِهِ حَيَاءً مِنْ قُبْحِ مَقَالَتِهِمْ ، وَقَسْ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَهُ مِنْ
الْآيَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَمَهْمَا تَمَّتِ الْمَعْرِفَةُ كَانَتْ الْخَشْيَةُ أَغْلِبَ الْأَحْوَالِ عَلَى الْقَلْبِ ،
إِذَا التَّضْيِيقُ غَالِبٌ عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ ، إِذَا تَرَى ذِكْرَ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ إِلَّا مَقْرُونًا
بِشُرُوطٍ يَقْصُرُ الْإِكْثَرُونَ عَنْ نَيْلِهَا ، وَلِذَاكَ كَانَ فِي الْخَائِفِينَ مَنْ يَصِيرُ مَغْشِيًا
عَلَيْهِ عِنْدَ اسْتِمَاعِ آيَاتِ الْوَعِيدِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ بِمَجْرَدِ اسْتِمَاعِهَا . وَبِالْجُمْلَةِ الْمَقْصُودُ
الْأَصْلِيُّ مِنَ الْقُرْآنِ اسْتِجْلَابُ هَذِهِ الْأَحْوَالِ إِلَى الْقَلْبِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَإِلَّا فَالْمَوَاقِفَةُ
بِمَحْرِيكِ اللِّسَانِ بِحُرُوفِهِ خَفِيفَةٍ ، وَحَقُّ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ أَنْ يَشْتَرِكَ فِيهَا اللِّسَانُ

والعقل والقلب ، فحفظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحفظ العقل إدراك المعاني ، وحفظ القلب الاتعاظ والتأثر بالحالات المذكورة ، فاللسان واعظ القلب ، والعقل مترجم ، والقلب متعظ .

ومنها : الترقى وهو أن يترقى الى أن يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه ، فدرجات القراءة ثلاث (الأولى) وهي ادناها أن يقدر العبد أنه يقرؤه على الله تعالى واقفاً بين يديه ، وهو ناظر اليه ، ومستمع منه فتكون حاله على هذا التقدير التملق والسؤال والتضرع والابتهاال (الثانية) أن يشهد بقلبه كأن ربه يخاطبه بألفاظه ، ويناجيه باحسانه وإنعامه ، فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والإصغاء (الثالثة) أن يرى في الكلام المتكلم ، وفي الكلمات الصفات ، فلا ينظر الى نفسه والى تلاوته ، ولا الى تعلق الإِنعام به من حيث إنه منعم عليه ، بل يكون مقصور الهم على التكلم ، موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره ، وهذه درجة المقرئين والصدّيقين ، وما قبله من درجات اصحاب اليمين ، وما خرج عن ذلك فهو درجات الغافلين ، وقد اخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء أرواحنا فداه حيث قال عليه السلام : « الذي تجلّى لعباده في كتابه ، بل في كل شيء ، وأراهم نفسه في خطابه ، بل في كل نور » وأشار اليها الامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام حيث قال : « والله لقد تجلّى الله عز وجل لخلقه في كلامه واسكن لا يبصرون » ، وروي أنه لحقته حالة في الصلاة حتى خرّ مغشياً عليه ، فلما سرى عنه قيل له في ذلك فقال عليه السلام : « ما زلت اردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته » ، وفي مثل هذه الدرجة تشتد البهجة ، وتعظم الحلاوة واللذة ، ولذلك قال بعض الحكماء : « كنت اقرأ القرآن فلا أجده

حلاوة حتى تلوته كأني أسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت الى مقام فوقه فكنيت اتلوه كأني أسمع من جبرئيل يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وآله فعندها وجدت لذة ونعما لا اصبر عنه ، وقال حذيفة : « لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن » وذلك لأنها بالطهارة تترقى الى مشاهدة المنكلم في الكلام ، بل التوحيد الخالص للعبد ألا يرى في كل شيء إلا الله ، إذ لو رأى غيره لا من حيث إنه منه وله وبه واليه كان مشركا بالشرك الخفي .

ومنها الثبري وهو أن يتبرى من حوله وقوته ، ولا يلتفت الى نفسه بعين الرضا والتركيب ، فاذا قرأ آيات الوعد ومدح الأخيار فلا يشهد نفسه ولا يدخلها في زميرهم ، بل يشهد أهل الصدق واليقين ، وينشوق الى أن يلحقه الله بهم ، واذا قرأ آيات المقت والوعيد وذم العصاة والمقصرين شهد نفسه هناك ، وقد رآه المخاطب خوفا واشفاقا ، والى هذا أشار مولانا أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال في وصف المتقين : « واذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم في آذانهم » ، فاذا رأى القارىء نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه ، فإن من شهد البعد في القرب لطف له بالخوف حتى يسوقه الى درجة اخرى في القرب وراءها ، ومن شهد القرب في البعد مكر به بالأمن الذي يفضيه الى درجة اخرى في البعد أسفل مما هو فيه ، ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا صار محجوبا بنفسه ، فاذا جاوز حد الالتفات الى نفسه ، ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته ككشف له سر الملكوت بحسب احواله ، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء ، ويغلب على حالة الاستبشار وتنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانا ،

وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها ، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف ، والشديد العسوف ، والمرجو والمخوف ، وذلك بحسب أوصافه ، إذ منها الرحمة واللفظ

ومنها : القهر والبطش والانتقام فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب القلب في اختلاف الحالات ، وبحسب كل حالة منها يستعد للكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ، إذ يتمتع أن يكون حال المستمع واحداً والمسوع مختلفاً ، إذ فيه كلام راض ، وكلام غضبان ، وكلام منعم ، وكلام منتقم ، وكلام جبار متكبر لا يبالي ، وكلام منان متعطف لا يهمل .

المفصل الخامس

الصوم

اعلم أن الصوم أجره عظيم ، وثوابه جسيم ، وما يدل على فضله من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى ، وهي معروفة مشهورة فلا حاجة إلى ذكرها فلنشر إلى ما يتعلق به من الأمور الباطنة .

فصل

ما ينبغي للصائم

ينبغي للصائم أن يفيض بصره عن كل ما يحرم النظر إليه ، أو يكره ، أو يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله تعالى ، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته

المتقدمة ، ويكف السمع عن كل ما يحرم ، أو يكره استماعه ، ويكف بطنه عن الحرام والشبهات ، ويكف سائر جوارحه عن المسكاره ، وقد ورد في اشراط جميع ذلك في الصوم في ترتب كمال الثواب عليه اخبار كثيرة ، وينبغي أيضاً ألا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلئ ، إذ ما من وعاء ابغض الى الله عز وجل من بطن مليء من حلال ، كيف والسرف في شرع الصوم قهر عدو الله ، وكسر الشهوة والهوى لتتقوى النفس على التقوى ، وترتقي من حضيض حظوظ النفس البهيمية الى ذروة التشبيه بالملائكة الروحانية ، وكيف يحصل ذلك اذا تدارك الصائم عند الافطار ما فاتته ضحوة نهاره لا سيما اذا زيد عليه في ألوان الطعام كما استمرت العادات في هذه الأعصار ، وربما يؤكل من الأطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدة شهور ، ولا ريب في أن المعدة اذا خليت من ضحوة النهار الى الغشاء حتى هاجت شهوتها ، وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات ، وأشبعت من ألوان المطاعم ، وجمع ما كان يأكل ضحوة الى ما يأكل ليلاً ، واكل الجميع في الليل مرة أو مرتين أو أكثر زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعثت من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها ، فلا يحصل ما هو المقصود من الصوم أعني تضعيف القوى الشهوية التي هي وسائل الشيطان ، فلا بد من التقليل وهو أن يأكل في مجموع الليلة أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم من دون ضم مما يأكل في النهار اليه حتى ينتفع بصومه ، والحاصل أن روح الصوم وسره والغرض الأصلي منه التخلق بخلق من اخلاق الله تعالى أعني الصمديّة والإقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بقدر الامكان ، وهذا إنما يحصل بتقليل الأكل عما يأكله في غير وقت الصوم ، فلا جدوى لمجرد تأخير أكله وجمع أكلتين

عند العشاء ، ثم لو جعل سرّ الصوم ما يظهر من بعض الظواهر من ادراك الأغنياء ألم الجوع والانتقال منه الى شدة حال الفقراء فيبعضهم ذلك على مواساتهم بالأموال والأقوات فهو أيضاً لا يتم بدون التقليل في الأكل .

فصل

ما يلزم للصائم عند الإفطار

ينبغي لكل صائم أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً ، معلقاً بين الخوف والرجاء إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المفربين ، أو يرد عليه فهو من الممقوتين ، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها ، روي أن الامام ابا محمد الحسن المجتبي عليه السلام مرة يقوم يوم العيد وهم يضحكون فقال عليه السلام : « إن الله تعالى جعل شهر رمضان مضماراً لخلقهِ يستبقون فيه لطاعته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا ، فالمعجب كل المعجب للمضحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون ، وخاب فيه المبطؤون ، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه ، والمسيء عن إساءته » أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب ، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك .

فصل

درجات الصوم

لصوم ثلاث درجات : (الأولى) صوم العموم وهو كف البطن والفرج

عن قضاء الشهوة ، وهذا لا يفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب (الثانية) صوم الخصوص وهو الكف المذكور مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصي ، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع (الثالثة) صوم خصوص الخصوص وهو الكفّان المذكوران مع صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأخلاق الرديّة ، والأفكار الدنيويّة ، وكفه عما سواه بالسكينة ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ماسوى الله واليوم الآخر ، وحاصل هذا الصوم إقبال بكنه الهمّة على الله ، وانصراف عن غير الله ، وتلبس بمعنى قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ » ، وهذا درجة الأنبياء والصديقين والمقرّبين ، ويترتب عليه الوصول الى المشاهدة واللقاء والفوز بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب احد ، والى هذا الصوم أشار مولانا الصادق عليه السلام حيث قال : « قال النبي صلى الله عليه وآله : الصوم جنة أي ستر من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة ، فاذا صمت فانو بصومك كفّ النفس عن الشهوات ، وقطع الهمّة عن خطرات الشياطين ، وأنزل نفسك منزلة المرضى لا تشتهي طعاماً ولا شراباً ، وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب ، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله ، قال رسول الله عليه وآله : قال الله تعالى : الصوم لي وأنا اجزي به ، والصوم يعيت مراد النفس وشهوة الطبع ، وفيه صفاء القلب ، وطهارة الجوارح ، وعمارة الظاهر والباطن ، والشكر على النعم والاحسان الى الفقراء ، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء وحيل الإلتجاء الى الله ، وسبب انكسار الهمّة ، وتخفيف الحساب ، وتضعيف الحسنات ، وفيه من الفوائد

ما لا يحصى ولا يعد ، وكفى بما ذكرناه لمن عقله ووفق لاستعماله « (١) .

تتميم

من صام شهر رمضان إخلاصاً لله وتقرباً إليه ، وطهر باطنه من ذمائم الأخلاق ، وكف ظاهره عن المعاصي والآثام ، واجتنب عن الحرام ولم يأكل إلا الحلال ، ولم يفرط في الأكل ، وواظب على جملة من النوافل والأدعية وسائر الآداب المسنونة فيه استحق للمغفرة والخلاص عن عذاب الآخرة بمقتضى الأخبار المتواترة ، ثم إن كان من العوام حصل له من صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته ، وإن كان من اهل المعرفة فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه فينكشف له شيء من الملكوت لاسيما في ليلة القدر ، إذ هي الليلة التي تنكشف فيها الأسرار ، وتفيض على القلوب الطاهرة الأنوار ، والمناطق والعمدة في نيل ذلك تقليل الأكل بحيث يحس ألم الجوع ، إذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو محجوب عن عوالم الأنوار ، ويستحيل أن ينكشف له شيء من الأسرار .

(١) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة . الباب العشرون . وعلى

المستدرک المجلد الأول . کتاب الصوم ص ٥٨٩ - ٥٩٠

المقصود السادس

الحج

اعلم أن الحج أعظم أركان الدين ، وعمدة ما يقرب العبد الى رب العالمين ، وهو أهم التكاليف الإلهية واثقلها ، وأصعب العبادات البدنية وأفضلها ، وأعظم بعبادة ينعدم ببقدها الدين ، ويساوي تاركها اليهود والنصارى في الخسران المبين ، والأخبار التي وردت في فضيلته ، وفي ذمّ تاركه كثيرة مذكورة في كتب الأخبار ، والأحكام والشرائط الظاهرة له على عمدة الفقهاء ، فلنشر الى الأسرار الخفية ، والأعمال الدقيقة ، والآداب الباطنة التي يبحث عنها أرباب القلوب .

فصل

الغرض من إيجاد الإنسان

إعلم أن الغرض الأصلي من إيجاد الإنسان معرفة الله والوصول الى حبه والانس به ، والوصول اليه بالحب والانس يتوقف على صفاء النفس وتجردها ، فكما صارت النفس أصفى وأشد تجرداً كان انسها وحبها بالله أشد وأكثر ، وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات ، والكف عن اللذات ، والإبتعاد عن الحطام الدنيوية ، وتحريك الجوارح وإيقاعها لأجله في الأعمال الشاقة ، والتجرد لذكره وتوجيه القلب اليه ، ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الأمور ، إذ بعضها إنفاق المال وبذله الموجب

الانقطاع عن الحطام الدنيوية كالزكاة والخمس والصدقات ، وبعضها الكف عن الشهوات واللذات كالصوم ، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب اليه ، وارتكاب تحريك الأعضاء وتعبها كالصلاة ، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الأمور مع الزيادة ، إذ فيه هجران أوطان ، وإتباع ابدان ، وانفاق أموال ، وانقطاع آمال ، وتحمل مشاق ، وتجديد ميثاق ، وحضور مشاعر ، وشهود شعائر ، ويتمحقق في أعماله التجرد لذكر الله ، والاقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات مع كون أعماله أموراً لا تأنس بها النفوس ، ولا تهتدي الى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفو والمروة على سبيل التكرار ، إذ يمثل هذه الاعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فإن سائر العبادات اعمال وأفعال يظهر وجهها للعقل ، فلا تنفس اليها ميل ، وللطبع بها انس .

وأما بعض أعمال الحج كرمي الجمار وترددات السعي فلا حظ للنفس ، ولا انس للطبع فيها ولا اهتداء للعقل الى معانيها ، فلا يكون الاقدام عليها إلا مجرد الامر وقصد الامتثال له من حيث إنه امر واجب الاتباع ، ففيها عزل العقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل انسه فإن كل ما ادرك العقل معناه مال الطبع اليه ميلاً ، فيكون ذلك الميل معيناً للامتثال فلا يظهر به كمال الرق والالتقياد ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله في الحج على الخصوص : « لبيك بحجة حقاً وتعبداً ورقاً » ولم يقل ذلك في غيره من العبادات ، فمثل هذه العبادة أي ما لم يهتد العقل الى معناه ووجهه ابلغ انواع العبادات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطبع والبغي الى الاسترقاق ، فتعجب بعض الناس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الجهل بأسرار التعبدات،

وهذا هو السر في وضع الحج مع دلالة كل عمل من أعماله على بعض أحوال الآخرة ، أو في بعض أسرار آخر كما يأتي ما فيه من اجتماع أهل العالم في موضع تكرر فيه نزول الوحي ، وهبوط جبرئيل ، وغيره من الملائكة المقرّبين على رسوله المكرم ، ومن قبله على خليله المعظم عليهما أفضل الصلاة ، بل لا يزال مرجعاً ومنزلاً لجميع الأنبياء من آدم إلى خاتم ، ومهبطاً للوحي ، ومحلّ انزول طوائف الملائكة ، وقد تولد فيه سيد الرسل صلى الله عليه وآله وتوطأت أكثر مواضع قدمه الشريفة وأقدام سائر الأنبياء ، ولذلك سمي بالبيت العتيق ، وقد شرفه الله تعالى بالاضافة الى نفسه ، ونصبه مقصداً لعباده ، وجعل ما حواليه حرماً لبيته ، وتفخيماً لأمره ، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمة ، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وقطع شجره ، ووضع على مثال حضرة الملوك فقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق ، شعناء غبراء متواضعين لرّب البيت ، ومستكنين له خضوعاً لجلاله ، واستكانة لمزته وعظمته مع الاعتراف بتنزهه عن أن يحومه بيت أو يكتنفه بلد ، ولا ريب في أن الاجتماع في مثل هذا الموضع مع ما فيه من حصول الموائمة والمصاحبة ومجاورة الأبدال والأتواد والأخيار المجتمعين من أقطار البلاد ، وتظاهرهم ، وتعاون النفوس على التضرع والابتهال والدعاء الموجب لسرعة الاجابة بذكر النبي صلى الله عليه وآله واجلاله ، ونزول الوحي عليه ، وغاية سعيه واهتمامه في إعلاء كلمة الله ونشر احكام دينه ، فتحصل الرقة للقلب ، والصفاء للنفس ، ثم لكون الحج أعظم التكليفات لهذه الأمة جعل بمنزلة الرهبانية في الملل السالفة ، فان الامم الماضية اذا أرادوا العمل لأصعب التكليف واشقها على النفس انفردوا عن الخلق ، وانحازوا الى قلل الجبال ، وآثروا

التوحش عن الخلق بطلب الانس بالله ، والتجرد له في جميع الحركات والسكنات فتركوا اللذات الحاضرة ، وألزموا أنفسهم الرياضات الشاقة طمعاً في الآخرة ، وقد اثني الله عليهم في كتابه وقال : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيْنَ رُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » (١) ، وقال تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » (٢) ولما اندرس ذلك واقبل الخلق على اتباع الشهوات ، وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى ، وفروا عنها بعث الله تعالى من سرّة البطحا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لأحياء طريق الآخرة ، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها فسأله أهل الملل من الرهبانية والسياسة في دينه فقال صلى الله عليه وآله : « ابدلنا بالرهبانية الجهاد ، والتكبير على كل شرف - يعني الحج - ، وابدلنا بالسياسة الصوم » فأنعم الله على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فهو بازاء اعظم التكاليف والطاعات في الملل السابقة .

فصل

ما ينبغي في الحاج

ينبغي للحاج عند توجهه الى الحج مراعات امور : (الاول) أن يجرّد نيته لله بحيث لا يشوبها شيء من الأغراض الدنيوية ، ولا يكون باعثه على التوجه الى الحج إلا امتثال أمر الله ، ونيل ثوابه ، والاستخلاص من عذابه ، فليحذر كل الحذر أن يكون له باعث آخر مكنون في بعض زوايا قلبه كالرياء والحذر عن ذم الناس وتفسيرهم لولا يحج ، أو الخوف من الفقر وتلف أمواله

لو ترك الحج لما اشتهر من أن تارك الحج يبتلى بالفقر والادبار ، أو قصد التجارة أو شغل آخر ، فإن كل ذلك يخرج العمل من الإخلاص ، ويحجبه عن الفائدة وترتب الثواب الموعود ، وما أجهل من تحمل الأعمال الشاقة التي يمكن أن تحصل بها سعادة الأبد لأجل خيالات فاسدة لا يترتب عليها سوى الخسران فائدة ، فيجتهد كل الجهد أن يجعل عزمه خالصاً لوجه الله ، بعيداً عن شوائب الريا والسمعة ، ويتيقن أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص ، وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمة والمقصود غيره ، فليصحح في نفسه العزم ، وتصحيحه بإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة (الثاني) أن يتوب الى الله تعالى توبة خالصة ، ويرد المظالم ، ويقطع علاقة قلبه عن الالتفات الى ما وراءه ليسكون متوجهاً الى الله بوجه قلبه ، ويقدر أنه لا يعود ، وليكتب وصيته لأهله وأولاده ، ويتهيا لسفر الآخرة ، فإن ذلك بين يديه على قرب ، وما تقدمه من هذا السفر تهية لأسباب ذلك السفر فهو المستقر واليه المصير ، فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك عند الاستعداد لهذا ، فليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة (الثالث) أن يعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت ، ويعلم أنه ترك الأهل والأوطان ، وفارق الأحبة والبلدان ، للعزم على أمر رفيع شأنه ، خطير أمره ، اعني زيارة بيت الله الذي جعل مثابة للناس ، فسفره هذا لا يضاهي أسفار الدنيا ، فليحضر في قلبه ما ذا يريد ، وأين يتوجه وزيارة من يقصد ، وأنه متوجه الى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين اليه الذين نودوا فأجابوا ، وشوقوا فاشتاقوا ، ودعوا فقطعوا العلائق ، وفارقوا الخلائق ، وأقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شأنه تسلياً بلقاء البيت عن لقاء صاحبه الى أن يرزقوا منتهى مناهم ، ويسعدوا بالنظر الى مولاهم ، فليحضر

في قلبه عظم السفر ، وعظمة البيت ، وجلالة رب البيت ، ويخرج معظماً
لها ناوياً إن لم يصل وادركته المنية في الطريق اتى الله وافداً اليه بمقتضى وعده
(الرابع) أن يخلي نفسه عن كل ما يشغل القلب ، ويفرق الهم في الطريق ،
أو المقصود ، من معاملة أو مثلها حتى يكون الهم مجرداً لله ، والقلب مطمئناً
منصرفاً الى ذكر الله وتعظيم شهابه ، متذكراً عند كل حركة وسكون أصراً
أخروياً يناسبه (الخامس) أن يكون زاده جلالاً ويوسع فيه ويطيبه ، ولا يفتن
ببذله وإنفاقه بل كان طيب النفس به ، إذا انفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل
الله والدرهم منه بسبعائة درهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من شرف
الرجل أن يطيب زاده إذا خرج في سفر » ، وكان السجادة عليه السلام إذا
سافر الى الحج يتزود من أطيب الزاد من اللوز والسكر والسويق المحمض والحلا ،
وقال الصادق عليه السلام : « إذا سافرت فأتخذوا سفرة وتنوقوا فيها » ، وفي
رواية أنه يكره ذلك في زيارة الحسين عليه السلام ، نعم ينبغي أن يكون الإنفاق
على الإقتصاد من دون تقتير ولا إسراف ، والمراد بالإسراف التمتع بأطائب
الاطعمة ، والترفع بصرف أنواعها على ما هو عادة المترفين ، وأما كثرة البذل
على المستحقين فلا إسراف فيه إذ لا خير في السرف ، ولا سرف في الخير ،
وينبغي أيضاً أن يكون له طيب النفس فيما أصابها من خسران ومصيبة في مال
وبدن لأن ذلك من دلائل قبول حجه ، فإن ذهب المال في طريق الحج بعد
الدرهم منه سبعائة في سبيل الله ، فالمصيبة في طريق الحج بمثابة الشدائد في طريق
الجهاد فله بكل أذى احتمله ، وخسران أصابه ثواب فلا يضيع منه شيء عند الله
(السادس) أن يحسن خلقه ويطيب كلامه ، ويكثر تواضعه ، ويجتنب
سوء الخلق والغلظة في الكلام ، والرفث والفسوق والجدال ، والرفث اسم

جامع لكل فحش ولفو وخنى ، والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله ، والجدال هو المبالغة في الخصومة والمارة بما يورث الضغائن ، ويفرق الهم ، ويناقض حسن الخلق ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » فقل يا رسول الله ما برّ الحج قال : « طيب الكلام وإطعام الطعام » فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجسماله وعلى غيرها من أصحابه ، بل يلين جانبه ، ويخفض جناحه للسايرين إلى بيت الله ، ويلزم حسن الخلق ، وليس حسن الخلق مجرد كفّ الأذى بل احتمال الأذى ، وقيل سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال . (السابع) أن يكون أشعث أغبر غير مترين ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثف فيكتب في المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين ويمشي إن قدر خصوصاً بين المشاعر ، وفي الخبر : « ما عبد الله بشيء أفضل من المشي » وينبغي ألا يكون الباعث للمشى تقليل النفقة بل التعب والرياضة في سبيل الله ، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار فالركوب أفضل ، وكذا الركوب أفضل لمن ضعف بالمشي وساء خلقه وقصر في العمل ، ففي الخبر : « تركبون أحب إليّ فإن ذلك أقوى على الدعاء والعبادة » ، وكان الحسن بن علي عليها السلام يمشي وتساق معه المحامل والرحال . وإذا حضرت الراحة ليركبها فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخيره له الدواب لتتحمل عنه الأذى ، وتخفف عنه المشقة ، وينبغي أن يرفق بها فلا يحملها ما لا تطيق .

فصل

الميعقات

إذا خرج عن وطنه ودخل الى البادية متوجهاً الى الميعقات وشاهد العقبات ، فليترك فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت الى ميعقات يوم القيامة ، وما بينهما من الاهوال والمطالبات ، وليترك من هول قطاع الطريق هول منكر ونكير ، ومن سباع البوادي وحياتها وعقاربها حيات القبر وأفاعيها وعقاربها وديدانها ، ومن إنفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر ووحدته وكرهته ، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر .

فصل

ما ينبغي في الميعقات

إذا دخل الميعقات ولبس ثوبي الإحرام ، فليترك عند لبسها لبس الكفن ولفه فيه ، وأنه سيلقى الله ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة ، فكما لا يلقى بيت الله إلا بهيئة وزى يخالف عادته فكذلك لا يلقى الله بعد الموت إلا في زي يخالف زي الدنيا ، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب اذ ليس مخيطةً كما أن الكفن ايضاً ليس مخيطةً ، واذا أحرم وتلبى فليعلم أن الإحرام والتلبية اجابة نداء الله ، فليرج أن يكون مقبولاً ، وليخش أن يكون مردوداً فيقال لا لبيك ولا سعديك ، فليكن بين الخوف والرجاء متردداً ، وعن حوله وقوته متبرأ ،

وعلى فضل الله وكرمه متسكلاً ، فان وقت التلبية هو بداية الأمر وهو محل الخطر ، وقد روي أن علي بن الحسين عليهما السلام لما أحرم واستوت به راحلته أصفر لونه وانتقص ، ووقعت عليه الرعدة ، ولم يستطع أن يلبي فقبل له لم لا تلبي فقال : « أخشى أن يقول ربي لا لبيك ولا سعديك » فلما لبي غشي عليه ومقط من راحلته فلم يزل يمتريه ذلك حتى قضى حجه فليندكر الملهي عند رفع الأصوات في الميقات خائفاً راجياً أنه إجابة لنداء الله تعالى إذ قال تعالى : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكُّلْ رِجَالاً » (١) ويتذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم من القبور ، وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله ومنقسمين الى مقربين ومباعدين ومقبولين ومردودين ، ومرددين في اول الامر بين الخوف والرجاء مثل تردد الحاج في الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا .

فصل

ما ينبغي عند دخول مكة

ينبغي أن يتذكر عند دخول مكة أنه قد انتهى الى حرم من دخله كان آمناً ، ويرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله ، وليضطرب قلبه من ألا يكون أهلاً للتقرب والقبول فيكون بدخول الحرم خائفاً مستحقاً للعقوبة ، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً ، إذ شرف البيت عظيم ، ورب البيت كريم ، والرحمة واسعة ، والفيوضات نازلة ، وحق الزائر منظور ، واللائد المستجير غير مردود ، وإذا وقع البصر على البيت فليحضر في قلبه عظمته ،

ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت أشدة تعظيمه ، وإيرج أن يرزقه لقاءه كما رزقه لقاء بيته ، وليشكر الله على تبليغه آياه الى بيته ، والحاقه إياه بزمرة الوافدين اليه ، ويتمدكر عند ذلك ايصاب الخلائق الى جهة الجنة آمليين لدخولها كافة ثم انقسامهم الى مأذونين في الدخول ومصرفين عنها إنقسام الحاج الى مقبولين مردودين .

فصل

ما ينبغي عند الطواف

وينبغي عند الطواف أن يمتلىء قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء ويعلم إنه في الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش ، وليعلم إن المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت دون مجرد طواف جسمه بالبيت ، فليبتدىء الذكر به ويختم به كما يبتدأ الطواف من البيت ويختم بالبيت ، فروح الطواف وحقيقته هو طواف القلب بحضرة الربوبية ، والبيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر ، وهو عالم الغيب وعالم الملك والشهادة مدرجة الى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب ، وما ورد من أن البيت المعمور في السماوات بإزاء الكعبة وأن طواف الملائكة بها كطواف الإنس بهذا البيت ربما كان إشارة الى ما ذكرناه من المماثلة ، ولما قصرت رتبة الآخرين عن مثل ذلك الطواف أمرُوا بالتشبه بهم بقدر الامكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم .

فصل

ما ينبغي عند إستلام الحجر

ينبغي أن يتذكر عند إستلام الحجر الأسود أنه بمنزلة يمين الله في أرضه وفيه موثيق العباد ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استلموا الركن فإنه يمين الله في خلقه » ، يضاف بها خلقه مصافحة العبد أو المخلوق ، ويشهد لمن استلمه بالموافاة « ومراده صلى الله عليه وآله بالركن الحجر الأسود لأنه موضوع فيه وإنما شبه باليمين لأنه واسطة بين الله وبين عباده في النيل والوصول والتعجب والرضا كاليمين حين التصافح ، وقال الصادق عليه السلام : « إن الله تبارك وتعالى لما أخذ موثيق العباد أمر الحجر فالتقمها فلذلك يقال أمانتي اديتها ، وميثاقي عاهدته لتشهد لي بالموافاة » ، وقال عليه السلام : « الركن اليماني باب من أبواب الجنة لم يغلقه الله منذ فتحه » ، وقال عليه السلام : « الركن اليماني بابنا الذي يدخل منه الجنة » ، وفيه نهر من الجنة تلقى فيه أعمال العباد « قيل إنما شبه بباب الجنة لأن إستلامه وسيلة الى وصولها ، وبأنهر لأنه تغسل به الذنوب » ، ثم لتكن النية في الاستسلام والالتصاق بالمستجار ، بل المماساة لكل جزء من البيت طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت ، ونمسا وتبركاً بالمماساة ، ورجاءاً للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت ولتسكن نيته في التعلق بأستار البيت الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمقصر المتعلق بتياب من قصر في حقه المتضرع اليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ منه إلا اليه ، ولا مفزع إلا عفوه وكرمه ، وأنه لا يفارق ذيله حتى يعفو عنه ، ويعطيه الأمان في المستقبل .

فصل

السمي

السمي بين الصفا والمروة في فناء البيت يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائئياً وذاهباً مرة بعد أخرى ، إظهاراً للخلاص في الخدمة ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحمه في الثانية إن لم يرحمه في الأولى ، ولينذركر عند ترده التردد بين السكفتين ناظراً الى الرجحان والنقصان ، مردداً بين العذاب والغفران .

فصل

ما ينبغي عند الوقوف بعرفات

وأما الوقوف بعرفات فليتذكر بما يرى من إزدحام الخلق ، وارتفاع الأصوات ، واختلاف اللغات ، واتباع الفرق أئمتهم في التردد على المشاعر عرصات يوم القيامة وأهوالها وانتشار الخلائق فيها حيارى ، واجتماع الامم مع الأنبياء والأئمة ، واقتفاء كل أمة نبيهم وطمعهم في شفاعته لهم ، وتحريرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول ، وإذا تذكر ذلك فليتضرع الى الله تعالى ويبتهل اليه ليقبل حجه ويحشره في زمرة الفائزين المرحومين ، وينبغي أن يحقق رجاءه إذ اليوم شريف ، والموقف عظيم ، والنفوس من أقطار الأرض

فيه مجتمعة ، والقلوب الى الله سبحانه منقطعة ، والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة ، وبواطن العباد على التضرع والابتهاال متعاونة ، وايديهم الى حضرة الربوبية مرتفعة ، وابصارهم الى باب فيضه شاخصة ، وأعناقهم الى عظيم لطفه وبره ممتدة ، ولا يمكن أن يخلو الموقف عن الأخيار والصالحين وأرباب القلوب والتمنين ، بل الظاهر حضور طبقات الأبدال وأوتاد الأرض فيه ، فلا تستبعدن أن تصل الرحمة من ذي الجلال بواسطة القلوب العزيزة ، والنفوس القادسة الشريفة الى كافة الخليقة ، ولا تظن أنه يخيب آمال الجميع ، ويضيع سعيهم ، ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم عن الأهل والأوطان ، فإن بحر الرحمة أوسع من أن يضمن به في مثل هذه الحالة ، ولذا ورد أنه من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله لم يغفر له .

فصل

المشعر

واذا فاض من عرفات ودخل المشعر فليتكبر عند دخوله فيه أن الله سبحانه قد أذن له في دخول حرمة بعد أن كان خارجا عنه ، إذا المشعر من جملة الحرم وعرفات خارجة عنه ، فليتكبر من دخول الحرم بعد خروجه عنه بأن الله سبحانه قرّبه اليه وكساه خلع القبول ، وأجاره وآمنه من العذاب والبعد ، وجعله من أهل الجنة والقرب

فصل

ما ينبغي عند الرمي والذبح

وإذا ورد منى وتوجه إلى رمي الجمار فليقصد به الانقياد والامتثال إظهاراً للرق والعبودية ، وتشبيهاً بالخليل الجليل عليه السلام حيث عرض له إبليس اللعين في هذا الموضع ليفسد حججه فأمره الله تعالى أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأصله ، وينبغي أن يقصد أنه يرمي الحصا إلى وجه الشيطان ، ويقصم به ظهره ، ويرغم به أنفه إذا امتثال أمر الله تعالى تعظيماً له يقصم ظهر اللعين ويرغم أنفه ، وإذا ذبح الهدي فليستحضر أن الذبح إشارة إلى أنه بسبب الحج قد غلب على الشيطان والنفس الأمارة وقتلها ، وبذلك استحق الرحمة والغفران ، ولذا ورد أنه يعتق بكل جزء من الهدي جزءاً منه من النار ، فليجتهد في التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الأعمال القبيحة حتى يصير حاله أحسن من سابقه ليصدق عليه إزاله الشيطان والنفس الأمارة في الجملة ، ولا يكون في عمله من الكاذبين ، ولذلك ورد أن علامة قبول الحج أن يصير حاله بعد الحج أحسن مما كان عليه قبله ، وفي الخبر أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي وأن يستبدل باخوانه البطالين اخواناً صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة بمجالس الذكر واليقظة .



أسرار الحج

قد ورد عن مولانا الصادق عليه السلام خبر يتضمن عمدة أسرار الحج دقائمه ، فلنذكره تيمناً بكلماته الشريفة .

قال عليه السلام : « اذا أردت الحج فجرد قلبك لله عز وجل من قبل زمك من كل شغل شاغل ، وحجب كل حاجب ، وفوض امورك كلها الى الله ، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك ، وسلم لقضائه حكمه وقدره ، وودع الدنيا والراحة والخلق ، وأخرج من حقوق يلزمك من همة المخلوقين ، ولا تعتمد على زادك وراحلتك واصحابك وقوتك وشبابك بالك مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً ، فإن من ادعى رضا الله ، واعتمد على شيء ما سواه صير له عليه عدواً ووبالاً ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ، لا أحد إلا بعصمة الله تعالى وتوقيه ، واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع ، حسن الصحبة ، وراع أوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه صلى الله عليه وآله ، ايجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاوة وإيثاره على دوام الأوقات ، ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك ، والبس ثوب الصدق والصفاء والخضوع والخشوع ، وأحرم من كل شيء يمنعه عن ربه عز وجل ويحببك عن طاعته ، ولب بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية عز وجل في دعوتك له ، متمسكاً بالعروة الوثقى ، وطف بقلبك مع الملائكة

حول العرش كطوافك مع المساكين بنفسك حول البيت ، وهرولاً هرولة فرّاً
من هوائك ، وتبرّأ من جميع حولك وقوتك ، واخرج من غفلتك وزلاّتك
بمخروباك الى منى ، ولا تمن مالاً يحل لك ولا تستحقه ، واعترف بالخطأ
بالعرفات ، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته ، وتقرب اليه ، واتقه
بزدلفه ، واصمد بروحك الى الملائكة على الجبل ، واذهب حنجره
المهوى والطمع عند الذبيحة ، وارم الشهوات والحساسة والدناءة والأفصال
والذميمة عند رمي الجمرات ، وأخلق السيوب الظاهرة والباطنة بخلق شعرك ،
وادخل في أمان الله وكفنه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم ،
وزر البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله ، واستلم الحجر رضىً
بقسمته ، وخضوعاً لعظمته ، وودع ما سواه بطواف الوداع ، وصّف روحك ،
وسرّك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا ، وكن ذا مرة من الله
ببناء أوصافك عند المروة ، واستقم على شروط حجّتك ، ووفاء عهدك
الذي عاهدت ربك ، واوجب له الى يوم القيامة ، واعلم بان الله لم يفترض
الحج ، ولم يخصه من جميع الطاعات بالاضافة الى نفسه بقوله تعالى : « وَلِلّٰهِ
عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » (١) ولا شرّع نبيه
صلى الله عليه وآله سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرّعه إلا للاستعداد
والإشارة الى الموت والقبر والبعث والقيامة ، وفضل بيان السبق من دخول
الجنة أهلها ، ودخول النار أهلها بمشاهدة مناسك الحج من أولها الى آخرها
لاولى الأبواب وأولى النهى » (٢)

(١) آل عمران الآية ٩٧ .

(٢) صحيحنا الحديث على مصباح الشريعة الباب ٢١ .

خاتمة

زيارة المشاهد

في الإشارة الى بعض الامور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد . اعلم أن
 لنفوس القوية القدسية لاسيما نفوس الانبياء والأئمة عليهم السلام ، اذا نفضوا
 بدانهم الشريفة ، وتجردوا عنها ، وصعدوا الى عالم التجرد ، وكانوا في غاية
 للاحاطة والاستيلاء على هذا العالم فامور هذا العالم عندهم ظاهرة منكشفة ، ولهم
 لقوة والتمكن على التأثير والتصرف في مواد هذا العالم ، فكل من يحضر
 مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه ، لاسيما ومقابرهم مشاهد ارواحهم المقدسة
 لعلية ، ومحال حضور اشباحهم البرزخية النورية فانهم هناك يشهدون ،
 « بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » (١) ، وبما آتاهم الله من فضله
 رحون ، فلهم تمام العلم والاطلاع بزاثري قبورهم ، وحاضري مراقدهم ،
 ما يصدر عنهم من السؤال والتوسل والاستشفاع والنصرع ، فتهب عليهم
 سمات أطاذهم ، وتفيض عليهم من رشحات أنوارهم ، ويشفعون الى الله في
 قضاء حوائجهم ، وإنجاح مقاصدهم ، وغفران ذنوبهم ، وكشف كربهم ،
 لذا هو السر في تأكد استحباب زيارة النبي والأئمة عليهم السلام مع ما فيه
 من صلتهم وبرهم واجابتهم وإدخال السرور عليهم وتجديد عهد ولايتهم وإحياء
 رهم وإعلاء كلمتهم وتبكييت أعدائهم ، وكل واحد من هذه الامور مما لا يخفى
 عظيم أجره وجزيل ثوابه ، وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات ، وأشرف

الطاعات ، مع أن زيارة المؤمن من جهة كونه مؤمناً فحسب عظيم الأجر ، جزيل الثواب ، وقد ورد به الحديث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة ، ولذلك كثر تردد الأحياء الى قبور أمواتهم الزيارة ، وتعارف ذلك بينهم حتى صارت لهم سنة طبيعية ، وأيضاً قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله ، وثواب صلته وبره وادخال السرور عليه ، وإذا كان الحال في المؤمن من حيث حيث إنه مؤمن ، فما ظنك بمن عصمه الله من الخطأ ، وطهره من الرجس ، وبعثه الله الى الخلائق أجمعين ، وجعله حجة على العالمين ، وارتضاه إماماً للمؤمنين ، وقدوة للمسلمين ، ولأجله خلق السموات والأرضين ، وجعله صراطه وسبيله وعينه ودليله ، وبابه الذي يؤتى منه ، ونوره الذي يستضاء به ، وأمينه على بلاده ، وحبله المتصل بينه وبين عباده من رسل وأنبياء وأئمة وأولياء .

ثم الأخبار الواردة في فضيلة زيارة النبي والأئمة عليهم السلام مما لا تحصى كثرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من زار قبري بعد موتي كان كمن هاجر إلي في حياتي ، فإن لم تستطيعوا فابعثوا إلي بالسلام فإنه يبلغني » ، وقال صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام : « يا أبا الحسن إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعاً من بقاع الجنة ، وعروسة من عرصاتنا ، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه ، وصفوة من عباده ، تحن إليكم ، وتحتمل المنلة والأذى فيكم ، فيعمرون قبوركم ، ويكثرون زيارتها تقرباً منهم الى الله ، ومودة منهم لرسوله ، أوليك يا علي المخصوصون بشفاعتي ، والواردون حوضي ، وهم زواري وجيراني غداً في الجنة ، يا علي من عمر قبورهم وتعاهدها فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس ، ومن زار قبوركم عدل

ذلك سبعين حجة بعد حجة الاسلام ، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم
 كيوم ولدته امه ، فابشر وبشّر أولياءك ومحبيك من النعيم وقرّة العين بما
 لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واسكن حثالة
 من الناس يعيرون زوار قبوركم كما تعيّر الزانية بزناها ، اولئك شرار امتي ،
 لا تنالهم شفاعتي ، ولا يردون حوضي » (١) ، وقال الصادق عليه السلام :
 « لو أن احدكم حج دهره ثم لم يزر الحسين بن علي عليه السلام ، لكان تاركا
 حقاً من حقوق رسول الله صلى الله عليه وآله لأن حق الحسين عليه السلام
 فريضة من الله واجبة على كل مسلم » ، وقال الرضا عليه السلام : « إن لكل
 إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته ، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الاداء
 زيارة قبورهم ، فمن زارهم رغبة في زيارتهم ، وتصديقاً بما رغبوا فيه كان
 أئمة شفعاءه يوم القيامة . والأخبار في فضل زيارة النبي والأئمة المعصومين
 لا سيما زيارة سيد الشهداء وأبي الحسن الرضا عليهم أفضل التعمية والثناء ،
 وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد أكثر من أن يحصى ، وهي مذكورة
 في كتب المزار لأصحابنا فلا حاجة الى ايرادها هنا .

(١) صحيحنا الحديث على مستدرک الوسائل المجلد الثاني كتاب الحج

١٠ ابواب المزار وما يناسبه ص ١٩٥ - ١٩٦ .

فصل

ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة

وإذا عرفت فضل زيارتهم وسرها ، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم فينبغي أن تكثر التواضع والتخضع والانكسار عند الدخول في بلادهم ، ومراقتهم المنورة ، ومشاهدتهم المكرّمة ، وتستحضر في قلبك عظمتهم وجلالهم ، وتعرف عظيم حقهم ، وغاية جدّهم وسعيهم في ارشاد الناس ، وإعلاء كلمة الله ، فإذا قربت المدينة المنورة ، ووقع بصرك على حيطانها تذكر أنها البلدة التي إختارها الله لنبيه صلى الله عليه وآله ، وجعل اليها هجرته ، وأنها البلدة التي فيها شرع فرائض ربه وسننه ، وجاهد عدوه ، وأظهر بها دينه ، ولم يزل قاطناً بها إلى أن توفاه الله وجعل تربته فيها .

ثم مثل في نفسك أقدام رسول الله صلى الله عليه وآله عند تردداتك فيها ، وتذكر أنه مامن موضع قدم تطأه إلا وهو موضع قدمه العزيز ، فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينه ووجل . وكن منذ كراً لمشية وتخطيه في سككها ، وتصور سكينته ووقاره وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه ، وما استودع الله في قلبه من عظيم معرفته ، ورفعة ذكره حتى قرنه بذكر نفسه ، وأنزل عليه كلامه العزيز ، وأهبط عليه روح الأمين وسائر ملائكته المقربين . وأحبط عمل من هنك حرمة ولو برفع صوته فوق صوته ، ثم تذكر مامن الله به على الذين ادركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه ، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته ، وتضرع إلى الله ألا تفوتك صحبته في الآخرة ، ولتعظم رجاءك

في ذلك بعد أن رزقك الله الايمان ، وأشخصك من أرضك لأجل زيارته ،
محبة له ، وتشوقاً اليه .

ثم اذا دخلت مسجده فتذكر أن أول موضع اقيمت فيه فرائض الله
تلك العرصة وأنها تضمنت أفضل خلق الله حياً وميتاً ، فارج الله غاية الرجاء
أن يرحمك بدخولك اياه خاشعاً معظماً ، وما أجدر ذلك المكان بأن يستدعي
الخشوع من قلب كل مؤمن ، ثم اذا أتيت لزيارة فينبغي ان تقف بين يديه
خاضعاً خاشعاً خائفاً ، وتزوره ميتاً كما تزوره حياً ، ولا تقرب من قبره إلا كما
تقرب من شخصه الكريم لو كان حياً ، إذ لا فرق بين ميتته وحيته ،
ولو وجدت التفرقة في قلبك لما كنت مؤمناً ، ولتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك
وزيارتك ، وأنه يبلغه سلامك وصاواتك ، فمثل صورته الكريمة في خيالك
جالساً على سرير المظمة بجذائك ، وأحضر عظيم رتبته في قلبك ، وقد ورد
أن الله تعالى وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته ، وهذا في
حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الأهل والوطن ، وقطع البوادي
شوقاً الى لقاءه ، واكتفى وقنع بمشاهدة مشهده المنور إذ فاتته مشاهد طلعته
البهية ، وغرته الكريمة ، وقد قال صلى الله وآله : « من صلى علي مرة
صليت عليه عشراً » فهذا جزاؤه عليه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور
لزيارته ببدنه .

واذا فرغت من زيارته فأنت المنبر وامسحه بيدك ، وخذ برمانيته وامسح
بها وجهك وعينيك ، وتضرع الى الله وابتهل اليه واسأل حاجتك ، وتوهم
صعود النبي صلى الله عليه وآله المنبر ، ومثل في قلبك طلعته البهية قائماً على
المنبر وقد أحرق به المسلمون من المهاجرين والأنصار وهو يحمد الله بافصح

الكلمات واللغات ، ويحث الناس على طاعة الله ، واسأل الله ألا يفرق في القيامة بينه وبينك ، ويجعلك في جواره ، ويعطيك منزلاً في قرب داره .

فصل

ما ينبغي الزائر عند دخول النجف و كربلاء

وإذا دخلت أرض النجف لزيارة أمير المؤمنين وسيد الوصيين عليه السلام تذكر أنها وادي السلام ، وجمع أرواح المؤمنين وقد شرفها الله وجعلها أشرف البقاع ، وجنة المؤمنين ، فما من مؤمن خالص إلا وبعد الموت يأتي روحه إليها ، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين إلى أن يدخلوا دار كرامته العظمى في القيامة الكبرى ، وقد أكدت شراقتها وعظم قدرها بأن جعلها مدفن وصي رسوله بعد أن كانت مدفن آدم أبي البشر ونوح شيخ المرسلين عليهما السلام ، فاسأل الله أن يأتي بروحك إليها ، ويدخلك في زمرة المؤمنين ويجعلها محل دفنك لتنال شفاعته مولاه عليه السلام ، ولا يحشرك مع الكفار والعصاة في وادي برهوت . وإذا أتيت لزيارته تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله ، وراع الآداب التي ذكرناها في زيارة رسول الله صلى الله عليه وآله .

وإذا أردت أرض كربلاء لزيارة سيد الشهداء عليه السلام فتذكر أن هذه الأرض هي التي قتل فيها سبط الرسول وأولاده وأقاربه واجناده ، وأسست فيها أهاليه وأهل بيته ، فجدد الحزن على قلبك ، وادخلها أشعث اغبر منكسر الحال ، محزون القلب ، كئيباً حزيناً باكياً ، وأحضر في قلبك حرمة هذه الأرض وشراقتها ، فإنها الأرض التي في تربتها الشفاء ، ولا يرد فيها الداء ،

وقد يجعلها الله يوم القيامة أرفع بقاع الجنة ، فتردد فيها على سكرينة ووجل .
ثم اذا دخلت الحائر الزيارة ووقع بصرك على ضريحه المنور ثم على
ضريح اصحابه المستشهدين معه ، المجتمعين في موضع واحد في جواره فمثل في
قلبك اشخاصهم ، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلاء والحزن ، واحضر
في نفسك أبا عبد الله الحسين عليه السلام واقفاً في عرصة كربلاء . ويأتي أصحابه
واحداً واحداً يستأذن منه للجهاد قائلاً السلام عليك يا أبا عبد الله وهو
يأذن له ، ويلقي نفسه في الميدان على الجمل الغفير فيقتل في سبيله واذا أيس من
حياته ينادي بأعلى صوته ادركني يا أبا عبد الله وهو عليه السلام يسرع اليه
كالصقر المنقض ويأخذ جثته من الميدان ، ويلحقه بسائر اخوانه الشهداء ،
فمثل في نفسك أمثال ذلك ، وجدد عليهم الحزن والبكاء ، وتمنّ كونك
معه في تلك العرصة ، وقل ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً .

ثم راع الآداب الباطنة لزيارته عليه السلام ، وقس على ذلك زيارة
كل واحد من الأئمة عليهم السلام ، فإنه ينبغي لك أن تستحضر عند حضورك
كل واحد منهم جلالة شأنه ، وعظمة قدره ، وعظيم حقه ، وتذكر
ما ينامب حاله ، وما جرى عليه ، ثم تستشعر في قلبك ما يترتب عليه من
التعظيم والإجلال والخوف والحزن والفرح وأمثال ذلك .

هذا آخر كتاب جامع السعادات ، والحمد لله على إتمامه ، وأسأل الله
أن يجعلنا من العاملين به ، وينفع به جميع عباده السالكين اليه ، وقد وقع
الفراغ من جمعه وتأليفه في سلخ شهر ذي القعدة الحرام سنة ست وتسعين ومائة
بعد الألف من الهجرة النبوية على مهاجرها الف الف سلام وتحية ،

هذا آخر ما كتبه المصنف قدس سره .

فهرس الجزء الثالث من (جامع السمات)

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٤٣	مراتب الناس في ذكر الموت	٤٣	بقية المقام الرابع المتعلق بالقوى
٤٤	المبادرة الى الحسنات	٤٤	الثلاث أو بئنتين منها من الرذائل
٤٥	[٣] العصيان	٤٥	والفضائل وهي ثلاثة عشر نوعاً
٤٥	[٤] الوقاحة	٤٥	[١] الفرور
٤٧	[٥] الاصرار على المعصية	٤٧	ذم الفرور
٤٩	التوبة وتعريفها	٤٩	طوائف الفرورين وم سبعة
٥٣	هل يشترط في التوبة القدرة	٥٣	(١) الكفار
٥٣	على الذنب السابق	٥٣	(٢) العصاة والفساق من المؤمنين
٥٥	وجوب التوبة	٥٥	(٣) أهل العلم
٥٦	تحقيق في وجوب التوبة	٥٦	(٤) الوعاظ
٥٩	عموم وجوب التوبة	٥٩	(٥) أهل العبادة والعمل
٦٢	تذنب	٦٢	(٦) المتصوفة
٦٣	لا بد من العمل بعد التوبة	٦٣	(٧) الأغنياء وارباب الأموال
٦٥	فضيلة التوبة	٦٥	ضد الفرور الفطانة والعلم والزهد
٦٦	قبول التوبة	٦٦	[٢] طول الأمل
٧٠	طرق التوبة عن المعاصي	٧٠	علاج طول الأمل
٧٣	تكفير الصغار ومعنى الكبار	٧٣	قصر الأمل
٧٤	الصغار قد تكون كبار	٧٤	ذكر الموت مقصر للأمل
٧٨	شروط كمال التوبة	٧٨	العجب بمن ينسى الموت
٧٩	هل يصح التبعيض في التوبة	٧٩	الموت اعظم الدواهي

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
النية غير اختيارية	١٢١	أقسام التائبين	٨١
الطريق في تخليص النية	١٢٢	مراتب التوبة	٨٢
[٧] الكراهة	١٢٣	عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع	٨٤
الشوق	١٢٥	من التوبة	
أفضل مراتب الشوق الشوق	١٢٦	علاج الاصرار على الذنوب	٨٧
الى الله		الانابة	٨٨
تعلق الحب بجميع القوى	١٣٣	المحاسبة والمراقبة	٨٩
أقسام الحب بحسب مبادئه	١٣٤	المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة	٨٩
لا محبوب حقيقة إلا الله	١٤١	حاسبوا انفسكم قبل أن	٩٠
الشهود التام هو نهاية درجات	١٤٦	تحاسبوا	
العشق		مقامات مرا بطة العقل للنفس وهي	٩٣
سريان الحب في الموجودات	١٤٨	أربع مقامات	
رد المنكرين لحب الله	١٤٩	(١) المشاركة	٩٣
معرفة الله أقوى سائر اللذات	١٥٦	(٢) المراقبة	٩٦
تحقق رؤية الله في الآخرة	١٦٠	(٣) المحاسبة	٩٨
ولذة لقائه		(٤) معاتبة النفس	١٠٠
الطريق الى الرؤية واللقاء	١٦٨	[٦] الغفلة	١٠٥
تفاوت المؤمنين في محبة الله	١٧٠	الغفلة موجبة للحرمان	١٠٧
الواجب أظهر الموجودات	١٧١	ضد الغفلة النية	١٠٧
علام محبة الله	١٧٤	تأثير النية على الاعمال	١٠٩
معنى حب الله لعبده	١٧٩	النية روح الاعمال والجزاء	١١١
الحب في الله والبغض في الله	١٨٢	بحسبها	
الوفاء في الحب	١٨٧	عبادة الأحرار والأجراء	١١٥
الانس بالله	١٩٠	والعبيد	
		نية المؤمن خير من العمل	١١٨

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الشكر نعمة يجب شكرها	٢٣٨	الانس قد يشمر الادلال	٩٠
المدارك تميز محاب الله عن	٢٣٩	العزلة	١٩٣
مكارهه		السخط [٨]	١٩٨
أقسام النعم والذات	٢٤٥	الرضا	٢٠٠
تنبيه	٢٥٠	فضيلة الرضا	٢٠٣
الأكل	٢٥١	رضا الله	٢٠٤
لا فائدة في الغذاء ما لم يكن	٢٥٣	رد إنكار تحقق الرضا	٢٠٥
بشهوة وهيل		هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا	٢٠٧
عجائب المأكولات	٢٥٤	طريق تحصيل الرضا	٢١١
حاجة تحضير الطعام الى آلاف	٢٥٧	التسليم	٢١١
الاسباب		الحزن [٩]	٢١٢
تسخير الله للتجار لطلب الطعام	٢٥٩	عدم الاعتماد [١٠]	٢١٤
نعم الله في خلق الملائكة للانسان	٢٦٠	التوكل	٢١٦
الاسباب الصارفة للشكر	٢٦٥	فضيلة التوكل	٢١٨
طريق تحصيل الشكر	٢٦٨	درجات التوكل	٢٢١
الصحة خير من السقم	٢٧٢	السعي لا ينافي التوكل	٢٢٣
الجزع [١٢]	٢٧٥	الاسباب التي لا ينافي السعي	٢٢٤
الصبر	٢٧٦	اليها التوكل	
مراتب الصبر	٢٧٩	إعقل وتوكل	٢٢٥
أقسام الصبر	٢٨١	درجات الناس في التوكل	٢٢٦
فضيلة الصبر	٢٨١	تفنيد زعم	٢٢٨
الصبر على السراء	٢٨٨	طريق تحصيل التوكل	٢٢٩
اختلاف مراتب الصبر في الثواب	٢٩٣	الكفران [١١]	٢٣١
طريق تحصيل الصبر	٢٩٤	فضيلة الشكر	٢٣٥

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٩٥	تتميم	٣٤١	النية
٢٩٧	التلازم بين الصبر والشكر	٣٤٢	تكبير الاحرام
٣٠١	القانون الكلي في معرفة الفضائل	٣٤٣	دعاء الاستفتاح
٣٠٢	تفضيل الصبر على الشكر	٣٤٤	الاستعاذة
٣٠٤ [١٣]	الفسق	٣٤٧	الركوع
٣٠٤	الطهارة	٣٤٩	السجود
٣٠٧	حقيقة الطهارة	٣٥٠	التشهد
٣٠٨	ما ينبغي للمؤمن في الطهارة	٣٥٢	التسليم
٣١٢	إزالة الاوساخ	٣٥٣	إفاضة النوار على المصلي
٣١٣	آداب الحمام	٣٥٥	ما ينبغي في إمام الجماعة
٣١٤	السرف في إزالة الاوساخ	٣٥٦	ما ينبغي في صلاة الجماعة
٣١٦	الصلاة		والعبد
٣١٩	حقيقة الصلاة	٣٥٧	ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات
٣٢٠	حضور القلب	٣٥٨	الذكر
٣٢٧	دفع اشكال	٣٦٠	فضيلة الذكر
٣٢٨	شرائط الصلاة	٣٦١	الدعاء
٣٣٠	طريق تحصيل المعاني الباطنة	٣٦٣	تلاوة القرآن
٣٣٣	أسرار الصلاة	٣٧٤	الصوم
٣٣٤	الوقت	٣٧٤	ما ينبغي للصائم
٣٣٥	آداب الصلاة	٣٧٦	ما ينبغي للصائم عند الافطار
٣٣٦	آداب المصلي	٣٧٦	درجات الصوم
٣٣٨	الاستقبال	٣٧٩	الحج
٣٣٩	القيام	٣٧٩	الغرض من إيجاد الانسان
٣٤٠	التكبيرات	٣٨٢	ما ينبغي في الحاج

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
المشعر	٣٩١	المیقات	٣٨٦
ما یذبغی عند الرمی والذبیح	٣٩٢	ما یذبغی فی المیقات	٣٨٦
ما یذبغی الزائر عند دخول	٣٩٨	ما یذبغی عند دخول مكة	٣٨٧
المدينة المنورة		ما یذبغی عند الطواف	٣٨٨
ما یذبغی الزائر عند دخول	٤٠٠	ما یذبغی عند استلام الحجر	٣٨٩
النجف وكر بلاه		السعی	٣٩٠
		ما یذبغی عند الوقوف بمرفات	٣٩٠

